

«رواية رائعة عن الحب والفوضى،
مبنية بأساذية»
«زادي سميث»

الأمريكي الهادي

رواية

جراهام جرين

t.me/qurssan





•

جراهام جرين الأمريكي الهادئ

ترجمها عن الإنجليزية
شوقي جلال ومحمود ماجد





مزيد من المعلومات عن الكرمة: www.facebook.com/AlKarama.org

العنوان (الألماني): The Other American

حقوق النشر: ٤٥ جراحام جرين ١٩٨٨

©Verdant SA, 1995

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة: © شوقي جلال ومحمود حميد

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

جرم: جراحام

الأدوية: الهبة: زوجة جراحام جرين: ترجمة شوقي جلال ومحمود حميد - القاص: الكرمة للنشر ٢٠١٩

٢٢٨ من ٢٠١ م

تتبع: 9789774306699

٩ - القصص الأمريكية

١ - جلال، شوقي وساحل، محمود (مترجم).

٢ - العنوان:

رقم الإصدار: ١٩٢٠١ / ٢٠١٩

٢٤٢٨٩٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد عطفت مجاهد



عزيزي «رييه» و«فونج»،

طلبت الإذن لإهداء هذا الكتاب لكما، ليس فقط من أجل الأسميات السعيدة التي قضيتها معكما في سايجون خلال السنوات الخمس الماضية، لكن أيضًا لأنني -بعض الوفاحة- استعرت موضع شقنكما لبصيص منزل إحدى شخصياتي، واسمك، «فونج»، لمناسبتة للقارئ، بسبب بساطته وجماله وسهولة نطقه، وهي أمور ليست متحققة في كل أسماء النساء في بلدكما. ستدركان أنني تقريبًا لم أستمع شيئًا آخر، وبالتأكيد لم أستمع ملامح أي شخص في فيتنام. إن «بايل» و«جرانجر» و«قاو لور» و«فيجو» و«جو» لا أصل لهم في سايجون أو هانوي، أما الجنرال «تي» فقد مات، قُتل مغدورًا، كما يُقال. حتى الأحداث التاريخية أعيد ترتيبها. مثلاً، التفجير الكبير قرب «الكوتنتال» سبق تفجير الدراجات ولم يثله. لم أتردد في عمل تعديلات صغيرة كذلك. هذه قصة وليست عملاً تاريخيًا، وأرجو أن تكون قابلة للتصديق بالنسبة لكما -بصفتها قصة عن بضع شخصيات خيالية- في أحد مساءات سايجون الحارة.

المخلص

«جراهام جرين»



t.me/qurssan



لا أحب أن أحرّك، فهذا يثير الإرادة، والعمل
شيء بالغ الخطورة؛ أرتعد خوفاً من الشيء الزائف،
من سوء تصرفات القلب ومن الإجراءات الشاذة،
فنحن مبالون تماماً إليها، بمفاهيمنا الرديئة عن الواجب.
«إيه، إنتش، كلاف»

هذا عصر الاختراعات الجديدة ماعيناز
لقتل الأجساد، وإنقاذ الأرواح،
وكلها تُنشر بأفضل النوايا.

«بايرون»



t.me/qurssan



الجزء الأول



t.me/qurssan

الفصل الأول

جلست بعد العشاء في غرفتي المظلة على شارع كاتينات منتظرًا «بايل»، وكان قد قال لي: «سأكون معك في العاشرة على الأكثر». وعندما دقت الساعة منتصف الليل لم أستطع البقاء ساكنًا مدة أطول فنزلت إلى الشارع. وعند منبسط الدرج، كانت مجموعة من النسوة الحجاثر يجلسن القرفصاء، وقد لبسن السراويل السوداء. كنا في فبراير، وأحسب أن الجو كان قائفًا بدرجة لا تسمح لهن بالبقاء في الفراش. كان أحد سائقي «النريشو» يدرج ببطء متخذًا وجهته إلى النهر. وكنت أرى المصابيح المشتعلة حيث أنزلوا شحنات الطائرات الأمريكية الجديدة. لم تكن ثمة علامة تشير إلى وجود «بايل» في أي مكان من الشارع الطويل.

حدثت نفسي أنه ربما كان محتجزًا في المفوضية الأمريكية لأمر ما. غير أنه في هذه الحالة بالتأكيد كان حربيًا أن يتحدث في التلفون إلى المطعم، فقد كان فيما يختص بالمعاملات الصغيرة مبالغًا في التدقيق والتأدب. وعندما التفت مزمعًا الدخول من باب المطعم،

لمحت فتاة منتظرة عند المدخل التالي. لم أستطع أن أرى وجهها، وإن رأيت فقط سروالها الأبيض الحريري وثوبها الطويل المنقوش بالأزهار. ولكنني عرفتها مع ذلك، فقد تعودت كثيرًا أن تنتظر عودتي إلى البيت في نفس هذا المكان ونفس الساعة.

ناديتها: «فونج». والكلمة تعني «طائر العنقاء»، وإن لم يكن في أيامنا هذه شيء خرافي، ولا شيء يخرج من رماده بعد احتراقه. وعرفت أنها كانت تنتظر «بابل»، وابتدعتها بقولي:

- إنه ليس هنا.

فردت بالفرنسية:

- أعرف، رأيتك وجيّدًا وراء النافذة.

- من الأفضل أن تنتظريه في الشقة، سيأتي حاليًا.

- أستطيع الانتظار هنا.

- خير لك ألا تفعل ذلك، فقد يعتقك البوليس.

تبعني إلى الشقة، فكرت في بعض التلميحات التهكمية والمبشة التي يمكن أن أقولها، ولكن لم تكن لغتها - سواء الإنجليزية أو الفرنسية - جيدة بما يكفي لفهم التهكم. ومن الغريب أنني لم يكن لديّ الرغبة في إيلاهما أو حتى إيلام نفسي. عندما وصلنا إلى منبسط الدرج تحولت إلينا رؤوس جميع النسوة العجائز، وحالما تجاوزناهن لفظن وارتفعت أصواتهن وانخفضت كما لو كن يغنين معًا.

- عم يتحدثن؟

- إنهن يرين أنني قد عدت إلى بيتي.

وفي داخل غرفتي كانت الشجرة التي أقمعتها منذ أسابيع مضت

احتفالاً برأس السنة الصينية قد أسقطت معظم أزهارها الصفراء بين
مفاتيح ألتي الكاتبة. استخلصتها من بينها. قالت «فونج» بالفرنسية:
- أنت قلق.

- ليس هذا من مألوف عاداته، فهو رجل دقيق المواعيد للغاية.
خلعت رباط عني وحذائي واستلقيت على السرير. وأوقدت
«فونج» الموقد الغازي، وشرعت تغلي الماء للشاي. ربما كانت قد
مرت ستة أشهر منذ آخر لقاء لنا. قالت:

- يقول إنك سترحل في القريب العاجل.

- ربما.

- إنه مغرم جداً بك.

- شكرًا له، أنا لم أفعل شيئًا يذكر.

لاحظت أنها تصفف شعرها بطريقة مختلفة، إذ تركه يترسل،
بلونه الأسود، مباشرة على كتفها. وتذكرت أن «بايل» انتقد ذات مرة
طريقتها في تصفيف شعرها التي كانت تعتقد أنها الطريقة اللائقة ببنات
الحكام. أغمضت عيني فعادت «فونج» مرة أخرى كما كانت: هسهسة
بخار، وخشخشة فنجال، كانت ساعة من الليل معينة ووعداً بالراحة.
قالت، كأنها تُسري عني لغيابه: «إنه لن يتأخر كثيرًا».

ساءلت نفسي: أي شيء اعتادا أن يتحدثنا عنه معًا؟ لقد كان «بايل»
جاذبًا للغاية، كم هانيت من محاضراته عن الشرق الأقصى الذي
خبره لشهور وخبرته لسنوات. كانت الديمقراطية موضوعاً آخر من
موضوعات حديثه، وله آراء معلنة وحادة عما تفعله الولايات المتحدة
للعالم. من ناحية أخرى، كانت «فونج» جاهلة بصورة مريضة، فلو

ورد ذكر «هتلر» في مناقشة لكانت جذيرة بأن تقاطعها لتسأل: من هو «هتلر»، ولكان الجواب أصعب عليها فهما فهي لم ترَ أبدًا ألمانيًا أو برلينيًا، ولا تعرف عن جغرافية أوروبا غير معلومات غامضة ومبهمة للغاية، رغم أنها تعرف بالطبع عن الأميرة «مرجريت» أكثر مما أتيج لي أن أعرف. سمعتها تضع صينية على طرف السرير.

- ألا يزال «بابل» متبًا بك يا «فونج»؟

إن من يصطحب إلى فراشه فتاة من الجنس الأنثوي يكون أشبه بمن يصطحب بلبلا، فإنهن يغردن ويغنين لك على وسادتك. مر بي وقت كنت أظن فيه أن لا واحدة منهن تغني بصوت يضارع صوت «فونج». مددت يدي ونحسست ذراعها، كانت عظامها نحيلة كعظام طائر.

- أهو كذلك يا «فونج»؟

فضحكت، وسمعتها تشعل ثقابًا، نساء لت: «مقيم؟». ربما كان هذا أحد التعبيرات التي لا نفهمها.

سألني:

- هل أجهز لك غليونك؟

وعندما فتحت عيني كانت قد أضاءت المصباح وانتهت من إعداد الصبغة، وقد جعل ضوء المصباح بشرتها في لون الكهرمان الداكن بينما كانت تنحني على اللهب وقد تقطب جبينها علامة على الاهتمام والتركيز، وهي تسخن قطعة من عجينة الأفيون وتديرها بإبرتها. سألتها:

- ألا يزال «بابل» لا يدخن؟

- كلاً.

- ينبغي أن تحمله على التدخين، وإلا فلن يعود إليك.

كان من الخرافات الشائعة عندهم أن الحبيب المدخن يعود دائماً حتى ولو من فرنسا. قد يضعف التدخين من قدرة الرجل الجنسية، إلا إنهن يفضلن دائماً المحب المخلص المقتدر. ها هي الآن تشكل كرة صغيرة من عجينة الأفيون الساخن على الناحية المحدبة من طاسة الغليون، واستطعت أن أشم رائحته التي لا مثيل لها. بجانب السرير كان المنبه يشير إلى الساعة الثانية عشرة والثلاث، ولكن تونري كان قد زال تماماً. نضاء إحساسي به بايل. أعضاء المصباح وجهها وهي تتحنى على الغليون الطويل باهتمام جاد جدير بأن توليه طفلاً. كنت مفرماً بغليونني الذي يزيد طوله عن قدمين من البامبو المعتدل وقد حُلّي بالعاج عند طرفه، وعند ثلثي المسافة من طرفه الأعلى يوجد القدح، كزهرة لبلاب مقلوبة، صُقل الإطار المحدب واكتسب لوناً داكناً من جراء عمليات عجن الأفيون المتكررة. والآن، وبقرة رسغ خفيفة، غرزت الإبرة في النجوة فأسقطت فيها الأفيون، وقلبت الطاسة فوق اللهب ممسكة بالغليون ببات تجاهي. وانساب قطرات الأفيون متدافعة بلطف وأنا أجتذب الأنفاس.

إن المدخن المتمرس يستطيع أن يأتي على عبوة الغليون في نفس واحد، بيد أن الأمر كان يحتاج مني إلى عدة أنفاس. ثم أستلقي على ظهري مريحاً رقبتي على الوسادة الجلدية، بينما كانت تعد الغليون ثانية.

- أتعرفين، في الحقيقة، الأمر واضح كالشمس، إن «بابل» يعرف أنني أدخن غلايين قليلة قبل النوم، وهو لا يريد أن يعجنني، ولذا سيعود في الصباح.

دخلت الإبرة وأخذت غليوني الثاني، وبينما أستلقي قلت:

- لا شيء يدعو للانزعاج. لا شيء يدعو للانزعاج.

وأخذت رشقة من الشاي، وأسكتت يدي في إبطها، وقلت:

- من حسن الحظ أن اضطررت إلى العودة هنا بعد أن تركتني.

هناك منزل جميل في شارع أورماي. إننا مشر الأورويين نقيم

الدنيا ونقعد لها للا شيء. لا أحذ لك الحياة مع رجل لا يدخن

يا «فونج».

- لكنه سيتزوجني... الآن حالاً.

- طبعاً... هذا موضوع آخر.

- هل أعد لك غليونك ثانية؟

- نعم.

وسألت نفسي ما إذا كانت تقبل أن تنام معي تلك الليلة إن لم يأتي

«بابل». غير أنني كنت أعرف، أنني سأكف نهائياً عن الرغبة فيها عندما

أدخن أربعة غلايين. ولكن كم هو جميل أن أشعر بملمس فخذهما

إلى جواربي في السرير، فقد كانت تنام دائماً على ظهرها. وعندما

استيقظ في الصباح استطع أن أبدأ يومي بغليون بدل أن أبدأ وحيداً

بغير صاحب إلا نفسي. وقلت:

- لن يأتي «بابل» الآن... ابقي معي يا «فونج».

ناولتني طرف الغليون وهزت رأسها. وعندما انتهبت من جذب

أنفاس دخان الأفيون لم يعد حضورها أو غيابها يمثل لي شيئاً ذا بال.
وسألتني:

- لم لم يأت «بابل» إلى هنا؟

- كيف لي أن أعرف؟

- هل ذهب ليرى الجنرال «ني»؟

- لا أدري.

- لقد أخبرني أنه إذا لم يتمكن من تناول عشائه معك فسيأتي هنا.

- لا تشغلي بالك. سيأتي. أعدي لي غليوتاً آخر.

وعندما انحنت فوق اللهب شطرت في ذهني قصيدة «بودلير»

«طفلتي، أحياناً... وكيف تمضي الأبيات قائلة:

نعشق بدون حد

نعشق إلى حد الموت

في البلد الذي يشبهك

ومن بعيد كانت السفن ترقد على سطح الماء، تميز أجها المتسكع»^(١).

وخطر لي أنني لو شمت بشرتها فلا بد أن يكون لها شذا الأفيون

الخفيف، وكان لونها كاللهب الواهن النحيل. كنت قد رأيت الأزهار

المرسومة على نوبها إلى جانب القنوات في الشمال، كان الطابع

المحلي يستغرقها كما لو كانت عشباً من أعشاب هذه الأرض،

وزابلتني تماماً الرغبة في العودة إلى الوطن.

وقلت بصوت عالٍ: «كم أود لو كنت «بابل»». بيد أن ألمي كان

(١) من ترجمة سعيد الحندوبي لقصيدة «بودلير» المعنونة «دعوة إلى السفر»،
المصدر: <https://www.earthmag.com/denils/20170122140436> (الناشر).

محدودًا ومحملاً، فهكذا يصنع الأفيون. وطرق شخص على الباب.
قالت:

- «بابل؟»

- لا، ليست طرقاته.

وأعاد الشخص الطرق بصبر نافذ. فنهضت مسرعة، وهزت في
اندفاعها الشجرة الصفراء، فانتشرت بتلات أزهارها ثانية فوق ألتي
المكاتب. فُتح الباب، وانطلق صوت يطلب «ميو» «فاولير». فأجبت:
- أنا «فاولر».

لم أكن لأهب للقاء رجل من رجال البوليس، استطعت أن ألمح
بنطاله الكاكي القصير دون أن أرفع رأسي. علل سبب حضوره في
لغة فرنسية منطوقة بلهجة فيتنامية لا تكاد تفهم، بأنني مطلوب فورًا
وفي الحال وبسرعة في مكتب الأمن.

- مكتب الأمن الفرنسي أم الفيتامي؟

- الفرنسي.

بدت الكلمة من فمه وكأنها «الفرنسونج».

- لأي سبب؟

لم يكن يعرف إلا إن الأوامر لديه أن يحضرني. ثم قال له «فونج»:
«وأنت أيضًا».

قلت له:

- عندما تتحدث إلى سيدة قل «أنتم»، كيف عرفت أنها هنا؟

فاكتفى بترديد أن تلك كانت أوامره.

- سأحضر في الصباح.

- بل فوراً.

كان ضئيلاً مهندياً عنيذاً. لم يكن ثمة جدوى من النقاش، ولهذا نهضت، وعقدت رباط عنقي، ولبت حذائي. كانت للبوليس هنا الكلمة الأخيرة، وهم يستطيعون أن يسحبوا مني تصريح التجول، يستطيعون أن يمنعوني من حضور المؤتمرات الصحفية، بل يستطيعون - لو شاءوا - أن يرفضوا منحى تأشيرة الخروج. وتلك كانت الوسائل القانونية الصريحة، ولكن الصيغة القانونية ليست ضرورية في بلد في حالة حرب. أعرف رجلاً افتقد طاهيه فجأة ودون سبب واضح، وتبع آثاره وقاده هذا إلى مكتب الأمن الفيتنامي، فأكد له الضابط هناك أنهم أطلقوا سراحه عقب استجوابه، ولم تره أسرته بعد ذلك أبداً. ربما لحق بالشيوعيين، وربما سجل نفسه في أحد الجيوش الخاصة التي تنتشر حول سابجون، جيش «هوا هاو» أو جيش «الكاوديين» أو جيش الجنرال «تي». وربما كان في سجن فرنسي، أو لعله يكتسب الأموال - في سعادة - من تجارة الفتيات في كولون، المضاحية الصينية لسابجون. ويجوز أنه لفظ أنفاسه وهم بسجنوبونه. قلت لرجل البوليس: «لستُ معترفاً أن أمشي، وعليك أن تدفع أجرة «تريشو» لنقلنا». إذ على المرء أن يحافظ على كرامته. ذلك ما دعاني إلى أن أرفض السجاعة التي قدمها إليّ الضابط الفرنسي في مكتب الأمن. وبعد ثلاثة غلايين كنتُ أشعر بذهن صافٍ نشط يستطيع أن يتخذ بسهولة مثل هذه القرارات دون أن يحيد عن مواجهة السؤال الرئيسي: ماذا يريدون مني؟ لقد سبق لي أن قابلت الضابط «فيجو» عدة مرات في الحفلات. وقد استرعى

انتباهي لأنه كان على ما يبدو يحب زوجته - التي تنجاهله - حبًا غير مألوف، وهي شقراء مبهرجة زائفة. كان الوقت الآن الثانية صباحًا، وقد جلس مرهقًا مغموًا يلفه دخان السجائر ويخنقه الحر الشديد، مرتديًا كابتًا أخضر نصف شفاف، وأمامه على المكتب كتاب مفتوح لـ «بكال» يزجي به الوقت. وعندما رفضت السماح له باستجواب «فونج» في غير حضوري استلم على الفور، مطلقًا تهيلة وحيدة يمكن أن تشف عن إرهابه وضيقه بالحياة في سايجون، حيث الجو الحار، أو عن ضيقه بالأحوال البشرية عمومًا.

قال بالإنجليزية:

- آسف لاضطرابي أن أطلب منك الحضور.
- لم يُطلب مني الحضور بل أُمّرت بذلك.
- أوه، هذا الشرطي المحلي، إنهم لا يفهمون.
- وكانت عيناه على صفحة جريدة «لي بونسيه» ويبدو وكأنه ما زال منهمكًا في هذه المحاورات الكتيبة.
- أردت أن أسألك بضعة أسئلة عن «بايل».
- الأفضل أن توجه إليه هو أسئلتك.
- وتحول إلى «فونج» مستفسرًا في حلة وبلغة فرنسية:
- كم من الوقت أقمت مع مسيو «بايل»؟
- شهرًا... لست أدري.
- وكم دفع لك؟
- قلت:
- لاحق لك أن تسألها عن ذلك... إنها ليست للبيع.

فسأل بفظاظة:

- ألم تعدت الحياة معك؟ أليس كذلك؟ لقد عاشت معك عامين.

- إنني مراسل صحفي، مفروض أنني أتابع وأكتب عن حركم، هذا إذا تركتموني وشأني. لا تسألني أن أزودك بعادة لغضائحكم.

- ماذا نعرف عن «بابل»؟ من فضلك يا سيد «فاولر» أجب عن أسئلتي. أنا لا أريد أن أسأل تلك الأسئلة، لكن الأمر خطير. صدقني إن الأمر خطير جداً.

- لست مخبراً، وأنت نستطيع أن تعرف كل ما أستطيع أن أخبرك به عن «بابل». العمر اثنان وثلاثون، ويعمل في بعثة المعونة الاقتصادية، أمريكي الجنسية.

قال «فيجو» وهو يتجاوزني بنظره إلى «فونج»:
- يبدو أنك صديقه.

وهنا أحضر أحد رجال الشرطة المحليين ثلاثة أقذاح من القهوة.
سأل «فيجو»:

- أولئك تفضل المشاي؟
قلت مؤكداً:

- نعم أنا صديق، ولم لا؟ سأعود يوماً إلى الوطن، أليس كذلك؟ ولن أستطيع أن أخذها معي، وستكون على خير حال معه. هذا ترتيب عقلائي. وهو يقول إنه بصدد أن يتزوجها. وكما تعلم فهذا ممكن. إنه فتى طيب حسن السلوك وجاد. وليس واحداً من أولاد الحرام الصاخبين الذين تجدهم في فندق «الكوتنتال».
أمريكي هادئ.

اخترلت وصفه بدقة، وكأني أقول: «سحلية زرقاء»، «فيل أبيض». قال «فيجو» مؤكِّداً: «نعم»، وكان يبدو كما لو كان يبحث بعينه فوق مكتبه عن الكلمات التي تنقل ما يرمي إليه من معنى على نحو دقيق ومحدد كما فعلت. تابع: «أمريكي هادئ جداً»، ثم ظل ساكناً هناك في مكتبه الحار الصغير منتظراً أن يتكلم واحد منا. بدأت بعوضة في الطنين معلنة هجومها، وأنا أرقب «فونج». إن الأقبون يجعل المرء سريع البديهة، وربما كان السبب أنه يهدئ الأعصاب ويسكن الانفعالات. لا يبالي الإنسان معه كثيراً بأي شيء، حتى الموت نفسه. وظننت أن «فونج» لم تلتقط ما في صوته من سوداوية وحسم، فقد كانت لغتها الإنجليزية سقيمة جداً. وبينما كانت تجلس هناك على المقعد الخشبي الخشن، كانت ما تزال تنتظر «بابل» في صبر. أما أنا فقد ضقت ذرعاً بالانتظار في هذه اللحظة، واستطعت أن أرى «فيجو» وهو يأخذ هاتين الحقيقتين في الاعتبار.

سألني «فيجو»: «كيف قابلته أول مرة؟».

لماذا ينبغي أن أشرح له أن «بابل» هو الذي قابلني؟ لقد رأيته في سبتمبر الماضي قادماً عبر الميدان قاصداً «الكونتنتال». وجهه يبدو عليه نضارة الشباب لا تخطئها العين، اندفع نحونا كالهم. إذا نظرت إلى ساقيه الممتلئين بالحوية، وشعره القصير، ونظرته الواسعة أحسست أن قلبه لا يطاوعه على الإساءة. وكانت معظم المتناضد المشرفة على الشارع مشغولة، فتقدم في تلفظ جاد وبشاشة: «أرجو عدم الإزعاج، اسمي «بابل»، وافد جديد في هذا المكان» ثم غاص

في أحد المقاعد، وطلب زجاجة من البيرة، وارتفعت عيناه ترمقان
بنظرة خائفة الأضواء الساطعة للظهير القاسية. وتساءل في حماسة
وأمل:

- أكانت هذه قبلة يدوية؟

فأجبت:

- الاحتمال الغالب أنها فرقة عادم إحدى السيارات.

وشعرت فجأة بالأسف لإخلافي ظنه. إن الإنسان ينسى بسرعة
أيام الشباب؛ في ذلك الحين كنت مهتمًا بجمع ما يسمونه - في أفضل
الأحوال - «الأخبار». ذكر سقطت عليّ القنابل البدوية ثم ظهر أن
تلك الأخبار مما ينشر في الصفحة الأخيرة في الصحيفة المحلية،
حدث هذا كثيرًا في سابجون وفي كولون، إن هذه الأخبار لا تشغل
الصحافة الأوروبية.

ومن نهاية الطريق قدمت الأجساد المسطحة الجميلة، في
سراويلهن الحريرية البيضاء والترات المحكمة الطويلة ذات
الأكوان القرنفلية والبنفسجية الزاهية والمشقوقة من الجانبين فيما
يلي الأقخاذ، راقبتهم بنظرة الحنين الذي أعرف أنني سأشعر به عندما
أغادر إلى الأبد هذه المناطق. وقلت من خلف قذح البيرة: «إنهن
جميلات، أليس كذلك؟»، وألقى «بابل» عليهن نظرة عابرة وهن
بمضين عبر شارع كاتينات.

قال بلامبالاة:

- نعم بالتأكيد.

كان من الطراز الجاد، استطراد قائلاً:

- إن الوزير مشغول جدًا بأمر هذه القنابل، فمن الممكن - كما قال - أن تسبب حرجًا بالغًا. أقصد إذا وقع حادث لأيّ منا.
- لأيّ منكم؟ نعم، أعتقد أن الأمر سيكون خطيرًا، إن الكونجرس قد لا يحب ذلك.

لماذا ترغب في إغاطة الأبرياء؟ ربما كان - منذ عشرة أيام فقط - يتمشى بين مجموع المارة في حديقة ذا كومون في بوسطن وذراعه مثقلتان بالكيب التي طالع فيها مقدمًا دراسات عن الشرق الأقصى ومشكلات الصين. إنه حتى لم يسمع ما قلته، فقد كان مستغرقًا فعلاً في معضلات الديمقراطية ومسؤوليات الغرب، وأدركت على الفور أنه مصمم أن يفعل الخير، ليس من أجل أي فرد بلفاته، ولكن في سبيل بلد أو قارة أو العالم بأكمله. حسنًا، لقد أصبح الآن في بيته الحقة، حيث انعم كلّه في حاجة إلى التقدم والإصلاح.
سألت «فيجو»:

- أهو الآن في المشرحة؟

- كيف عرفت أنه مات؟

لقد كان سؤالاً غيًّا لرجل بوليس، وغير جدير برجل يقرأ «بكال»، وغير جدير برجل يحب زوجته على هذا النحو الغريب، فالمرء لا يمكن أن يحب ما لم يكن على حفا من الفطنة.

قلت: «لستُ مذبذبًا». وحدثت نفسي أن الأمر صحيح، ألم يكن «بايل» يمضي على هواه دائمًا؟ وفتشت عن أي إحساس في نفسي فلم أستطع أن أجد شيئًا، حتى شعور الامتناع تجاه استمارة رجل البوليس لم أجده. فلا أحد مسؤول غير «بايل». وجادلني الأفيون

فهي داخلي: أليس من الأفضل لنا جميعًا أن نموت؟ ولكنني نظرت بحذر إلى «فونج»، إذ كان الأمر صعبًا بالنسبة لها. لقد أحبه على طريقتها الخاصة، ألم تكن متعلقة بي، ألم تتركني من أجل «بايل»؟ ربطت نفسها بالشباب والأمل والجدية، والآن خذلها كل أولئك بأكثر مما فعل التقدم في السن واليأس. جلست هناك ترقب كلينا، وحدثت أنها لم تفهم بعد، ولعل أفضل شيء أن أتمكن من الخروج بها قبل أن يصل الخبر. لقد كنت على استعداد للإجابة عن أي سؤال إذا كان ذلك من شأنه أن ينهي سريعًا هذا اللقاء مع الإبقاء على غموض الموقف، بحيث ينسني لي فيما بعد أن أخبرها بالأمر فيما يتنا بعيدًا عن عيني رجل البوليس، ومقاعد المكتب المخشنة، وبموزج الكرة الأرضية العاري حيث يدور العث.

سألت «فيجو»:

- ما المدة الزمنية التي تهتم بها؟

- بين السادسة والعاشرة.

- لقد تناولت شرابًا في «الكونتتال» في السادسة، وسأذكر الجرسونات ذلك. وفي السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين تمشيت حتى الميناء لأشهد الطائرات الأمريكية وهي تفرغ شحناتها. ولقد رأيت «ويلكتر» الذي يعمل في «الأسوشيتيد نيوز» عند باب فندق «الماجسنيك» ثم ذهبت إلى السينما المجاورة. ومن المحتمل أن يتذكروا لأنهم أعطوني باقي ما دفعت. ومن هناك ركبت «تريشو» إلى مطعم «فيو مولان». وأعتقد أنني وصلت حوالي الثامنة والنصف.

وتناولت العشاء وحدي. كان «جوانجر» هناك وتستطيع أن تسأله. ثم ركبت «تريشو» راجعًا في حوالي العاشرة إلا الربع، ويحتمل أن تتمكن من العثور على المسائق، لقد كنت أتوقع لقاء «بايل» في العاشرة لكنه لم يظهر.

- لماذا كنت تتوقع لقاء؟

- كلمني بالثلقون، وقال إنه يجب أن يراني لأمر هام.

- ألدبك فكرة عن هذا الأمر؟

- لا، كل شيء هام عند «بايل».

- وفتاته؟ أتعرف أين كانت؟

- كانت تنتظره في الخارج عند منتصف الليل، كانت قلقة، وهي

لا تعرف شيئًا، ألا ترى أنها ما زالت تنتظره؟

- نعم.

- ولا أظنك نعتقد أنني قتلته بدافع الغيرة، أما هي فلماذا تقدم

على ذلك؟ فقد كان سيتزوجها.

- أجل.

- أين عثرت عليه؟

- كان في الماء تحت القنطرة المؤدية إلى داکو.

إن مطعم «فيو مولان» يقوم إلى جانب القنطرة. وهناك بوليس

مسلح على القنطرة، وللمطعم شبكة حديدية تحميه من القنابل.

ولم يكن عبور القنطرة في الليل مأمونًا، فالجانب البعيد من النهر

يصبح في قبضة «الفيتمنه» بعد حلول الظلام. لا بد أنني تناولت

عشائي على مائدة خمسين ياردة تقريبًا من حيث كانت جثة.

قلت:

- المشكلة أنه كانت له صلات مشبوهة.
- إذا تكلمنا بوضوح فقلت آسفًا على أي حال، فقد كان يسبب أذى كثيرًا.
- ليحفظنا الله دائمًا، من الأبرياء والطيبين.
- الطيبون؟

- نعم، الطيبون على طريقته. إنك كاثوليكي، ولن تستطيع أن تفهم طرائقه. وعلى أي حال فقد كان أمريكيًا ملعونًا.
- أبضايك التعرف على جثته؟ أنا آسف ولكنه الرونن وإن كان روثيًا غير مستحب تمامًا.

ولم أهتم بواله لِم لا ينتظر أحدًا من المفوضية الأمريكية؟
إذ كنت أعرف السبب. الطرق الفرنسية عتيقة الطراز نوعًا بالقياس إلى أساليبنا الباردة. إنهم يؤمنون بالضمير وبالشعور بالإثم، وبأن المجرم ينبغي أن يواجه بجريمته إذ قد ينهار ويعترف. وحدثت نفسي ثانية بأنني بريء بينما نزل هو على السلالم الحجرية إلى حيث يتر مونور الثلاثة في الطابق السفلي.

واجتذبوا جثمانه من الرف كما لو كانوا يخرجون صنية مكعبات تلج. ونظرت إليه وقد تعجّدت جراحه وسكنت، قلت:

- كما ترى، إنها لم تنكأ ثانية في حضوري.

فقال بالفرنسية:

- كيف؟

- أليس هذا أحد الأدلة؟ التعذيب بهذا الشيء أو ذاك؟ ولكنك

جمدته حتى تصلب. لم تكن هناك ثلاثيات بهذه القوة في القرون الوسطى.

- هل تعرف عليه؟

- نعم.

لقد بدا غريبًا أكثر مما كان في أي وقت مضى؛ كان جديرًا به أن يمكث بين أهله وعشيرته. أذكر أنني رأيت صورة له في حافظة لنصور العائلية وقد امتطى حصانًا في مزرعة لرعاة البقر، وثانية وهو يسبح في جزيرة لونج أيلاند، وثالثة في إحدى الشقق بالطابق الثالث والعشرين ومعه بعض أفراته. كان من النوع الذي يولع بالحياة في ناطحة سحاب واستعمال المصعد السريع، وتناول الآيس كريم والمارتيني، وشرب اللبن على الغداء، وتناول شطائر الدجاج في محلات «ميرشانت ليمتد».

قال «فيجور» مشيرًا إلى جرح في الصدر:

- إنه لم يمكث بسبب هذا، لقد أغرق في الطين، ووجدنا الطين في رثيته.

- أنت تعمل بسرعة.

- في مثل هذا الطقس على المرء أن يفعل ذلك.

ثم دفعوا الطاولة التي رقدت عليها الجثة ثانية إلى مكانها على الرف، وأغلقوا الباب الذي أحكم بإطار من المطاط. سألني «فبجيو»:

- ألا يمكنك مساعدتنا على الإطلاق؟

- إطلاقًا.

سرت مع «فونج» راجعين إلى شقتي، وأحسست أنني فقدت اعتزازي بنفسي. إن الموت يذهب بالغرور والخيلاء، حتى خيلاء الديوث الذي ينبغي له ألا يظهر ألمه. كانت «فونج» ما تزال غافلة عما يحيط بها، ولم يكن لي المقدرة أو الكفاءة على إخبارها بلطف وبالتدريج. لقد كنت مراسلاً صحفياً، وكنت أفكر في العناوين الرئيسية: «مقتل موظف أمريكي في سايجون». إن العمل في صحيفة لا يعلم المرء الطريقة التي يخفف بها وقع الأنباء السيئة، وحتى هذه اللحظة كان يتعين عليّ الآن أن أفكر في أمر صحفيي، وأتدبرتها سؤال:

- أيضاً يقاتل أن تتوقف عند مكتب التلغراف؟

وتركتها في الشارع، وأرسلت برقيتي، ثم رجعت إليها، كانت محضر إشارة، فأنا أعلم يقيناً أن المراسلين الفرنسيين أحبطوا علماً بالخبر من قبل. وحتى إذا كان «فيجو» قد اتخذ مني موقفاً منصفاً - وهو أمر ممكن - فإن الرقباء خليقون أن يؤخروا إرسال برقيتي، ربما يرسل الفرنسيون برقياتهم، إذ إن صحفيي عليها أن تتلقى أخبارها أولاً من باريس باعتبارها المحور. لم يكن «هابيل» بالشخص المهم جداً. لم يكن من المفيد أن أرسل بالتلغراف تفاصيل عمله الحقيقي، وأنه كان مسؤولاً قبل وفاته عما لا يقل عن خمسين وفاة، لأن ذلك من شأنه أن يفسد العلاقات الأنجلو-أمريكية، وكان حريّاً بأن يشير ثائرة الوزير. كان الوزير يُمكن احتراماً عظيماً لـ «هابيل»، وكان «هابيل» بحمل درجة علمية في... حسن، في واحد من تلك الموضوعات التي يستطيع الأمريكيون

أن يحصلوا فيها على درجات علمية. ربما في العلاقات العامة أو في المسرح، وربما في دراسات الشرق الأقصى (لقد قرأ عددًا كبيرًا من الكتب).

سألته «فونج»:

- أين «بابل»؟ ماذا كانوا يريدون؟

قلت لها:

- تعالي معي إلى البيت.

- هل سيأتي «بابل»؟

- من المحتمل أن يأتي إلى البيت، بقدر ما هو محتمل أن يذهب

إلى أي مكان آخر.

كانت النسوة العجائز ما زلن يرثرن عند منبسط الدرج في كسل وتراخ. وعندما فتحت الباب استطعت أن أؤكد لنفسي أن الغرفة فُتشت، فكل شيء كان أكثر ترتيبًا مما تعودت أن أتركه عليه.

سألت «فونج»:

- غليون آخر؟

- نعم.

دخلت رباط عتي وحذائي، ها قد انتهى الفصل الإضافي في التمثيلية، وعاد الليل كما كان تقريبًا، وجئمت «فونج» عند طرف السرير، وأضاءت المصباح. «طفلتي، أحيانًا، بشرة بلون الكهرمان، لغتها الرقيقة».

قلت بالفرنسية بينما كانت تعجن الأفيون على طاسة الغليون:

- «فونج»، لقد مات يا «فونج».

أمسكت بالإبرة ونظرت إليّ كطفل يحاول أن يركز، وقد زوت
أبين حاجبيها وقالت:

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد مات إيبابل، قُتل.

وضعت الإبرة، وأقمت على كعبيها ناظرةً إليّ. وجمدت في
مكانها، بلا حركة، ولا دموع، فقط كانت تفكر، ذلك النوع من التفكير
الشخصيات لزامًا عليه أن يحول مجرى حياته كلها. قلت لها:
ـ الأفضل أن تمكثي هنا الليلة.

أومأت برأسها وانفطخت الإبرة، وبدأت تسخن الأفيون من جديد.
في تلك الليلة صحوت بعد هجعة عميقة قصيرة من ذلك النوع الذي
يحلفه الأفيون، حيث تبدو الدقائق العشر وكأنها راحة ليلة كاملة،
ووجدت يدي حيث تعودت دائمًا أن ترتاح في الليل، بين ساقبها.
كانت نائمة. ولا يكاد يصل إلي سمعي صوت أنفاسها. هأنذا، مرة
أخرى، وبعد شهور عديدة، لم أعد وحدي، وفجأة فكرت بغضب،
متذكرًا «فيجو» وكابه الأخضر في مركز البوليس، وممرات المفوضية
الخالية من الناس، والبشرة الناعمة الملاء تحت يدي، أنا الشخص
الوحيد الذي يحفل حقًا بأمر إيبابل؟

الفصل الثاني

(١)

ن قد رأيت ما يكفي من الزملاء الأمريكيين في مهنة الصحافة صبيحة أن وصل «بايل» إلى الميدان الذي يشرف عليه «الكونستانتال». كانوا ضخام الأجسام، صاخبين، صغار السن أو من وسطي العمر، ازدحمت رؤوسهم بأخبار مريرة ضد الفرنسيين الذين كانوا بعد كل ما يقال عنهم - يخوضون غمرات القتال في هذه الحرب. وكان من المألوف بعد أن تنتهي أي موقعة حربية إلى الوجه الأكمل المرسوم لها، وبعد نقل القتلى والمصابين من ساحة المعركة، أن يدعى هؤلاء بشكل دوري إلى هاتوي التي - بعد مسافة أربع ساعات بالطائرة، وينحدث إليهم القائد العام، يستضيفهم ليلة واحدة في معسكر الصحافة، حيث يتباهون بأن «مل البار هو أفضل من صروفه في الهند الصينية، ثم يحلقون بالطائرة على أرض المعركة الأخيرة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم

(وهو أقصى مدى للمدافع الآلية الثقيلة) وتقلهم الطائفة بعد ذلك
بسلام إلى فندق «الكوتنتال» في سايجون، ويعلو اللغظ بينهم
كانهم في رحلة مدرسية.

أما «بابل» فكان هادئاً يبدو عليه التواضع. وكنت أحياناً في أول
يوم اللقاء فيه، أجد نفسي مضطراً إلى أن أميل برأسي ناحية، كي
تلتقط أذناي ما يقول. كان جاداً غاية الجد، وكثيراً ما كان يلوح عليه
الانقباض لما يثيره الصحفيون الأمر يكيون من لفظ في الشرفة التي
تعلموه، وكان الاعتقاد السائد أن هذه الشرفة بمنجاة من القنابل اليدوية،
بيد أنه لم يكن يتتقد أحداً. وسألني:

- هل قرأت مؤلفات «يورك هاردنج»؟

- لا، لا أظن، ماذا كتب؟

وكان يحدق بناظريه إلى محل لشرب اللبن على الناحية الأخرى
من الشارع، ويقول في صوت حالم:
- إنه يشبه مكاناً لبيع المياه الغازية الجيدة.

وعجبت من عمق إحساسه بالحنين إلى الوطن الذي يكمن خلف
اختياره الغريب لما يلاحظه في مثل هذا العنظر غير المألوف. ولكن
ألم ألاحظ أنا في جولتي الأولى بشارع كانيات المحل الذي يبيع
عطر «جيرلين»، وواسيت نفسي بفكرة أن أوروبا - في نهاية الأمر -
كانت على مسافة ثلاثين ساعة فقط؟ حوّل عينيه على مضض عن
محل اللبن. قال:

- لقد كتب «يورك» كتاباً عنوانه «تقدم الصين الحمراء» إنه كتاب
عميق جداً.

- أنا لم أقرأه، أتعرف الكاتب؟

مز رأسه في وقار ولاذ بالصمت، ولكنه قطع صمت بعد لحظة
خير من الانطباع الذي تركه:

- أنا لا أعرفه جيدًا. أظن أنني التقيت به مرتين فقط.

لقد أحببته لهذا السبب، إذ أنكر معرفته بالرجل حتى لا يظن أنه
ساهم بمعرفته، ماذا كان اسمه؟ نعم، «يورك هاردنج». وعرفت فيما
ها أنه يكن احترامًا هائلًا لمن يسميهم «كُتّابًا جادبن»، واستنى هذا
الشعير الروائين والشعراء وكتاب المسرح، ما لم يتوفر لديهم ما سماه
«الموضوع المعاصر»، وحتى في هذه الحالة، فالأفضل أن تقرأ أفكارًا
.. أشد كثرًا التي يقدمها «يورك هاردنج». قلت:

- إن الإنسان كما تعرف يكف عن القراءة عن مكان ما، إذا عاش
فيه طويلًا.

فاجاب باحتراس:

- بالطبع، إنني أحب دائمًا أن أعرف ماذا لدى الرجل الخبير من
أقوال.

- وعندئذ تراجعها على أقوال «يورك».

- نعم.

وربما لاحظ ما في حديثي من نهكم، لأنه أضاف بأدبه المعهود:
- إنني أعتبرها مائدة عظيمة جدًا أن تجد الوقت لتوجز لي النقاط
الرئيسية. وأنت تعرف أن «يورك» كان هنا منذ ما يزيد عن
عامين مضيا.

لقد أحببت ولاءه لـ «هاردنج» كائنًا من كان «هاردنج»، فقد كان

هذا خروجا على مألوف عادة رجال الصحافة من الدأب على تشويه سمعة الرجال والاستخفاف الفج بهم، قلت له:

- خذ زجاجة بيرة، وسأحاول أن أعطيك فكرة عن الأمور.

وبينما هو يراقبني بإمعان، كما لو كنت نلمبذا متوقفا، بدأت في شرح الموقف في الشمال؛ في تونكين، حيث كان الفرنسيون يحاولون تلك الأيام التثبيت بدلنا النهر الأحمر التي تضم هانوي والميناء الشمالي الوحيد هابفونج. في تلك المنطقة كان ينمو الأرز، ومع موسم الحصاد تبدأ المعركة السنوية في سبيل الحصول عليه. قلت:

- هناك في الشمال قد يستطيع الفرنسيون، وبإلهم من شياطين ياتسه، أن يصمدوا إذا لم يأت الصينيون لمساعدة «الفيتمته».

إنها حرب الأحراش والمستنقعات وحقول الأرز التي تخوض في مياهها إلى كثيفك، وتتيح للعدو فرص الاختفاء بسهولة وأن يدفن أسلحته ويرتدي ثياب الفلاحين، ولكنك قد تدوي سريعا بسبب رطوبة هانوي، فهم لا يلقون بالقنابل هناك حتى إنك لتستطيع أن تسميها حرثا نظامية.

- وماذا عن الجنوب هنا؟

- يسيطر الفرنسيون على الطرق الرئيسية حتى السابعة مساء. ويسيطرون بعد ذلك على أبراج المراقبة والمدن، وهذا لا يعني أنك بمنجاة، أو أنه لن تكون هناك ستائر حديدية واقية أمام المطاعم.

كم من المرات تناولت فيها هذا الموضوع بالشرح قبل ذلك. لقد كنت أشبه بجهاز تسجيل يدار دائما لمصلحة الوافدين الجدد؛

عضو البرلمان الزائر، الوزير البريطاني الجديد. وقد أشتيقت أحياناً في الليل وأنا أقول: «خذ مثلاً حالة «الكاوديين»، أو أنصار «هوا هار» أو مقاتلي «بين سين» وكل الجيوش الخاصة التي تبغ خدماتها نظير مال أو بنية انتقام. وكان الغرباء يجدون في ذلك بهاء بمتع النظر، ولكن ليس في الخيانة أو الغدر ما يمتع النظر.

قلت:

- «والآن هناك الجنرال «تي»، لقد كان رئيساً لأركان حرب جيش «الكاوديين»، ولكنه انسحب إلى التلال ليحارب كلا الجانبين، الفرنسيين والشيوعيين.

قال «بايل»:

- لقد كتب «يورك» يقول إن ما يحتاجه الشرق هو القوة الثالثة. ربما كان عليّ أن أتبين هذه الومضة المقتضبة وتلك الاستجابة السريعة لبعض الجمل والصوت السحري للعبارات المأثورة: «الطابور الخامس» و«القوة الثالثة» و«اليوم السابع». لقد كان بوسعي أن أوفر علينا جميعاً، بل وعلى «بايل» نفسه، الكثير من المتاعب، لو نبئت الاتجاه الذي يسير فيه تفكير هذا المخ الشاب المكدود. ولكنني نركته وما زالت الجوانب المختلفة لموضوع حديثنا عظاماً جرداء لم يكسها لحم. ونهضت لأبدأ جولتي اليومية التي أذرع فيها شارع فانيات جيئة وذهاباً. أولى به أن يتعلم هو بنفسه الجوانب الحقيقية التي تجذبك إليها كما تجذبك راحة شيء ما؛ اللون الذهبي لحقول الأرز تحت أشعة شمس الأصيل الواهنة، والصنارات النحيلة في أبدي صيادي الأسماك وهي تحوم كالفرشات فوق الحقول، وأقداح

الشاي فوق منصة راهب عجوز وسريه وتقويمه النجاري ودلاء
وأقداحه المهشمة وفاربه الذي هو بمثابة رفيق عمره مهملاً إلى جانب
كرسيه، والقبعات الرخوة التي ترتديها الفتيات وهن يصلحن الطريق
في موضع انفجار لغم، وثياب أهل الجنوب الزاهية الذهبية والخضراء
النضرة وفي الشمال ثياب سوداء وبنية قاتمة، وسلاسل الجبال التي
تحتلها جيوش الأعداء، وأزيز الطائرات. عندما وُجدت إلى هنا كنت -
في أول أسري - أحصي ما تبقى لي من أيام حتى أفرغ من مهمني،
و كنت كتلميذ يعد أيام فترته الدراسية. وحسبت أنني سأقضي أيامي
بين أحلال ميدان يلومزيري، وداخل أنوبيس ٧٣ الذي يمر أمام معبد
«أوستون»، وأني سأقضي الربيع لهذه البلاد في ساحة تورنجتون.
وكان الوقت الذي نطفأ فيه مصابيح حديقة الميدان، ولم أعبأ بأي
هنة تحل بي. كنت أنطلق إلى يوم تخطفه تلك الأحداث السريعة التي
قد تكون أصواتاً لعوادم السيارات أو ربما انفجارات القنابل. ونمئيت
ألا يغيب عن ناظري منظر الفتيات في سراويلهن الحريرية يخطرن
في رشاقة وقت الظهيرة الرطبة. كنت أفتقد «فونج» وقد نأت عني
أرض الوطن بشعانية آلاف من الأميال.

اتجهت إلى دار المفوض الأول حيث يتولى حراسته جنود «الفرقة
الأجنبية» يقبعانهم البيضاء وعلى أكتافهم الشارات القرمزية، مررت
بالكاتدرائية ثم رجعت وسرت بمحاذاة الجدار الموحش لمكتب
الأمن الفيتنامي الذي يبدو وكأنما تنفوخ منه رائحة البول والظلم.
لقد كان بحاله تلك يمثل جانباً من وطني، يشبه الممرات المعنمة
في الطوابق العليا التي كنت أتحاشاها في طفولتي. وكانت المجلات

القدرة الجديدة معروضة على الأرفف بجوار الحناء، مجلنا «تابو»
 «أليوجين». أما البحارة فقد جلسوا على الرصيف يشربون البيرة،
 هدف سهل لقنبلة منزلية الصنع. كنت أفكر في «فونج»، لعلمها تساو
 في ثمن سمك تشريه في الشارع الثالث على أقصى اليسار، قبل أن
 أذهب إلى محل اللبن لتناول وجبتها على عجل - لقد كنت أعرف
 مكانها ذاتما في تلك الأيام - وتواري «بايل» عن ذاكرتي بسهولة
 + سر. بل إنني لم أكن أذكره لـ «فونج» عندما كنا نجلس معاً لتناول
 الفداء في حجرتنا المظلة على شارع كاتينات، وقد ارتدت أجمل ما
 لديها؛ ثوبها الحريري المنقوش بالزهود. لقد مضى عامان على أول
 لقاء لنا في فندق «الجران موند» في مقاطعة كولون.

(٢)

لم يذكره أي منا عندما احتفظنا صبيحة اليوم التالي لوفاته. نهضت
 «فونج» من نومها قبل أن يذهب النعاس من عيني تماماً وأعدت
 اكليتنا الشاي. إن المرأة لا بغار من الموتى، وبدلي في هذا الصباح
 أن من السهل علينا أن نبداً من جديد حياتنا القديمة التي عشناها معاً.
 وتظاهرت بعدم الاكتراث قدر المستطاع، وأنا أمبال «فونج»
 انه الإفطار:

- هل سنبقي معي الليلة؟

- يجب أن أحضر صندوقتي.

- قد يكون رجال الشرطة هناك، من الأفضل أن أذهب معك.

كان هذا أقرب ما تحدثنا به عن «بايل» في ذاك اليوم.

كان «بايل» يسكن شقة في فيلاً جديدة قرب شارع دورانتون، وهو أحد الشوارع الرئيسية التي اعتاد الفرنسيون تسميتها بأسماء قادتهم العسكريين تكريمًا لهم، هناك شارع دو جول ويقع بعد التقاطع الثالث لشارع لوكلير، ثم ينعطف هذا فجأة على مسافة غير قصيرة حيث يقع شارع دو لافر. ويبدو أن ثمة شخصية هامة على وشك الوصول من أوروبا، إذ يوجد على بُعد كل عشرين ياردة، على امتداد الطريق حتى مقر المفوض الأول، شرطي يقف في مواجهة الرصيف.

على الطريق المرصوف بالحصى المؤدي إلى شقة «بايل» نرى كثيرًا من الدراجات البخارية، وتمعن شرطي فيتنامي في بطاقتي الصحفية. لم يسمح لـ «فونج» بدخول المنزل، فذهبت لأبحث عن ضابط فرنسي. كان «فيجو» يغسل يديه بصابونة «بايل» ويجففهما بمنشفته. ولمحت على كُف سترته الصينية بقعة زيت، خمنت أنها من زيت «بايل»، وسألته:

- هل من أخبار؟

- وجدنا سيارته في الجراج، وكانت خالية من البنزين. لا بد أنه أخذ عربة «تريشو»، أو ربما ذهب في سيارة شخص ما. ولعل هناك من أفرغ منها البنزين.

قلت:

- من يدري، ربما ذهب على قدميه، فأنت تعرف الأمريكيين. واستطرد قائلًا وهو يفكر مليًا:

- لقد احترقت سيارتك، أليس كذلك؟ ألم تشتري سيارة جديدة غيرها؟

- لا.

- إنها مسألة غير ذات بال.

- أبدأ.

وسألني:

- هل لك رأي خاص في هذا الشأن؟

- بل آراء كثيرة.

- حدثني.

- حسن، ربما اغتاله رجال «الفيتنه»، فقد اغتالوا الكثيرين في سايجون، لقد عُثر على جثته في النهر. قرب القنطرة المؤدية إلى داكو، وهي المنطقة التي يسيطر عليها «الفيتنه» ليلاً بعد انسحاب شرطتكم. أو ربما قتله مكتب الأمن الفيتنامي، وله باع طويل في ذلك. ربما لم يرقهم أصدقاؤه، وربما قتله «الكاوديون» لأنه كان على علاقة بالجنرال «تي».

- هل كان كذلك فعلاً؟

- إنهم يقولون ذلك، وربما قتله الجنرال «تي» لأنه كان على علاقة بـ«الكاوديين». وربما قتله أنصار «هوا هاو» لأنه تقرب من عشيقات الجنرال، وربما قتله شخص ما طمعاً في نقوده.

قال «فيجو»:

- أو لمجرد الغيرة.

واستطردت في حديثي:

- أو ربما مكتب الأمن الفرنسي لأنهم كانوا غير راضين عن اتصالاته، هل تبحث جدياً عن القطة؟

- لا، كل ما أحاوله هو كتابة تقرير ولا شيء آخر، ما دامت الحرب دائرة، فهناك آلاف يُقتلون كل عام.

- بوسعك أن تستبعدني فلا تدخل لي، لا دخل لي.

هذا هو أحد العبادي التي أومن بها، فما دامت هذه هي أحوال البشرية، دعهم يتقاتلون أو يجيئون أو يقتلون فلا دخل لي، إن زملائي الصحفيين يسمون أنفسهم مراسلين، أما أنا فأثرت أن أسمى نفسي «مخبراً صحفياً» أكتب ما أرى دون تصرف، حتى مجرد إيذاء الرأي أعتبره نوعاً من التصرف.

- ماذا تفعل هنا؟

- أتيت لأحضر أمتعة «فونج»، ولكن رجال شرطتكم لم يسمحوا لها بالدخول.

- حسن، هيا بنا لنحضر أمتعتها.

- هذا جميل منك يا «فيجو».

كانت شقة «بايل» تتألف من حجرتين ومطبخ وحمام. قصدنا حجرة نومه، كنت أعرف المكان الذي قد تحتفظ فيه «فونج» بصندوقها، تحت السرير. جذبناه معاً، كان بداخله كتبها المصورة. وأخرجت من الدولاب ملابسها البديلة وهي قليلة، وثوبها الجميلين، والسراويل البديلة. وخطر لي إحساس أنها كانت معلقة هناك لبضع ساعات قليلة من دون أن تنتمي للسكان، عابرة كأنها فراشة تحوم داخل الحجرة. ووجدت في أحد الأدراج سروالها الصغير المثلث

الشكل، ومجموعة من الأوشحة. لم يكن هناك سوى أشياء قليلة جدًا لأضعها في الصندوق، أقل مما يحتاج إليه زائر يتوي قضاة عجلة الأسبوع في البيت.

في حجرة الاستقبال رأيت صورة لها مع «بايل» التفتلت لهما في حداثي النباتات بجوار تمثال حجري ضخمة لثنين. كانت تمسك بمفود كلب «بايل»، وهو كلب أسود من سلالة «تساو» وله لسان أسود. كان أسود فاحمًا. وضعت الصورة بداخل الصندوق.

سألت:

- ماذا حدث للكلب؟

- إنه ليس هنا. ربما اصططبه معه.

- ربما عاد ثانية، حينها تستطيع أن نحلل نوع التربة التي علفت بمخالبه.

- لست «لوكوك» ولا «مجرية»^(١)، وثمة حرب ناشبة.

وقصدت خزانة الكتب، ونفحصت بعيني صفّي الكتب! مكتبة «بايل». «تقدم الصين الحمراء»، «الديمقراطية تواجه معركة التحدي»، «دور الغرب»، هذه هي على ما أعتقد مؤلفات «يورك هاردنج» الكاملة. ثمة أكداش من تقارير الكونجرس، وكتاب عن اللغة الفيتنامية، وكتاب عن تاريخ الحرب في الفلبين، وطبعات حديثة لأعمال «شكسبير». ترى ما هي قراءاته التي كان يروح بها عن نفسه؟ وعثرت عليها فوق رف آخر، كتاب يحوي على

(١) «لوكوك» و«جول مجرية»، شخصيتا محققين شرطة خياليان، اختلفهما الكاتبان الفرنسيان «بيل جايوريو» و«جورج سيمون» على التوالي.

مجموعة من كتابات «توماس وولف». ومختارات مجهولة بعنوان
«انتصار الحياة»، ومختارات من الشعر الأمريكي. ووجدت أيضًا
كتابًا عن ألغاز الشطرنج. ويبدو أنه لم يكن يختم عمله اليومي بهذا،
فهناك بعد ذلك كله «فونج». وخلف كتاب المختارات الشعرية
وجدت كتابًا بعنوان «فسيولوجيا الزواج»، لعله كان يدرس الجنس
- مثلما كان يدرس الشرق - من الكتب. وكان الزواج هو كلمة السر.
لقد كان «بايل» يؤمن بالاندماج في الحياة.

ونظرت إلى مكتبه فكان عاريًا تمامًا فقلت:

- لقد قمت بعملية كنس نظيفة.

قال «فيجو»:

- أوه، كان عليّ أن أعنى بكل هذه الأشياء من أجل المفوضية
الأمريكية. وأنت تعرف كيف تنتشر الشائعات سريعًا، وربما
تكون هناك عملية سلب. لذا فقد حفظت كل أوراقه وختمتها.
قال عبارة هذه بجدية تامة، حتى من دون أن تبدو على وجهه ابتسامة.
- هل من خسائر؟

- إننا لا نرضى أن تلحق أي خسائر بالحليف.

- أياضرك أن آخذ أحد هذه الكتب، على سبيل التذكار؟

- اعتبر أنني لم أر شيئًا.

وانتقيت كتاب «دور الغرب» لـ «بورك هاردنج» ووضعت داخل
الصندوق مع ملابس «فونج».

قال «فيجو»:

- أسألك كصديق، هل هناك ما يمكن أن تمر إليّ به؟ لقد أنهيت

تقريري. لقد قتله الشيوعيون. ربما كان هذا بداية الحملة ضد
المعونة الأمريكية. ولكن بيني وبينك... اسمع، حديثنا هذا
حديث جاف، ما رأيك في كأسين من «الفرموت» في مكان
قريب؟

- الوقت مبكر جدًا لشرب «الفرموت».
- ألم يسر إليك بأي شيء - في آخر لقاء له معك؟
- لا.

- متى كان هذا اللقاء؟
- صبيحة أمس. بعد الانفجار الشديد.
وصمت هنيهة حتى نستقر إجابتي في عقلي، وليس في عقله هو،
سألني بأدب ووداعة:

- هل كنت بالخارج حين زارك ليلة أمس؟
- ليلة أمس؟ لا بد أنني كنت بالخارج. لا أظن...
- ربما كنت تطلب تأشيرة خروج. أنت تعرف أننا نستطيع أن
نؤجل إصدارها لأجل غير مسمى.
- هل تعتقد حقًا أنني أريد العودة إلى وطني؟
نظر «فيجو» من خلال النافذة إلى النهار الساطع بلا غيوم. قال بتعاسة:
- أكثر الناس تفعل هذا.

- يروق لي البقاء هنا. ففي بلدي هناك مشاكل.
قال «فيجو»:

- اللعنة، ما هو الملحق الاقتصادي الأمريكي.
ثم ردها ثانية بتهكم: «الملحق الاقتصادي».

- أفضل أن أنصرف، سيرغب في محاصرني تمامًا أنا الآخر.
قال «فيجو»، وقد بدا عليه الإنهاك:
- أتعنى لك خطأ سعيًا. إن لديه ما سيفضي به إليّ، وهو كثير
لدرجة مفرقة.
كان الملحق الاقتصادي واقفًا بجانب سيارته «البكار» ساعة
خروجه. وكان يحاول أن يوضح شيئًا ما لسانفه، وهو رجل بدين في
أواسط العمر له عجيذة ضخمة ضخامة مفرطة، ووجه أملس بخيل
إليك أنه لم يكن يومًا ما بحاجة إلى موسى. وناداني:
- «قاوُلر»، هل يمكنك أن تشرح لهذا السائق الملعون...؟
شرحت.
قال:
- ولكن هذا هو ما قلته له بالضبط، بيد أنه ينظّهر دائمًا بأنه لا يفهم
الفرنسية.
- ربما هي مسألة لهجة.
- لقد عشت في باريس ثلاثة أعوام. لهجتي جيدة بما فيه الكفاية
بحيث يفهمها أي واحد من هؤلاء الفيتامين الملعين.
وقلت:
- «صوت الديمقراطية».
- ما هذا؟
- أعتقد أنه كتاب لـ «يورك هاردنج».
- أنا لا أفهمك.
نظر إلى الصندوق الذي أحمله نظرة ريبة. قال:

- ماذا تحمل في هذا الصندوق؟
- زوجين من السراويل الحريرية البيضاء، وثوبين من الحرير، وبعض الملابس الداخلية لفتاة، ثلاثة أزواج على ما أظن. كلها إنتاج محلي. بلا معونة أمريكية.
- وسألني:
- هل كنت هناك في الشقة؟
- نعم.
- هل سمعت الأخبار؟
- نعم.
- إنه لشيء مفرع، مفرع جدًا.
- أظن أن الوزير منزعج جدًا.
- أعتقد ذلك. إنه مجتمع مع المفوض الأول الآن، وقد طلب مقابلة رئيس الجمهورية.
- ووضع يده على ذراعي وسار بي بعيدًا عن السيارات.
- لقد كنت تعرف «بايل» معرفة جيدة. أليس كذلك؟ أنا لا أطيع التفاوضي عن شيء كهذا الذي تعرض له. لقد عرفت أباء الأستاذ الجامعي «هارولد. ك. بايل»، لعلك سمعت عنه؟
- لا.
- إنه حجة عالمي في دراسة عوامل التعرية تحت الماء، ألم تشهد صورته على غلاف مجلة «تايم» في الشهر الماضي؟
- أوه، أظن أنني أذكر هذا. صخرة مهشمة في خلفية الصورة وأقلام ذات حواف ذهبية في المقدمة.

- هذا هو . وجب عليّ أن أبرق إليه في أمريكا . إنه لشيء مفزع

لقد أحيت هذا الشاب كما لو كان ابني .

- هذا يجعلك على علاقة وثيقة بأبيه .

وحول إليّ عبته العسليتين المبللتين . قال :

- ماذا تعني ؟ ليست هذه الطريقة التي نتحدث بها ، بينما زميل

شاب ..

قلت له :

- آسف ، الموت يأخذ الناس بطرق متعددة .

ربما كان يحب «بايل» حقًا .

سألته :

- ماذا قلت في برقيتك ؟

و أجاب بجدية قائلاً نصها :

- « يحزنني أن أنسى إليك موت ابنك ميتة جندي يدافع عن قضية

الديمقراطية » ، ووقعها الوزير .

وقلت :

- « ميتة جندي » ، أليس من المحتمل أن يؤدي هذا إلى شيء

من البلبلة ؟ أقصد بالنسبة للناس في بلادنا . إن بعثة المساعدة

الاقتصادية لا تشبه الجيش في شيء » ، هل قد تحصلون على

وسام « القلب القرمزي » ؟

قال في صوت خفيض يغلب عليه الغموض :

- لقد كان يقوم بمهام خاصة .

- أوه نعم . لقد خُصَّ جميعًا ذلك .

- إنه لم يكن يتحدث عن شيء، أليس كذلك؟
- أوه أبدًا.

وعادت إلى ذهني العبارة التي قالها «فيجو»: «لقد كان أمريكيًا
مادنا تمامًا».
سألت:

- هل لديك أي فكرة عن السبب الذي قتلوه من أجله، ومن الذي
قتله؟

وفجأة أحست بالغضب وسمت هذه الشرذمة ومستودعاتهم
الخاصة المليئة بزجاجات الكوكاكولا، ومستشفياتهم الممتلئة،
(سياراتهم الضخمة، وينادقهم التي لا نعد حديثة تمامًا، وقلت:

- نعم لقد قتلوه لأنه كان أبرأ من أن يعيش. كان لا يزال حدثًا جاهلاً
وساذجًا وتورط. لم يكن لديه أي فكرة أكثر مما يعرفه أي منكم
عن شؤون الحياة. وأعطينموه نقدًا ومؤهلات «يورك هاردنج»
عن الشرق، وقتلتم له: «انطلق. افتح الشرق للديمقراطية».
لم ير أي شيء لم يسمع به في قاعة المحاضرات، الكتاب
والمحاضرون خدعوه. عندما رأى جثة لميت لم يستطع حتى أن
يتبين جروحها. الخطر الأحمر، جندي يدافع عن الديمقراطية.
قال بنعمة فيها تأنيب:

- حميتك صديقه.

- كنت فعلًا صديقه. كان يروق لي أن أراه وهو يقرأ ملحون
«الصندي» في بيته، يتابع لعبة «البيبول». كان يروق لي أن
أراه آمنًا مع فتاة أمريكية عادية عضوة في نادي الكتاب.

تنحج محرّجاً، قال.

- طبعاً لقد نسيت هذا التصرف التعس. لقد كنت في صفك تماماً
يا «فاولر». لقد أساء التصرف. لا أخفي عنك أنني تحدثت معه
طويلاً عن الفتاة. لعلمك، لقد انتهزت فرصة معرفتي بالأستاذ
«بايل» وزوجته...

قلت:

- «فيجو» في انتظارك.

انصرفت. ووقع بصره لأول مرة على «فونج». وعندما نظرت
خلفي ألفت يرفني بحبرة وألم؛ حيرة أخٍ أبدي مُرِم لم يفهم.

الفصل الثالث

(١)

كان اللقاء الأول بين «بايل» و«فونج» في «الكونفنتال» بعد وصوله بحوالي شهرين. كانت ساعة أصيل، مع هبة النسيم الرطبة العابرة التي تأتي في لحظة غروب الشمس، والشعوع مضاءة فوق أعمدتها في الشوارع الجانبية. سمعت دحرجة الترد فوق المناضد حيث كان الفرنسيون يلعبون لعبة «أ٨»، بينما الفتيات في سراويلهن الحريرية البيضاء يركبن الدراجات عائدات إلى بيوتهن على طول شارع كاتينات. كنت و«فونج» جالسين في صمت؛ هي تشرب كوبًا من عصير البرتقال بينما أتناول البيرة، كنا هاتئين بوجودنا معًا. وإذا به «بايل» يظهر على استحياء. قدّمتُ كلًّا منهما إلى الآخر. كانت عادته إذا رأى فتاة أن يحدجها بنظرات قوية كما لو أنه لم ير فتاة من قبل، ثم تعلق وجهه حمرة الخجل. قال «بايل»: «كنت أتساءل ما إذا كان من الممكن أن تفضلًا - أنت والسيدة - معي إلى المائدة، إن أحد مُلحقيًا بالسفارة...».

كان يقصد الملحق الاقتصادي، الذي أطل من الشرفة التي تعلونا
بإتسامة دافئة مُرحبة تشيع فيها الثقة، شأن رجل تعود أن يحتفظ
بأصدقائه بفضل ما يستخدمه من المظهرات الصحية التي تزيل
الروائح الكريهة. لقد سمعت أكثر من مرة من يتناديه باسم «جور»
بيد أنني لم أعرف كنيته. وحين شرع يجذب بعض المقاعد وينادي
الجرسون أثار ضجة ملحوظة. رغم أن كل هذا الجهد ليس له أن
يتمخض، في «الكونتال»، إلا عن طلب مشروب من البيرة أو براندي
بالصودا أو بضع كؤوس من «الفرموت». قال الملحق:

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا يا «قاوئر». إننا في انتظار الأولاد
العائدين من هانوي، ويبدو أنه قد وقعت معركة حقيقية، ألم
تكن معهم؟

قلت:

- لقد سئمت الطيران لمدة أربع ساعات لحضور مؤتمر صحفي.
ونظر إلي نظرة استنكار. قال:

- هؤلاء الرجال متحمسون حقًا، أعتقد أنهم يستطيعون وهم
في مكائهم أو عن طريق الراديو أن يحصلوا على ضعف ما
يحصلون عليه دون حاجة للمخاطرة.

- ربما عليهم أن يودوا عملهم.

واصل كلامه باعتزاز دون أن يلقي بالًا للكلمات التي لا تروقه:
- يبدو أنهم مثل خبراء الحرب يهتدون إلى مواقع التزال بحاسة
الشم، مثلًا «بيل جرانجر» إنك لا تستطيع بحال من الأحوال
أن تصرفه عن مشاهدة معركة.

- أعتقد أنك على حق، فقد رأيته مساء أمس في بار «سيورتنج».
- أنت تعلم تمام العلم أنني لم أفصد هذا.

وقدم سائقان من سافقي «التريشو» بدرجان بحريتهما على
طول شارع كاتينات، وانتهى سباقهما بطريقة لافتة للانتباه أمام
«الكوننتال». كان «جرانجر» داخل العربة الأولى. أما الثانية فكان
داخلها كومة رمادية صغيرة شمع «جرانجر» يجذبها خارجاً إلى
الرصيف. قال:

- أوه، هيا يا «ميك»، هيا.

وبدأ يجادل السائق بشأن الأجرة:

- خذ هذا أو اتركه.

والقى بخمسة أضعاف المبلغ المطلوب على أرض الشارع
ابحني الرجل ويلتقطه.

قال الملحق الاقتصادي بعصية:

- اظن أن هؤلاء الأولاد بحاجة إلى الاسترخاء قليلاً.

ألقي «جرانجر» بحمله فوق أحد الكراسي. ثم لحظ «فونج» وقال:
- آه، ابن كذا وكذا أنت يا «جو». أين عثرت عليها؟ لم أكن أعرف أنك
صاحب نزوات. آسف، يجب أن أجد المبولة. اهتم بأمر «ميك».
وقلت:

- طباع عسكرية خشنة.

قال «بابل» بحماس، وقد علت حمرة الخجل وجهه ثانية:

- ما كان لي أن أدعوكما لو تصورت...

واهتز الكوم الرمادي في الكرسي وسقط الرأس على المنضدة

كأنه غير متصل بشيء، وتنهّد تنهيدة طويلة ذات صفير تنبئ عما يعانيه صاحبها من مشقة لا حدود لها، ثم سكن دون حراك.

وسألت «بايل»:

- هل تعرفه؟

- لا، أليس من رجال الصحافة؟

قال الملمحق الاقتصادي:

- سمعت «بايل» يناديه «ميك».

- ألا يوجد مراسل جديد لو وكالة «يونيتربرس»؟

- ليس هو. أنا أعرفه. ماذا عن بعضكم الاقتصادية؟ أنت لا تستطيع

أن تعرف رجالك كلهم، إن هناك أمثالات منهم.

قال الملمحق الاقتصادي:

- لا أحسبه واحداً منهم، فأنا لا أتذكره.

اقترح «بايل»:

- يمكننا أن نبحث على بطاقته الشخصية.

- بالله عليك لا توقظه. إنه ثمل للغاية وسيتعرف عليه «جرانجر»

بشكل أو بآخر.

لكن «جرانجر» لم يعرفه. وجاء من دورة المياه مكتئباً. وسأل

عابس الوجه!

- من السيدة؟

ورد عليه «بايل» بجفاء:

- الأنسة «فونج» صديقة «فاولر». نريد أن نعرف من...

- أين عثر عليها؟ يجب أن تكون على حذر في هذه المدينة.

واستطرد مغتثًا:

- شكرًا لله على البهليلين.

قال الملحق الاقتصادي:

- «بيل»، نريد أن نعرف من هو «ميك».

- فتشني.

- لكك أنت به إلى هنا.

فقال مستخفًا:

- إن أكلة الضفادع لا يتحملون الويسكي. لقد غاب في دنيا أخرى.

- هل هو فرنسي؟ أعتقد أنك ناديت «ميك».

قال «جرانجر»:

- يجب أن أناديه باسم ما.

ثم مال ناحية «فونج»:

- أوه، أنت. هل لك أن تطلبي كوبًا آخر من عصير البرتقال. هل

أنت محجوزة الليلة؟

فقلت له:

- إنها محجوزة الليلة وكل الليالي.

وهنا قال الملحق الاقتصادي بسرعة:

- كيف حال الحرب يا «بيل»؟

- انتصار عظيم في الشمال الغربي من هانوي. استعاد الفرنسيون

قريتين لم يذكروا أنهم كانوا قد خسروهما. إصابات فادحة في

جانب «الفيشمنه». لم يتمكنوا بعد من حصر هذه الخسائر، لكنهم

سيعلموننا خلال أسبوع أو أسبوعين.

قال الملحق الاقتصادي:

- ثمة إشاعة بأن «الفيتمنه» اخترقوا منطقة فات ديسم، وأحرقوا الكاتدرائية، وطردوا الأسقف.

- إنهم ما كانوا ليخبرونا بذلك في هانوي، فليس هذا انتصارًا.
قال «بايل»:

- إن إحدى فرقنا الطبية لم تستطع اجتياز منطقة نام دين.
سأل الملحق الاقتصادي:

- ألم تستطع الوصول إلى هذا المكان يا «بايل»؟

- من تحميني؟ إنني مراسل أحمل أمرًا بأن نتجول داخل حدود معينة. أذهب بالطائرة إلى مطار هانوي، فيهبثون لنا سيارة تحملنا إلى معسكر الصحافة. ثم تحلق بنا الطائرة فوق المدينتين اللتين استردوهما، ويشيرون إلى العلم المثلث الألوان، ولعله أن يكون مجرد راية مرقعة تتراءى لنا من هذا الارتفاع، ثم نحضر مؤتمرًا صحفيًا ليشرح لنا فيه أحد القادة العسكريين ما رأينا. بعد ذلك نسلم برقياتنا إلى الرقيب، وتُقدم لنا الخمر فننعم بخدمة أفضل بارمان في الهند الصينية، ثم لا نلبث أن نلحق بالطائرة عائدين.
هنا تجهم «بايل» ونظر إلى بيرته.

قال الملحق الاقتصادي:

- لقد بخست نفسك حقها يا بايل. ماذا عن قصة شارع ٦٦ بم عنوته؟ «الطريق إلى الجحيم»، لقد كان جديرًا بجائزة «بوليتزر»، أنت تعرف القصة التي أعنيها، الرجل الذي كان جانيًا في الخندق وقد انفصل عنه رأسه، وذلك الذي رأيته يسير في حلم...

هل تعتقد أنني ذهبت حقاً إلى هذا الطريق العام الترن؟ إن «ستيفن كرين» يستطيع وصف حرب لم يرها. لماذا لا أفعل مثله؟ على أي حال ليست هذه الحرب إلا حرباً استعمارية ملعونة. اسقني كأساً أخرى، ثم هيا نبحث لنا عن فتاة، لقد وجدت رفيقة لك وأنا أيضاً أريد رفيقة.

قلت له «بايل»:

هل نظن أن ثمة شيئاً وراء إشاعة فات ديسم؟
لا أدري. أهنالك أهمية لذلك؟ أود أن أذهب إلى هناك لألقي نظرة، إن كان الأمر مهماً.

تقصد مهماً بالنسبة للبيعة الاقتصادية؟

أوه، حسناً، أنت لا تستطيع أن تضع حدوداً فاصلة ثابتة، فالطب نوع من الأسلحة، أليس كذلك؟ وأخرى بهؤلاء الكاثوليكين أن يكونوا متشددين في مواجهتهم للشيوخ، ألا يصح أن يكونوا كذلك؟

أثرت غيظه:

إنهم يتاجرون مع الشيوعيين. الأسقف يشتري من الشيوعيين بقراته وخشب البامبو لأغراض البناء، إنني لا أميل إلى القول بأنهم يمثلون بالدقة القوة الثالثة التي يتحدث عنها «يورك هاردنج».

صاح «جرانجر»:

فلنتنه هذه الجلسة، لا أحتمل ضياع كل وقتي سدى في هذا المكان، سأذهب إلى «دار الخمسمائة فتاة».

قال «بابل»:

.. هل لك أنت والأنسة «فونج» أن تتناولوا العشاء معي ...

قاطعه «جرانجر»:

.. بوسعك أن تأكل في «الشاليه» بينما أبحث لي عن فتاة في المبنى

المجاور، هيا يا «جر» ، فأنت رجل على أي حال.

وأحسب أن تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بعاطفة تجاه

«بابل» . وكنت أسأل نفسي: أي رجل هذا؟ لقد جلس برهة مشيخاً

بوجهه عن «جرانجر» ، وهو يدبر قدح البيرة بين يديه، وقد بدا عليه

أنه بعيد عنا تماماً، ثم قال لـ «فونج»:

.. أظنك ستمت كل ما في هذا المكان، أعني فيما يتعلق ببيلدك؟

قالت بالفرنسية:

.. كيف؟

وسأل الملحق الاقتصادي:

.. ماذا أنت صانع بـ «ميك»؟

قال «جرانجر»:

.. أتركه هنا.

.. لا تستطيع ذلك، فأنت لا تعرف حتى اسمه.

.. يمكن أن نحمله معنا، وتركه للمينات يرعيه.

وقهقه الملحق الاقتصادي من قلبه، وبدت عليه سيماء وجه

معروض على شاشة التلفزيون، قال:

.. أنتم شباب تستطيعون أن تفعلوا ما يحلو لكم، أما أنا فقد كبرت

سني وأصبحت عجوزًا لا أصلح لهذه الألعاب. سأخذه معي
إلى البيت. أظنك قلت إنه فرنسي؟
- كان يتكلم الفرنسية.

- هل لك أن تدخله في سيارتي؟

وبعد أن انطلق بسيارته، أخذ «بابل» و«حرانجر» عربة «تريشو»
«نعمناهما أنا و«فونج» على طول الطريق المؤدي إلى كولون. وبذل
«حرانجر» من جانبه محاولة ليدلف داخل العربة التي تقل «فونج»،
«لا إن «بابل» صرفه عن ذلك. وببما كان السائقان يدرجان بنا في
من الضاحية المؤدي إلى المدينة الصينية مر بنا طابور من السيارات
فرنسية المسلحة. وقد أطل من كل سيارة مدفع وضابط صامت
حامد يغير حراك يشبه نمثالًا تظلمه قبة السماء السوداء الداكنة. ربما
نعت بعض القلائل من جانب أحد الجيوش الخاصة، مثل جيش
«بن سين» الذي زحف على ملهى «الجران موند» وصالات لعب
الصار في كولون. إذ كانت هذه المنطقة تابعة لعدد من البارونات
الاحتريدين، الأمر الذي يذكر بما كان عليه الوضع في أوروبا إبان
العصر الوسيط، لكن ماذا يفعل الأمريكيون هنا؟ إن كولومبس لم
«من قد اكتشف بلادهم بعد.

قلت لـ«فونج»:

- إنني أحب هذا الرجل، «بابل».

فقلت:

- إنه هادئ.

وكانت هي أول من سمعتها تصفه بهذه الصفة التي رسمت في ذهني كأنها اسم لتلميذ، إلى أن استخدمها «فيجو» نفسه بكتابه الأخضر وهو جالس هناك ينشئي بوفاء «بابل».

أوقفت عربة «التريشو» التي تقلنا خارج «الشاليه» وقلت لـ «فونج»: - ادخلي واحجزني لنا مائدة. فلنني أفضل أن أرافق «بابل» لأرعاها. كان هذا أول إحساس غريزي من جانبي لحمايته. لم يسبق لي إطلاقاً أن شعرت بمثل هذه الحاجة الملحة لحماية نفسي. فالبراءة دائماً تطلب الحماية بلسان آخرس، عندما توغل في الحكمة ونعمل على حماية أنفسنا منها؛ ما أشبه البراءة بمجنون آخرس فقد نافوسه يجوب العالم ولا ينبغي إساءة لأحد.

عندما وصلت إلى «دار الخمسمائة فتاة» كان «بابل» و«جرانجر» قد سبقاني إليها ودخلا. وسألت عند نقطة حراسة الشرطة العسكرية الفاتحة قرب المدخل مباشرة: - هل دخل أمريكيان هنا؟

نوقف صف ضابط من «الفرقة الأجنبية» عن تنظيف مدسه وأشار بإبهامه ناحية المدخل وهو يلقي دعاية باللغة الألمانية. لم أفهمها. كانت هذه هي ساعة الراحة في الغناء الفسبح المكشوف للسماء وثمة مئات من الفتيات مستلقيات على العشب أو جالسات القرفصاء يتحدثن إلى رفيقاتهن ورفعت ستائر الحجرات الصغيرة المخصصة للمضاجعة والمطلة على الغناء. وثمة فتاة متعبة استلقت وحدها على سرير وقد شبكت كاحليها. إنهن جميعاً بلا عمل فقد كانت هناك قلائل في كولون وكانت القوات محتجزة داخل الكنتات؛ إنه يوم راحة

الجمد. رأيت جماعة من الفتيات ينعاركن ويتصايحن. وكان ذلك هو الدليل على أن طباع هذا المكان ما زالت على قيد الحياة. وتذكرت قصة سايجونية قديمة عن زائر متميز فقد سرواله وهو يشق طريقه عائداً إلى نقطة البوليس بحثاً عن الأمان. لم يكن ثمة ضمان لحماية أحد من المدنيين هنا، وعلى من يختار اختلاس المتعة في منطقة عسكرية أن ينتبه وأن يهتم بأمر نفسه وأن يبحث عن مخرج إذا وقع في مأزق. لقد تعلمت طريقة ماهرة أستفيد منها في عملي، «فرق تسد»، فانتقيت واحدة من جمع الفتيات اللاتي التفتن حولي وسرت محاذاتها رويداً رويداً، وانسحبت معها إلى حيث كان «بايل» «جرانجر» يصارعان لبشفا طريقهما.

قلت بالفرنسية:

- إنني رجل عجوز ومنهك تماماً.

وقهقهت الفتاة، واندفعت لتزاحم معهن.

- أما صديقي فإنه غني جداً وقوي جداً.

فردت بالفرنسية:

- إنك لثقل.

ولمحت «جرانجر» مزهواً متورداً الوجه: يبدو أنه اعتبر هذه المظاهرة تحية لرجوك. وتأبطت إحدى الفتيات ذراع «بايل»، وهي نجاهد لتجذبه بركة خارج الحلقة. دفعت بفتاتي بينهما، وناديته:

- «بايل»، تعال هنا.

نظر إليّ من فوق رؤوسهن. قال:

- هذا فظيع. فظيع.

وبدا لي وجهه شاحبًا. ولعل السبب خداع بصره ضوء
المصباح. وخطر لي أنه ربما بكر عفيف.
قلت:

- تعال يا «بايل»، اتركهن لـ «جرانجر».

ورأيت يده تتحرك تجاه الجيب الخلفي لسرواله. وإني لموقن
أنه كان عازمًا على أن يفرغ جيوبه مما فيها من قروش وأوراق مالية.
ناديته بحدة:

- لا تكن معتوهًا يا «بايل»، ستدفعهن إلى القتاتل.

والتفتُ إلى فتاتي ثم دفعتها دفعة أخرى داخل الحلقة التي تحيط
بـ «جرانجر» وقلت لها بالفرنسية:

- لا، لا، أنا إنجليزي، فقير، فقير جدًا.

ثم أمسكت بكم «بايل»، وجررته إلى الخارج، بينما كانت الفتاة
متعلقة بذراعه الأخرى كأنها سمكة في صنارة. وحاولت فتاتان أو
ثلاث أن يعترضن طريقنا إلى البوابة حيث كان التعريف واقفاً يرقبنا،
ولكن همتهن فترت في الحال.

قال «بايل»:

- ماذا سأفعل بهذه؟

- إنها ليست مشكلة.

وفي هذه اللحظة أخلت الفتاة ذراعه، ورجعت واندفعت وسط
الزويدة التي تحيط بـ «جرانجر».

وسألني «بايل» في قلق:

- هل سيكون بخير؟

- لقد حصل على ما كان يتغيه؛ رفيقة.
 بدا الليل في الخارج ساكنًا تمامًا، ولم يقطع سكونه سوى طابور
 آخر من السيارات المسلحة يتحرك كمجموعة من الناس، يقصدون
 هدفًا ما. قال بروع حزين:
 - إنه لأمر فظيع، لم أكن لأصدق، إنهن جميلات للغاية.
 لم يكن يحسد «جرانجر»، بل كان يشكو لشويه شيء جميل
 وإساءة معاملته، والجمال بلا ريب صورة من صور الخير. كان «بايل»
 ممن يستطيعون رؤية الألم إن كان مائلًا أمام أنظارهم. (وأنا لا أكتنب
 ذلك تهكمًا، ويكفي أن كثيرين ما يعجزون عن ذلك تمامًا). وفلت له:
 - هيا نعود إلى «الشالية»، إن «فونج» في انتظارنا.
 - آسف، لقد نسيت تمامًا. كان حزينًا بك ألا تركها.
 - لم يكن ثمة خطر ينهددها.
 - كنت أفكر فقط في أن أرى «جرانجر» بسلام.
 غرق ثانية في أفكاره، بيد أنه قال بنبرة حزينة غامضة بينما ندخل
 «الشالية»:
 - نسيت كم من الرجال هناك...

(٢)

حجزت لنا «فونج» منضدة تقع مباشرة على حافة حلبة الرقص، كانت
 الأوركسترا تعزف لحنا كان شائعًا في باريس منذ خمسة أعوام. أربعة

أزواج من المقيتنامين، ضيلي المحجم، تبدو عليهم الأناقة، يرقصون معاً وقد انتحوا ركناً قصياً، وبان عليهم من سيماء التحضر ما نعجز عن أن نباريهم فيه. (عرفت اثنين منهم؛ محاسب في «بنك الهند الصينية» وزوجته). وأحسست أن هؤلاء لم يتخلوا أبداً عن أناقتهم طوال حياتهم. أو أنهم - إذا استخدمنا عبارة نائية - لم يكونوا يوماً ما فريسة لآلام التصعلك. وإذا كانت الحرب تبدو لنا من أحداث العصور الوسطى، فإنهم ليمثلون أيام المستقبل في القرن الثامن عشر. أكاد أتخيل أن السيد «قام فان تو» يقضي وقت فراغه في كتابة أدب يشبه ما كان يُكتب في عصر القيصر «اغسطس». وقد اتفق لي أن عرفت أنه كان أحد طلبة «ووردزورث»، وأنه ينظم قصائد يذهب فيها مذهب الأدب الطبيعي. وقد اعتاد أن يقضي أيام عطلته في دالات وهي أنسب مكان يذكره بصورة البحيرات الإنجليزية. وبينما هو يدور حول الحلبة انحنى انحناء خفيفة على سبيل التحية، وعجبت كيف ارتضى «جرانجر» لنفسه أن يقيم على مجردة خمسين ياردة من هنا، في هذا الطريق.

وفي لغة فرنسية ركيكة اعتذر «بايل» لـ «فونج» لأننا تركناها ننتظر بقوله «إنه أمر لا يغتفر».

وسألته «فونج»:

- أين كنت؟

فقال:

- صحبت «جرانجر» إلى البيت.

وضحكت لذلك، وقلت:

- البيت؟

ونظر إليَّ «بابل» وكأنني «جرانجر» آخر، وفجأة تمثلت نفسي
 كما رأيته: رجلاً في متوسط العمر، عيناه محمرتان قليلاً، بدأ وزنه
 في الزيادة، ثقل الظل في حبه، أقل صحباً من «جرانجر» ولكنه أكثر
 سخريّة، وأقل براءة. وبدأت «فونج» برهة كما رأيته لأول مرة في
 ملهى «الجران موند»، عندما كانت ترقص مارة بمائدتي في ثوب
 أبصر من ثياب الرقص، فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، ترقبها
 اخت لها أكثر منها عقدت العزم على أن تزوجها زيجة أوروبية طيبة.
 استرعى أمريكي تذكراً وسألها أن تراقصه، كان ثملاً إلى حد ما، ولكن
 مودرة لا نسب أدنى. وأحسب أنه كان وافداً جديداً إلى البلد يظن
 . مضيقات «الجران موند» كلهن عاهرات. أمسك بها وقربها إليه
 . من التصق بها تماماً وهما يرقصان لأول مرة ويدوران فوق الحلبة،
 . إذا بها تعود فجأة لتجلس مع أختها، وتركته وحده مخيفاً لا يعرف
 . حدث ولا لماذا حدث، ورأيت الفتاة التي لم أكن أعرف اسمها
 . جالسة هناك في هدوء ترتشف بين حين وآخر عصير البرتقال،
 . مالكة لنفسها تماماً.

سمعت «بابل» يقول بنبرته الفرنسية المروعة:

- هل يمكن أن يكون لي الشرف بهذه الرقصة؟

وبعد برهة رأيتهما يرقصان بصمت في الطرف الآخر من الصالة،
 . «أمسك بها «بابل» بعيداً عنه قدر المستطاع، حتى ليخيل إليك
 . أنه سيقطع كل صلة له بها في أي لحظة. كان راقصاً رديئاً، أما هي
 . كانت أمهر راقصة رأيته خلال أيامي التي ترددت فيها على
 «الجران موند».

كانت علاقة حب شاقة ومخيبة للأمال، فلو أنني عرضت الزواج والإقامة معي لأصبح كل شيء مبسرًا لي، ولغادرت الأخت الكبرى بهدوء ولباقة كلما كنا معًا. لكن مضت أشهر ثلاثة قبل أن أراها وحدها إلا للحظات قصيرة في شرفة «الماجستيك»، بينما لا تكف أختها في الغرفة المجاورة عن سؤالنا متى سندخل. وكانت ثمة مركب آتية من فرنسا تفرغ شحنتها على ميناء نهر سايجون تحت أضواء المشاعل، وأجراس «التريشو» ترن كأنها أجراس التلغرافات وأحست أنني حدثتُ غيرُ بسبب كل ما عزمت أن أفضي به من كلام، فعدت يائسًا إلى فراشي في شارع كاتينات. ولم أكن أحلم على الإطلاق أنها بعد أربعة أشهر ستكون راقدة إلى جانبي لاهة الأنفاس قليلًا تضحك دهشة لأن شيئًا ما لم يكن على نحو ما توقعت.

- ميو «فاولنير».

كنت أرقبهما وهما يرقصان، ولم أر أختها وهي تشير إليّ من مائدة أخرى. وهما هي تأتي وتطلب منها على مضض أن تجلس، فلم يتبادل مشاعر المودة على الإطلاق منذ تلك الليلة التي خرجت فيها مريضة من ملهى «الجران موند» وصحبتُ «فونج» إلى منزلها قالت:

- لم أرك منذ عام بأكمله.

- كثيرًا ما أسافر إلى هانوي.

- من صدقتك هذا؟

- رجل يدعى «بابل».

- ماذا يعمل؟

- يتبع البعثة الاقتصادية الأمريكية، لعلك تعرفين شيئاً عن هذا الموضوع، ماكينات كهربائية للخياطة نوزع على المعوزات المشغلات بأعمال الخياطة.

- أهنك واحدة منها؟

- لست أدري.

- ولكنهن لا يستخدمن ماكينات الخياطة فليس ثمة كهرباء في أي مكان من الأماكن التي يعشن فيها. كانت امرأة واقعية تماماً. قلت:

- عليك أن تسألني «بايل».

- أمتزوج هو؟

- ونظرت إلى حلبة الرقص، وأنا أقول لها:

- أود أن أقول لك إن المسافة بينه وبين الزواج كالمسافة التي تفصل بينه وبين أي امرأة. إنه يرقص بطريقة رديئة للغاية.

- نعم.

- ولكنه يبدو رجلاً رقيق الحاشية وموحيًا بالثقة.

- أجل.

- هل لي أن أجلس معك قليلاً؟ فإن أصدقائي كلهم ثقبوا الدم.

- توقفت الموسيقى عن العزف، وانحنى «بايل» لـ«فونج» بطريقة مأمدة، ثم عاد بها، وجذب لها كرسيها لتجلس. وأستطيع أن أقول

إنها شررت لمراعاته قواعد السلوك. وكنت أفكر إلى أي حد قصرت
في علاقتي بها.

وقلت له «بابل»:

- هذه أخت «فونج»، الأنسة «هي».

- (إني سعيد جدًا بلقائك.

قالها، واحمر وجهه خجلًا. وسأله الفتاة:

- أنت قادم من نيويورك؟

- لا، من بوسطن.

- هل هي في الولايات المتحدة أيضًا؟

- أوه نعم، نعم.

- هل والدك من رجال الأعمال؟

- ليس كذلك بالضبط، إنه أستاذ.

وعادت تسأله، وفي صوتها نغمة خفيفة تنم عن خيبة أمل:

- مدرّس؟

- حسن، إن له سلطة ما، يستثيره الناس.

- في الشؤون الصحية؟ هل هو دكتور؟

- ليس دكتورًا من هذا النوع، إنه دكتور في الهندسة، فهو يفهم

في كل ما يتعلق بمظاهر التعرية التي تحدث تحت الماء، هل

تعرفين شيئًا عنها؟

- لا.

قال «بابل» في محاولة غامضة للسخرية:

- حسنًا، سأترك هذه المهمة لأبي ليحدثك عنها.

- هل هو هنا؟

- اوه لا.

- لكنه سيأتي؟

قال «هايل» معتذراً:

- لا، كانت هذه مجرد دعابة.

وسألت الأنسة «هي»:

- ألك أخت أخرى؟

- لا، لماذا؟

- يبدو لي أنكما تختبران مدى صلاحية السيد «هايل» للزواج.

- لي أخت واحدة.

قالت الأنسة «هي» وخبطت بيدها في قوة على ركة «فونج»،
أنها قاضي بطرق بمطرقته ليعلم نقطة نظام.

قال «هايل»:

- إنها أخت غاية في الجمال.

قالت الأنسة «هي»، كمن تصحح له كلامه:

- إنها أجمل فتيات سايجون.

- أستطيع أن أؤمن على ذلك.

قلت:

- حان وقت طلبنا العشاء، حتى أجمل فتيات سايجون يجب أن

تأكل.

قالت «فونج»:

- لست جوعانة.

واستطردت الأنسة «هي» تقول في حزم، بل إن حديثها كان ينم عن نعمة وعيد:

- إنها رقيقة، وبحاجة إلى رعاية، وهي تستحق الرعاية، إنها ولبة إلى أبعد حدود الوفاء.

قال «بابل» بصوت هادئ وفور:

- صديقي إنسان محظوظ.

قالت الأنسة «هي»:

- إنها تحب الأطفال.

وضحككت ورمقت عيني «بابل»، كان ينظر إليّ دهشًا كمن صدم، وأدركت من فوري أنه كان مولعًا حقًا بسماع كل ما تقوله الأنسة «هي». وبينما كنت أطلب الغداء (على الرغم من أن «فونج» قالت لي إنها غير جائعة، فقد كنت أعرف أنها تستطيع أن تتناول شريحة اللحم المشوي اللذيذ مع بيضتين غير كاملتي النضج مع الإضافات). وسمعت «بابل» في هذه الأثناء يناقش بجدية مسألة الأطفال. قال:

- كثيرًا ما أفكر في أن يكون لي عدد كبير من الأطفال، فالأسرة الكبيرة متعة رائعة. وهي تدعم العلاقة الزوجية، فضلًا عن أنها تعود بالنفع على الأطفال. لقد كنت طفلًا وحيدًا، وإنه لخطأ جسيم أن يكون ثمة طفل وحيد.

لم أسمعه قبل ذلك يتحدث بمثل هذه الغزارة. سألته الأنسة «هي».

- كم عمر أليك؟

- تسعة وستون عامًا.

- الضيـوخ يحبون الأحفاد، إنه لأمر محزون حقًا أن أختي ليس لها
أبوان ليفرحا بأطفالها حين يأتي الأوان.
أضافت جملتها الأخيرة، وهي تنظر إلي نظرة كلها يؤس وألم.
قال «بايل»، ولم تكن هناك ضرورة لما قاله، على ما أظن:
- ولا أنت أيضًا؟

- كان أبونا من أسرة عريقة. كان يعمل موظفًا عامًا في هوي.
وقلت:

- لقد طلبت عشاء لكم جميعًا.

قالت الأنسة «هي»:

- لا تطلب لي، يجب أن ألحق بأصدقائي. أود أن أقابل السيد
«بايل» مرة ثانية، ربما يمكنكم ترتيب هذه المقابلة.
فقلت:

- بعد أن أعود من الشمال.

- هل أنت ذاهب إلى الشمال؟

- أظن أن الوقت قد حان لألقي نظرة على الحرب.

قال «بايل»:

- ولكن رجال الصحافة عادوا جميعًا.

- هذا هو أفضل وقت بالنسبة لي، فلن يكون علي أن ألتقي
بـ«جرانجر».

وهنا قالت الأنسة «هي» في تودد مشوب بالعبوس:

- إذن يجب أن تأتي لتتناول العشاء معي أنا وأختي عندما يرحل
مسيو «فاولير»، لتدخل على قلبها البهجة.

قال «بايل» بعد أن انصرفت:
 - إنها امرأة رقيقة ومهذبة جداً، كما أنها تحدثت الإنجليزية بطلاقة.
 قالت «فونج» باعتراز:
 - قل له إن أختي كانت تقوم ببعض الأعمال ذات يوم في سنغافورة.
 - حقاً؟ أي نوع من الأعمال؟
 وترجعتُ نيابة عنها:
 - الاستيراد والتصدير، كما أنها نجيد الاختزال.
 - بودّي أن يكون لدينا الكثير من أمثالها في البعثة الاقتصادية.
 قالت «فونج»:
 - سأحدثها في ذلك، فهي يسرها أن تعمل مع الأمريكيان.
 ورقصا ثالثة بعد العشاء. أنا راقص رديء أيضاً، بيد أنني لا أمتنع
 بنفس المقدرة على عدم إدراك الذات التي يتمتع بها «بايل». وتساءلت
 أه لو كنت أمتنع بهذه المقدرة في أيام حبي الأول لـ«فونج»؟ لا بد أنه
 كانت هناك مناسبات كثيرة في ملهى «الجران موند» قبل تلك الليلة التي
 لا أنسى، ليلة أن مرضت الآنسة «هي» وراقصت «فونج» فقط لأجد
 فرصة الحديث إليها. أما «بايل» فلم يكن يغتنم مثل هذه الفرصة إذ إنهما
 دارا حول الحلبة ثانية، واسترخى قليلاً ولم يفعل أكثر من ذلك، وأمسك
 بها على بُعد مسافة تقل قليلاً عن امتداد ذراعيه بيد أنهما كانا صامتين
 وفجأة سقط نظري على قدميهما، خفيفتان للغاية ودقيقتان، تتحكمان في
 حركته، ووقعت في الحب مرة أخرى. لم أكن أصدق أنها بعد ساعة أو
 ساعتين ستعود معي إلى تلك الغرفة القذرة، ذات المرحاض المشترك
 والنسوة العجائز الجالسات القرفصاء عند منبسط الدرج.

وددت لو أنني لم أسمع أبدًا تلك الإشاعة عن فات ديم، أو أنها
 ذات خاصية بأي مدينة أخرى غير هذا المكان في الشمال حيث تجمعني
 صداقة بضابط بحري فرنسي سيهي لي الفرصة لكي أنسل خفية، بغير
 فاقة أو تحكم. أسبق صحفي؟ ليس في هذه الأيام التي يتشوف فيها
 الناس للقراءة عن كوريا. أفرصة للموت؟ لماذا أنشد الموت و«فونج»
 من أحضاني كل ليلة؟ بيد أنني عرفت الإجابة عن ذلك السؤال. إنني
 لم أومن منذ طفولتي بالخلود، وإن كنت أتوق إليه. كنت أعشى دائمًا
 أن أفقد السعادة. ستركتني «فونج» في هذا الشهر، في العام القادم.
 إذا لم يكن العام القادم ففي غضون أعوام ثلاثة. كان الموت وحده
 هو القيمة المطلقة في عالمي. إذا خسر المرء الحياة فلن يخسر شيئًا
 ناية إلى الأبد. وكنت أغيظ أولئك الذين يؤمنون بأن ثمة إلهاً وأرتاب
 بهم. إنهم يستجمعون شجاعتهم بفضل خرافة اللانغير والأبدي. إن
 الموت مؤكد أكثر من الله، ومع الموت تنفي كل إمكانية يومية لموت
 الحب، وسيزول عنا كابوس مستقبل كله ملل ولا مبالاة. إنني لم أستطع
 يوماً أن أكون داعية سلام. فقتلك لإنسان يعني يقيناً أنك تمنحه فائدة
 لا حدود لها. نعم، لقد اعتاد الناس، دائماً وفي كل مكان، أن يحبوا
 أعداءهم، وأن يُقوا على أصدقائهم للألم وحياة الفراغ.

سمعت صوت «بابل»:

— معلرة أن أخذت منك الأنسة «فونج».

— لست راقصاً، بيد أنني أحب مشاهدة رقصها.

كنت أتحدث عنها دائماً بضمير الغائب، رغم أنها لم تكن غائبة،
 لقد كانت تبدو لي، أحياناً، كالسلام شيئاً غائباً عن العين.

بدأت أولى الفقرات الليلية: مغنٌ، حاوٍ، وكوميديان كان فاحشاً غاية الفحش. وكلما نظرت إلى «بايل» بدا لي واضحاً أنه عاجز عن متابعة اللغة العامية، يتسم إذا ما ابتمت «فونج»، ويضحك بصعوبة إذا ما رأي أضحك.

قلت:

- ترى أين «جرانجر» الآن.

نظر إليّ «بايل» نظرة تأنيب.

حان منتصف الليل، وظهرت جوقة من الإناث في ثياب تنكرية. سبق لي أن رأيت كثيرات منهن أثناء النهار يجين شوارع كاتينات جبنه وذهاباً، وقد ارتدين سراويل فضفاضة وسرات بالية، وأردافهن تتمايل. وها هن الآن يرتدين فساتين قصيرة للسهرة، ويتحليين بجواهر مزيفة ويضعن نهوداً زائفة وأصواتهن مبجوحة. يجاهدن قدر الاستطاعة ليظهرن، على الأقل، في صورة مقبولة مثل أكثر النساء الأوروبيات في سابجون. وشرعت مجموعة من ضباط الطيران يصفرون لهن وجاوبنهم بابتسامة كلها إغراء. ودهشت لاحتجاج «بايل» المفجائي العنيف حين قال:

- «فاولر»، هيا بنا، لقد رأينا ما فيه الكفاية، إن هذا المشهد لا يليق بها.

الفصل الرابع

(١)

من أعلى برج أجراس الكاندرائية لم تكن المعركة إلا منظرًا أخاذًا مامدًا، أشبه بصورة بانورامية لحرب البوير منشورة في عدد قديم من «أخبار لندن المصورة». وثمة طائرة كانت تُسقط بالمظلات إمدادات لموقع منعزل وسط جبال كالكير المتاخمة لمنطقة أنام، تلك الجبال التي تآكلت بفعل عوامل التعرية الجوية وأصبحت تشبه أكوامًا من حجر الخفاف، ويبدو أنها لم تتحرك من مكانها قط، إذ إن سفوحها المنحدرة كانت تعيد ما يتآكل منها إلى نفس المكان تقريبًا، والمظلة هناك دائمًا في نفس الموقع عند منتصف المسافة إلى الأرض. من السهل تصاعدت انفجارات قذائف «الهاون» على وتيرة واحدة، دحانها صلب صلابة الحجر، وألسنة اللهب تتصاعد في السوق، أو أنها شاحب في ضوء الشمس. وأجسام المظليين الدقيقة تتحرك في ملابور منفرد على طول حوافه القنوات، لكنها بدت من هذا الارتفاع

كانها جامدة في مكانها. حتى القيس الغايح في ركن من البرج لم يغير وضعه أبداً وهو منهمك في قراءة كتاب الصلوات. بدت الحرب من هذا البعد شيئاً منسقاً ونظيفاً للغاية.

بدأت رحلتي إلى هنا من نام دين على ظهر سفينة نهرية، ووصلت قبل الفجر. لم يكن من المستطاع أن ترسو بنا السفينة في المحطة البحرية، فقد انقطع الطريق بعد أن أحكم العدو حصاره للمدينة على بُعد ستمائة ياردة، ومن ثم فقد شقت السفينة طريقاً لها بمحاذاة السوق المشتعل بالنيران. كنا هدفاً سهلاً في ضوء ألسنة اللهب، ولكن لسبب ما لم يطلق علينا أحد النار. كان كل شيء هادئاً جداً إلا من صوت فرقة الأكشاك التي أضرمت فيها النيران. واستطعت أن أسمع صوت حارس سنغالي يغير موقعه على حافة النهر.

كنت قد زرت قامت ديسم قبيل الهجوم بأيام قلائل وعرفتها جيداً، شارعها الوحيد الطويل الضيق، تحيط به أكشاك خشبية، وتتقاطع معه على بعد كل مائة ياردة قناة وكنيسة وقنطرة. وفي المساء لا تضيئه غير الشموع أو مصابيح زيت صغيرة (فلم تكن هناك كهرباء في قامت ديسم سوى في ثكنات الضباط الفرنسيين) ولم يكن الشارع ليخلو نهائياً أو ليلاً من الناس والضجيج. كانت أكثر المدن حياة في هذه المنطقة، مع طريقها الغريبة الشبيهة بالعصور الوسطى، تحت ظل وحماية كبير الأساقفة، والآن بعد أن رسوتُ إلى البر وقصدت ثكنات الضباط ألفتيتها أكثرها مواتاً. أكوام الحجارة المتناثرة، والزجاج المهشم، ورائحة الطلاء والجبس المحترقين، وبدا الشارع الطويل فقراً على طول امتداد البصر، مما أعاد إلي ذاكرتي منظر أحد الطرق العامة في

نذن في الصباح المبكر بعد دوي صفارة انتهاء الخطر وقد هجره الناس جميعاً إلى بيوتهم. ونوقعت أن أرى لوحة: «احذروا قنبلة لم نفجرها».

تهدم الجدار الأمامي لبيت الضباط، وتحولت المنازل المقامة على الطريق إلى خرائب، وأخبرني الملازم «بيرو» بكل ما حدث أثناء رحلتي في النهر من نام دين، هو ضابط شاب ماسوني جاد يرى فيما وقع جزاء من القدر لما يؤمن به رفاقه من خرافات. كان أسقف فات ديسم قد زار أوروبا ذات مرة واكتسب إيماناً بسيدة فانيما، تلك الرؤيا للعذراء التي ظهرت، حسب الرومان الكاثوليك، لمجموعة من الأطفال في البر تغال. ويعد أن عاد إلى بلده أقام مغارة تيمناً بها في دائرة المنطقة التابعة للكاثوليكية، واعتاد أن يقيم مركباً كل عام احتفالاً بعيدها. وتوترت العلاقات مع قائد القوات الفرنسية والفيتنامية منذ ذلك اليوم الذي سرحت فيه السلطات المسؤولة الجيش الخاص بالأسقف. وكان شمة تعاطف ومودة بين هذا القائد والأسقف، إذ كان كلُّ منهما يؤمن بأن بلده أهم عنده من الكاثوليكية. وفي هذا العام حيا القائد الأسقف تحية مودة وسار مع كبار ضباطه في مقدمة المركب. ولم تشهد فات ديسم في تاريخها حشداً بهذه الضخامة تجمع تكريماً لسيدة فانيما. بل إن كثيراً من البوذيين -الذين يؤلفون نصف السكان تقريباً- لم يهتموا أن تفوتهم متعة المساهمة في المهرجان، واعتقد أولئك الذين لا يؤمنون بأي إله أن كل هذه الرايات والمباخر ووعاء السر المقدس الذهبي للكنيسة ربما تحفظ بيوتهم من ويلات الحرب. ولم يكن قد بقي من جيش الأسقف

سوى فرقة الموسيقى النحاسية التي تقدمت الموكب، يتبعها - بامر القائد - الضباط الفرنسيون الذين بدأ عليهم النورع، كأنهم كورس المرتلين من أطفال الكنيسة. وعبر الموكب البوابة إلى داخل منطقة الكاتدرائية، ومر أمام التمثال الأبيض للقلب المقدس القائم على جزيرة وسط بحيرة صغيرة تطل عليها الكاتدرائية، وواصل سيرته تحت برج الأجراس بأجنحته المبسوطة الشرقية الطابع، ثم اجتاز الكاتدرائية المبنية من خشب محفور، وأعمدها العملاقة التي صنعت من جذور الشجر، والمذبح ذا النقوش القرمزية التي يغلب عليها الطابع البوذي أكثر من المسيحي. وتدفع الناس إلى الكاتدرائية آتئين من القرى القائمة بين القنوات وحقول الأرض الواطئة حيث تنبت براعم الأرز الخضراء والمحاصيل الذهبية بدلاً من أزهار التوليب وكنائس طواحين الهواء.

لم يلحظ أحد عملاء «الفينمته» الذين انضموا إلى الموكب أيضاً، وفي تلك الليلة بينما كانت الفرقة الرئيسية للشبوعيين تتحرك عبر ممرات منطقة كالكير في طريقها إلى سهل تونكين ترقبها في عجز نقطة حراسة الحدود الفرنسية الواقعة على الجبال المطلة على هذه المنطقة، ضرب العملاء المتقدمون في غات ديم.

الآن وبعد أربعة أيام استطاعوا، بمساعدة المظليين، دفع العدو إلى الخلف لمسافة نصف ميل حول المدينة. كان هذا بمثابة هزيمة، ومن ثم لم يُدع الصحفيون، ولم يُسمح بإرسال برقيات، ذلك أن الصحافة يجب ألا تنشر شيئاً غير الانتصارات. كانت السلطات المسؤولة في هانوي ستحتجزني إن علمت غرضي، ولكنك كلما

ارددت بعدًا عن مراكز القيادات العسكرية تخفف قيود الرقابة، إلى أن تجد نفسك موضع حفاوة وترحيب بعد أن تدخل دائرة نيران العدو. وما يمثل تهديدًا في نظر قائد أركان الحرب في هانوي وقلعًا بالنسبة للقائد العام في نام دين، بعده الملازم في أرض المعركة دعابة ونرويحا وعلامة اهتمام من جانب الآخرين الذين يعيشون بعيدًا عن المعركة، لذلك فإنه يستطيع خلال ساعات قليلة أن يسبح على نفسه بعض الأهمية، وهو يرى كل شيء في ضوء من البطولة الزائفة يمين في ذلك جرحاه وموتاه.

طوى القيس كتاب الصلوات وقال: «حسنًا لقد فرغت من هذا». كان أوروبيًا، ولكنه لم يكن فرنسيًا. إذ إن الأسقف ما كان يسمح بقريس فرنسي في أبروشيته، قال معتذرًا: «كان لا بد لي أن اتي إلى هنا، كما تعلم، لأنعم ببعض الهدوء بعيدًا عن كل أولئك المساكين». بدا لي أن أصوات نيران مدافع «الهاون» تقرب منا، أو ربما كان العدو برد أخيرًا. وكانت الصعوبة الغريبة تتمثل في العثور عليهم، إذ كانت هناك دزينة من الجهات المحدودة، وفضلًا عن ذلك كانت هناك فرص لا حصر لها لنصب كمان بين القنوات ومباني الفلاحين وحقول الأرز.

تحتنا مباشرة كان كل سكان فات ديم بين جالسبن وراقدين، الكاثوليكيون والبوذيين والوثنيون حزموا كل ما غلا ثمنه من الممتلكات - موقد طهي، مصباح، مرآة، ملابس، حصير، صورة مقدسة - وانتقلوا جميعًا إلى داخل منطلقة الكاتدرائية. هنا في الشمال يشند البرد عادة مع حلول المساء، وبالفعل كانت الكاتدرائية مكتظة؛

لم يعد ثمة مكان بأوي إليه أحد، حتى السلم المؤدي إلى برج الأجراس احتل اللاجئون كل درجاته، وكلما امتد بنا الوقت تزايد عدد الناس المتزاحمين داخل البوابات حاملين أطفالهم وأمتعتهم المتزلية. كانوا يعتقدون جميعًا، على اختلاف دياناتهم، أنهم سيكونون هنا بمأمن من الأخطار. بينما كنا نرقبهم اندفع شاب يرتدي زياً فيتامياً ويحمل بندقيّة فشق طريقه بينهم. وأوقفه القسيس، وأخذ بندقيته منه. قال الأب الواقف بجانبني موضعاً نحن هنا محايدون، فهذه أرض الرب». قلت لنفسي: «إنهم ساكنين أولئك الذين اختارهم الرب ليكنوا مملكته، يعانون من الخوف والجوع والبرد، (أخبرني القسيس: «لست أدري كيف استطع هؤلاء الناس») لعلك تظن أن ملكاً عظيماً قد يفعل ما هو أفضل من ذلك». ثم فكرت: «الشيء نفسه دائماً أينما ذهبت، ليس أقوى الحكام سطوة هم الذين يحكمون أسعد الناس».

وكانت هناك ذكاكين صغيرة مقامة بالفعل تحت الكاتدرائية، قلت: - ما أشبه هذا بعهر جان ضخم، أليس كذلك؟ ولكن من دون وجه واحد تملوه ابتسامة.

قال القسيس:

- كانوا بالأمس يعانون من البرد لدرجة مروعة. اضطررنا إلى غلق بوابات الدير، وإلا فإنهم كانوا سيهجمون علينا كالطوفان. سألته:

- هل كنتم، جميعًا، تنعمون بالدفء هناك؟

- لم يكن دفئاً كاملاً. ولم يكن في وسعنا أن نجد مكاناً يتسع لعشرهم. أنا أعرف ما يدور بخلدك، بيد أنه أمر لازم وضروري

بالنسبة لبعضنا أن يحتفظ بصحته. فنحن نملك المستشفى الوحيد في قات ديم، وليس ثمة ممرضات غير هؤلاء الراهبات. - وطبيكم الجراح؟

- إني أفعل ما في وسعي.
وهنا لاحظت أن ثوبه الكهنوتي عليه بقع من الدم.
قال:

- هل أتيت إلى هنا لمقابلتي؟
- لا، بل أردت أن أعرف ما سأفعل لاحقًا.
- نقد سألتك لأن رجلًا صعد إلى هنا ليلة أمس وطلب مني الاعتراف. فقد انتابه الخوف مما رآه على طول القناة، ولا يسع المرء أن يلومه على هذا.

- هل الأمر سيئ هناك إلى هذا الحد؟
- لقد حاصروهم المظليون داخل حلقة من النيران، يا لهم من أرواح بائسة. لعنك، على ما أظن، تحمل نفس الشعور.
- لست كاثوليكيًا من أتباع كنيسة روما، بل لا أظن أنك تستطيع أن تقول حتى إنني مسيحي.
- غريب ما يفعله الخوف بإنسان.

- هذا ما لا يفعله بي أبدًا. ولو أنني أو من ياله أيًا كان، فإني سأظل على كراهيتي لفكرة الاعتراف. أكره أن يجثو الإنسان على ركبتيه في إحدى صوامعك. وأكره أن أعري نفسي أمام إنسان آخر. أستبحك العذر يا أبي، فإن الأمر يبدو لي مسألة مرضية، بل حتى غير إنسانية.

قال بصوت خفيض:

- أوه، أظنك إنسانًا طيبًا، لا أعتقد أنك فعلت ما تأسف عليه أبدًا ونظرت إلى الكنائس وهي نعتد على استقامتها على طول الفراغات القائمة بين القنوات حتى تنتهي عند البحر، وبرق وميض عند المبرج الثاني.

قلت:

- إنكم لم تحافظوا على حياد كل كنائسكم.

قال:

- هذا أمر غير ممكن، فقد قيل الفرنسيون ذلك بالنسبة لمنطقه الكاتدرائية وحدها. ولا نتوقع أكثر من ذلك. إن ما ننظر إليه هو أحد مواقع «الفرقة الأجنبية».

- سامضي، وداعًا يا أبي.

- وداعًا وحظًا سعيدًا، حذارٍ من القناصة.

كان عليّ أن أشق طريقي بين الحشد مارًا بالبحيرة والنمثال الأبيض بذراعيه المنفتحتين بتراخٍ حتى أصل إلى المخرج حيث الشارع الطويل. استطعت أن أكتشف جانبي الطريق على امتداد ثلاثة أرباع الميل. وعلى طول هذه المسافة كان هناك اثنان من الأحياء بالإضافة إليّ، جنديان يرتديان خوذين مموهتين يسيران على مهل على طول جانب الشارع، وقد وضعا رشاشيهما «ستين» في وضع الاستعداد. أقول «الأحياء» لأن جثة كانت ملقاة هناك أمام أحد الأبواب بينما رأسها ملقى على قارعة الطريق. ولم يكن من صوت غير طنين الذباب الذي يتجمع هناك. وأحذية الجنود الثقيلة بخفت صوتها رويدًا

، بدأ. وحين مررت بجانب الجنة غذذت المير، وأدريت رأسي إلى جانب الطريق الآخر. وبعد دقائق قليلة نظرت خلفي فإذا بي وحيداً مع ظلي، ولم يكن ثمة غير الأصوات التي تصدر عني. وأحسست أني هدف في مرمى النيران. وفكرت في أن ساعات عديدة قد تمر قبل انتشالي إذا حدث لي حادث في هذا الطريق، كافية كي يتجمع الدباب من حولي.

وبعد أن اجتزت قناتين سرت في منعطف يصل بي إلى إحدى الكتائب. ألفت دزينة من الرجال جلوساً على الأرض، وقد ارتدوا الملابس المموهة الخاصة بالمظليين، بينما يتفحص ضابطان إحدى الحرائط. ولحفت بهم فلم يعرني أحدهم أدنى اهتمام. قال رجل مسك بصارية طويلة لجهاز لاسلكي خاص بالميدان: «يمكن أن تحرك الآن»، ووقف الجميع.

وسألتهم بلغتي الفرنسية الرديئة إن كان ممكناً أن أصحبهم. من مزاج هذه الحرب أن الوجه الأوروبي، يعد في ذاته جواز مرور في أرض المعركة؛ إذ لا يمكن الشك في أوروبي أنه عميل للعدو. وسألني الملازم:

- من أنت؟

- أنا أكتب عن الحرب.

- أمريكي؟

- لا، إنجليزي.

قال:

- إنها مسألة بسيطة للغاية، ولكن إذا شئت أن تأتي معنا...

وهنا بدأ يخلع خوذته المصنوعة من الصلب.

وقلت:

- لا لا، فهذه للمقاتلين.

- كما تشاء.

وسرنا خلف الكنيسة في طابور منفرد يتقدمنا الملازم، ونوقفنا لحظة عند حافة فتاة، وربما يتصل جندي الإشارة بالدورية الموجودة على الجانب الآخر. وبدأت قذائف «الهاون» تمزق الجو فوقنا وتنفجر بعيداً عن مجال البصر، وجمعنا عدداً أكبر من الرجال خلف الكنيسة، وأصبحنا الآن حوالي الثلاثين. طعن الملازم بإصبعه موضعاً على الخريطة، وبدأ يشرح لي بصوت خفيض:

- وصل إلينا تقرير يفيد أن ثلاثمائة قد تجمعوا هنا في هذه القرية،

ربما يحتشدون لعمل يقومون به الليلة، لذا ندرى، فلم يعثر

عليهم أحد بعد.

- كم يعدون؟

- ثلاثمائة ياردة.

التقط اللاسلكي بعض الكلمات وواصلنا السير بصمت، على يميننا القناة الممتدة باستقامة، وعن يميننا أرض تغطيها الأعشاب وحقول ثم أعشاب مرة أخرى. وبينما نحن منطلقون همس الملازم بنغمة تسم بالتأكيد «المكان خالٍ تماماً». بعد أربعين ياردة عبرنا قناة أخرى كانت لا تزال فتطرتها مقامة عليها، ومر أمامنا طوف خشبي. وأشار إلينا الملازم أن نتشر، وجلسنا القرفصاء مواجهين تلك الأرض المجهولة على بعد ثلاثين قدماً عبر الطوف الخشبي.

يظهر الرجال إلى الماء، ثم إذا بهم جميعاً وفي وقت واحد يشيحون
بصرهم عنه كأنما صدر إليهم أمر بذلك. مضت برهة قبل أن أرى
ما رأوه، ولا أدري لماذا عادت بي الذاكرة حينذاك إلى الورداء حيث
«الشالية» والنساء المتكررات، والجنود الشبان وهم يصغرون، وإلى
«بابل» حين قال لي: «هذا مشهد غير ملائم».

كانت القناة مليئة بالجثث، ذُكِرْتُ الآن بحساء أيرلندي يحوي
الحصاً كثيراً جداً. تراكمت الجثث فوق بعضها؛ رأس واحد رمادي
بلون حيوان الفقمة، غفل من كل المعالم كأنه رأس مجرم حليق،
يطفو على الماء كأنه عوامة. لم يكن ثمة دماء؛ أظن أنها جرت مع
«الماء منذ زمن طويل. ولا أدري كم من هذه الجثث هناك، لا بد أنهم
حوصروا داخل دائرة متقاطعة من النيران وهم يحاولون الرجوع،
أظن أن كل رجل منا على طول حافة القناة كان غارقاً في التفكير
«يمكننا أيضاً فعل ذلك». وأشحت بعيني بعيداً أنا الآخر؛ لا نريد
نسباً يذكرنا بعدى ضاكتنا وكيف يأتي الموت بسرعة وبساطة وعلى
سبر توقع. وعلى الرغم من أن عقلي يتشوف لحالة الموت، إلا إن
خوفاً أليماً بي كأنني عذراء تخشى فعل الجنس. كنت أفضل أن يأتي
الموت ومعه تحذير في الوقت الملائم حتى يتسنى لي أن أهين النفس
للغائه. لماذا؟ لم أكن أعرف لماذا أو كيف. فيما خلا نظرة ألقيا على
القليل الذي سأخلفه ورائي.

جلس الملازم إلى جانب الرجل حامل اللاسلكي وحملق إلى
الأرض فيما بين قدميه. وبدأت الآلة تحدث طقطقة بتعليمات،
ونفض الضابط واقفاً وهو يتنهد كأنه أوقظ من نومه. كانت تسود

بينهم ألفة غريبة فيما يتعلق بكل حركاتهم، وكأنهم جميعًا ملتزمون على قدم المساواة بعمل مشترك أو معًا في أدائه منذ زمن قديم لا تعب الذاكرة. لم يكن أيُّ منهم ينتظر حتى يُقال له ما عليه أن يفعله تقدم رجلان ناحية الطوف الخشبي وحاولا أن يعبراه، بيد أنهما فقدتا توازنهما بسبب ثقل أسلحتهما، فاضطرا أن يمتطياه ويحاولا التقدم عليه بوضعة بعد بوضعة. وعثر رجل آخر على قارب من مخبأ بين الأحراش على شاطئ القناة وسار به إلى حيث يقف الضابط ركب ستة منا في القارب وبدأ الرجل بوجهه نحو الشاطئ الآخر، إلا أننا اصطدنا بسرب من الجثث سد علينا الطريق. استخدم القادة الخشبية ليعيد بفاربه، غرزها في الطمي البشري، وانفصلت إحدى الجثث قطعت فوق سطح الماء وامتدت بكل طولها إلى جانب القارب كأنها إنسان يسبح معرضًا جسده لحمام شمس. ثم تحرروا ثانية، ووصلنا فجأة إلى الجانب الآخر، فسقطناه دون أن نلقي نظرة إلى الوراء. لم نطلق طلقة واحدة وها نحن أحياء؛ انسحب الموت وربما أصبح على بعد القناة التالية. وسمعت ورائي مباشرة من يقول بجديّة كبيرة وبلغة ألمانية: «الحمد لله». فقد كان أكثرهم من الألمان باستثناء الملازم وحده.

بعيدًا كانت هناك مجموعة من البيوت الريفية، سار الملازم في المقدمة بمحاذاة الحائط، ونحن وراءه في طابور منفرد، يفصل بين كلِّ منا مسافة ست أقدام. ثم انتشر الرجال وسط المزرعة، دون أن يصدر إليهم أمر بذلك. لقد هجرتها الحياة فلم يتخلف سوى دجاجة، وعلى جدران إحدى الحجرات، وربما كانت حميرة استقبال، علقت

صورتان زينيتان بشعتان من الصور المقلدة الغنية للقلب المقدس
 ، العذراء والمسيح، منحنا لكل هذه المجموعة من المباني المتداعية
 هو الأوروبيًا. إن المرء يعرف بـم كان هؤلاء الناس يؤمنون، حتى دون
 أن يشار إليهم عقيدتهم، لقد كانوا بشرًا وليست مجرد جثث رمادية
 سلك دمه.

حرب ضخمة حولنا جالسة من دون أن تفعل شيئًا، في انتظار
 شخص آخر. وإذا لم يكن هناك ضمان لفسحة من الوقت، فإن الأمر
 لم يكن يحتمل الشروع في سلسلة من التفكير. انطلقت دوريات
 الحراسة لتؤدي نفس العمل الذي سبق أن قامت به مرارًا. وأصبح
 كل ما يتحرك أمامنا عدوًا. تأمل الضابط خريطته ثم أبلغ عن موقعنا
 اللاسلكتي. ساد صمت الظهيرة، حتى مدافع «الهاون» سككت هي
 الأخرى وخلا الجو من الطائرات. رجل صبت بغصن شجرة في
 الفاذورات المتخلفة في أرض المزرعة. أحسنا بعد قليل كأن
 الحرب قد غفلت عنا تمامًا. أرجو أن تكون «فونج» قد أرسلت ستراتي
 إلى محل تنظيف الملابس. عبثت ربح باردة بالهشيم الموجود في
 فناء المزرعة، وانسل رجل يهدوء إلى ما وراء المخزن ليقضي حاجته.
 حاولت أن أتذكر ما إذا كنت قد دفعت للقنصل البريطاني في هانوي
 من زجاجة الويسكي التي قدمها لي.

وانطلقت قذيفتان ناحيتنا. وقلت في نفسي «ها هو يأتي الآن»،
 بعد كان هذا هو عين التحذير الذي أنشده. وانتظرت الشيء الأبدي
 ، هي نفسي إحساس بالغبطة.

ولكن شيئًا لم يحدث. هأنذا مرة أخرى «أنهيا لملاقة الحدث قبل

أوانه». وبعد دقائق طويلة دخل علينا أحد الحراس، وأبلغ الضابط بأمر ما. واستطعت أن ألتقط الكلمة التالية بالفرنسية «مدينان».

قال الملازم: «سأذهب لنرى»، وسرنا وراء الحارس الذي اتخذ طريقاً عبر ممر يفصل حقلين وتغطيه كميات كبيرة من الوحل. على بعد عشرين ياردة وقع بصرنا على حفرة ضيقة، وألفينا بداخلها ما كنا نبحث عنه: امرأة وطفلاً صغيراً. كان واضحا تماماً أنهما ميتان: ثمة جلطة دم صغيرة تغطي جبهة المرأة، وربما كان الطفل نائماً. في السادسة من عمره تقريباً، راقدًا كجنين في رحم أمه، وركبته التاتنتان الصغيرتان مطويتان إلى صدره. قال الملازم: «يأسوء الحظ». انحنى وقلبَ الطفل. كان يعلّق حول رقبته أيقونة مقدسة، وقلت لنفسي: «لم تفعل التعويذة فعلها». كانت هناك تحت جثته كرة خبز وقد قضم منها لقمة. وفكرت: «إنني أكره الحرب».

قال الملازم بفظاظة: «هل رأيت ما فيه الكفاية؟»، كأنني المسؤول عن هذه المنايا، ربما ينظر الجندي إلى المدني على أنه الشخص الذي يسخره للمقتل، يضع له الإحساس بذنب جريمة القتل في مطروف يحتري على راتبه الشهري ثم يهرب من المسؤولية. عدنا إلى المزرعة وجلسنا ثانية فوق التبن يلفنا الصمت، بعيداً عن الرياح التي تبدو كأنها حيوان بري عرف أن الليل قارب على الهبوط. الرجل الذي كان يفتش بين القاذورات جلس ليقتضي حاجته، والآخر الذي قضى حاجته كان يفتش بين القاذورات. وسرحت بأفكاري، ربما ظناً أنهما بمأمن فخرجا من حفرتهما في تلك اللحظات التي سادها الهدوء، بعد أن اتخذ الحراس مواقعهم. وحدثت نفسي ترى هل

نصبا في تلك الحفرة زمانًا طويلًا، فقد كان الخبز جافًا للغاية. ربما كانت هذه المزرعة دارهم.

بدأ اللاسلكي في العمل ثانية. قال الملازم وقد بدا عليه الإعياء: «سيفصفون القرية بالقنابل، ودوريات الحراسة مطلوب منها العودة هذه الليلة». نهضنا وبدأنا رحلتنا عمائدين، نجدف بقاربنا حول حشود الجثث، وسرنا في طابور أمام الكنيسة. لم نقطع مسافة طويلة، مع ذلك حُيِّل إلينا أننا قمنا برحلة طويلة بما فيه الكفاية بالقياس إلى النتيجة الوحيدة التي حققناها وهي قتل هذين الاثنين. حلقت طائرات، وبدأ القصف من ورائنا.

هبط الليل ساعة وصوئي إلى ثكنات الضباط حيث اعترمت أن أقضي ليلتي. ودرجة الحرارة لا تزيد عن الصفر إلا بدرجة واحدة. وليس ثمة مكان فيه دفء غير السوق الذي أضرمت به النيران. ومع أحد جدران الثكنة مهدومًا بفعل قذيفة مدفع «بازوكا»، والأبواب موصدة بالمزلاج، لم تمنع ستائر الخيش تيار الهواء. كان مولد الكهرباء معطلًا، وأضيئت الشموع واضطرونا إلى وضع متاريس من الصناديق والكتب لتمنع الهواء حتى لا تنطفئ الشموع. ولعبت مع الكابتين «سوريل» لعبة ٨١ مقابل عملة شيوعية، فلم يكن مستطاعًا أن نلعب مقابل مشروبات لأنني ضيف على العيس. وأعيانا الحظ بين المكسب والخسارة. وأخرجت زجاجة الويسكي التي أحتفظ بها وفتحناها علنا ننعم سحس الدفء، وتجمع الباقون حولنا. قال الكولونيل: «هذه هي أول كأس ويسكي أشرب منها منذ تركت باريس».

دخل أحد الملازمين بعد جولة له على دوريات الحراسة وقال
- ربما نعمنا بليلة هادئة.

قال الكولونيل:

- إنهم لن يهاجموا قبل الرابعة صباحًا.

وسألني:

- أمعك بندقية؟

- لا.

- سأتيك بواحدة. من الأفضل أن تحتفظ بها على وسادتك.

ثم استطرد قائلاً في بشاشة:

- أخشى أن تجد فراشك قاسياً. سنبدأ مدافع «الهاون» في إطلاق

قذائفها في الساعة الثالثة والنصف فنحن نحاول أن نفرض أي

تجمعات.

- إلى متى سنستمر، في تقديرك، هذه العملية؟

- من يدري؟ لم يعد من المستطاع سحب قوات جديدة من

نام دين. إن ما نفعله هنا هو مجرد مناورة. ولو قدر لنا الصمود

بغير حاجة إلى مزيد من الإمدادات أكثر مما وصلنا منذ يومين

فإن هذا يُعد، في رأيي، نصراً.

هبّت الريح من جديد تتلمس لها طريقاً تدخل منه. وتمايلت

سناثر الخيش، واهتز معها لهيب الشموع (دُكِّرْتُ بـ«بولونيوس»

الذي طُعن وراء السناثر). وبدت الظلال مسرحية. وخُيِّلَ إليَّ أننا

صحبة من المغامرين.

- هل مواقع الحراسة على استعداد؟

- اعتقد ذلك على قدر علمي.

ثم قال وقد بدا عليه تعب شديد:

- كما تعلم فهذا لا يُعد شيئًا. إنها لمسألة غير ذات أهمية بالقياس إلى ما يحدث في هوا بين على بعد مائة كيلومتر. فتلك هي المعركة بحق.

- هل لك في كأس أخرى يا كولونيل؟

- شكرًا، لا. إنه رائع هذا الوبسكي الإنجليزي الذي تصنعونه. ولكني أفضل أن تبقي بعضًا منه فقد تحتاج إليه أثناء العمل. أظن أنه قد حان الوقت، إذا أذنتم لي، لأغفو قليلاً. فالمرء يصعب عليه النوم بعد أن تبدأ مدافع «الهاون» إطلاق قذائفها. كابتن «سوريل»، مترعى أنت ميو «فاولير»، لترى إذا ما كان قد توفر له كل ما يحتاج إليه، شمعة، وثقاب، ومسدس.

ثم دلف إلى حجرته.

كانت هذه إشارة منه لنا جميعًا. وضعوا لي حنية على الأرض داخل مخزن صغير. وألقيت نفسي محاصرًا بعدد من الحقائق المخشبة. ظلمت يفظاً برهة قصيرة، وألقيت قساوة الأرض والراحة هنا سواء. تساءلت ترى هل «فونج»، الآن، في الشقة، والغريب أن تساؤلني هذا لم يكن بدافع من الغيرة. بدا لي في هذه الليلة أن الجسد شيء تافه للغاية، ربما لأنني رأيت في ذلك اليوم كثيرًا من الحشث المجهولة التي لا تنتمي لأحد، بل لا تنتمي إلى نفسها. لقد لما جميعًا معرضين للهلاك. بعد أن استغرقت في نومي رأيت «هابيل» في العنم، كان يرقص وحده بجمود على خشبة مسرح، وذراعه

ممدودتان لرفيقة غير مرئية، وجلست أرقبه من فوق مقعد يشبه مقعد الموسيقى. ممسكًا بيدي بندقية. على أهبة الاستعداد في حالة ما إذا حاول أي شخص أن يتدخل في رقصته. وثمة برنامج أعدّه المسرح يشبه النمر التي تقدمها إحدى قاعات الموسيقى في إنجلترا وقرأت في البرنامج «رقصة الحب. الحائزة على الجائزة الأولى». ونحرك شخص ما خلف المسرح وشددت يدي على البندقية. ثم صحوت من نومي.

كانت يدي على البندقية التي أعيرت لي. وثمة شخص واقف عند المدخل ممسكًا بشمعة في يده. كان يوتدي خوذة من الصلب، تلقي ظلًا على عيني، وعرفته فقط حين تكلم أنه «بايل». قال على استحياء:

- آسف أشد الأسف إذ أيقظتك. أخبروني أنه يمكنني أن أنام هنا

لم أكن بعد في كامل صحوي. وسألت:

- من أين لك هذه الخوذة؟

فقال بغموض:

- أوه، أعارها لي شخص ما.

وجذب وراءه حقيبة من حقائب المهمات العسكرية. وبدأ يخرج

منها كيس نوم من الصوف.

وحاولت أن أسترجع في ذاكرتي الأسباب التي أتت بأيّ منا إلى

هنا وقلت:

- إنك مزود بكل ما نحتاج إليه.

فقال:

- إنها حقيرة السفر المميزة الخاصة بأعضاء فريق المعونة الطبية الأمريكية. أعاروني واحدة منها في هانوي.
وأخرج ترموس وموقد كحول وفرشاة شعر وعدة حلقة وعلبة
الـ محفوظ. نظرت إلى ساعتني. كانت حوالي الثالثة صباحًا.

(٢)

حرر «بايل» في إفراغ مهماته. ثم صنع رفقًا صغيرًا من الحقائق
مع عليه المرأة وعدة الحلقة. قلت له:
- أشك في أنك ستستطيع الحصول على ماء.
- أوه، معي ما يكفي حتى الصباح في الترموس.
وجلس على كيس النوم، وشرع يخلع حذاءه. سأله:
- قل لي بالله عليك، كيف أتيت إلى هنا؟
- أوصلوني حتى نام دين لزيارة فرقتنا الطبية الخاصة بعلاج
«التراكوما». ثم استأجرت قاربًا.
- قاربًا؟
- أوه، نوعًا من القوارب يشبه «البنت»، لست أدري اسمه. وحققة
الأمر أنني اضطررت إلى شرانه. لم يكلفني كثيرًا.
- وأبحرت به في النهر وحدك؟
- لم تكن مهمة صعبة في الحقيقة، كما تعرف. كان التيار معي.
- أنت معتوه.

- أو، لا. المخطر الوحيد أن يجنح القارب إلى الأرض.
- أو أن تطلق عليه دورية بحرية النار، أو طائرة فرنسية، أو أن
بذبحك «القيتمته».
- ضحك بخجل. قال:
- حسن. هانذا قد وصلت إلى هنا على أي حال.
- لماذا؟
- أو، ثمة سبيان. بيد أنني لا أريد أن أوقظك.
- لست نائمًا، والمدافع ستبدأ القصف تروًا.
- بدا عصيًا. قال:
- هل بضابقتك إن نقلت الشمعة؟ المكان مثير هنا.
- ما السبب الأول؟
- حسن، لقد دفعتمني في ذلك اليوم إلى الاعتقاد بأن هذا المكان
مثير للاهتمام. لعلك تذكر وقتما كنا مع «جرانجر» و«فونج».
- ثم ماذا؟
- اعتقدت أنه ينبغي عليّ أن ألقي نظرة عليه. وإذا شئت أن أصدقك
القول فقد أحسست بالعار إلى حد ما بسبب «جرانجر».
- أفهمك، ببساطة شديدة.
- حسن، لم تكن هناك صعوبة حقيقية، أليس كذلك؟
- وبدأ يداعب رباط حذائه، ثم خيم علينا صمت ممل. قال أخيرًا
- يبدو أنني لم أكن أمينًا معك تمامًا.
- لا، كيف ذلك؟
- أتيت في الحقيقة كي أراك.

- أتيت إلى هنا كي تراني؟

- نعم.

- لماذا؟

رفع ناظريه عن رباط حذائه، بدت عليه حيرة معذبة:

- يجب أن أخبرك، لقد أحبيت «فونج».

ضحكت. لم أستطع منع نفسي. إنه غير متوقع للغاية، وجاد للغاية.

- ألم تستطع الانتظار حتى أعود؟ إنني سأكون في سايجون الأسبوع القادم.

- ربما تفتل، ومن ثم لن يكون ذلك من دواعي الشرف. ولست

أدري إذا ما كنت في هذه الحالة أستطيع أن أبتعد عن «فونج» طوال هذا الوقت.

- تعني أنك ظلمت بعيداً عنها بالفعل؟

- طبعاً، أنت لا تتصور أنني سأخبرها دون أن تعرف أنت ذلك؟

- الناس تفعل ذلك، ومتى كان ذلك؟

- أظن في تلك الليلة في «الثالب» وأنا أراقصها.

- لا أذكر أنك اقتربت منها بما يكفي.

نظر إليّ نظرة تتم عن الحيرة. فلو بدا سلوكه جنونياً بالنسبة لي،

فمن الواضح أن سلوكي غامض بالنسبة له. قال:

- كان السبب هو رؤيتي الفتيات في ذلك البيت. لقد كن رائعات

الحسن. ومن يدري، ربما كانت واحدة منهن. أردت أن أقيها

من هذا.

- أظنها بغير حاجة إلى وقاية، هل دعتك الأنسة «هي» للخروج؟

- نعم، ولكنني لم أذهب. هربت منها.

ويذا عليه الاكتاب وهو يقول:

- إنني أبحث عن مثل هذه الفتاة. لكن هل لك أن تصدقني، لم

حدث أنك تزوجتها، حقاً إنني ما كنت أحاول قط أن أدخل

بين رجل وزوجته.

قلت له وقد استغفرتني لأول مرة:

- يبدو أنك على يقين تمامًا من قدرتك على التدخل.

- «فالو»... أنا لا أعرف اسمك الأول.

- «توماس». لماذا؟

- ألا أستطيع أن أدعوك «توم»؟ فأنا أشعر بشكل ما أن ما حدث

جمع بيننا أعني حبنا لامرأة واحدة.

- ما خطوتك التالية؟

اعتدل في جلسته بحماس، واستند إلى الحقائق المترصة

قال:

- لقد أصبح كل شيء على غير ما عهدته. سأطلب منها الزواج

يا «توم».

- أفضل لو دعوتني «توماس».

- عليها أن تختار بيننا يا «توماس» فهذا عين الإنصاف.

لكن أهذا هو الإنصاف بحق؟ أحسست لأول مرة برودة الوحدة

كأنها نذير لي. لقد كان كل هذا محض أوهم. ومع ذلك، ربما كان

محباً يائساً. بيد أنني كنت أنا الإنسان المسكين. لقد كان يملك بين

يديه ثروات لانهاية من أسباب الاحترام.

شرع يخلع عنه ملابسه. وفكرت: «فضلاً عن أنه يملك الشباب
أيضاً». كم كان مؤسفاً حقاً أن أحد «بابل».
قلت:

.. لا أستطيع أن أتزوجها. فلي زوجة هناك في بلدي، ولن تقبل
أبداً الانفصال عني، فهي من أتباع الكنيسة العليا، إذا كنت تعرف
معنى هذه العبارة.

.. للتذكيرة يا «توماس» اسمي «ألدين». إذا كان يعنيك...
.. أفضل استخدام «بابل». فأنا أفكر فيك دائماً باعتبارك «بابل».
واندس داخل كيس النوم. ومد يده خارجاً ليحسك الشمعة.
«الـ»:

.. يا سلام أنا سعيد بأن انتهى هذا الموضوع يا «توماس». كنت
مثالاً غاية الألم بسببه.
وبات واضحاً الآن فقط أنه لم يعد كذلك.
وبعد أن أطفأ الشمعة، استطعت أن أرى معالم سترته البحرية
والضوء السنته اللهب المشتعلة في الخارج.
.. طبت مساء يا «توماس». أرجو لك نوماً هائلاً.
وكانت كلماته هذه أشبه بإشارة البدء في كوميديا مقبلة، إذ فور
...اعني لها انطلقت قذائف «الهاون» تنز وتنفجر. قال «بابل»:

.. يا إلهي، هل هو هجوم؟
.. إنهم يحاولون صد هجوم.
.. حسن، أظن أنه لا مجال للنوم الآن؟
.. لا نوم لنا.

- «توماس»، أحب أن تعرف رأيي في الطريقة التي حدثني بها
عن كل هذا، إنني أراك عظيمًا، عظيمًا. ولا أجد كلمة أخرى.
أعبر بها عن ذلك.

- شكرًا.

- أنت أكثر مني خبرة بهذا العالم. أنت تعرف أن بوسطر
على نحو ما - مكان معيق، حتى إن لم تكن من آل «لويل»^(١)،
آل «كابوت»^(١)، سألك النصيحة يا «توماس».

- عن أي شيء؟

- «فونج».

- ما كنت لأثق في نصيحتي لو كنت مكانك. أنا متحاز، أريد أن
أمتنقها لنفسي.

- أوه، ولكنني أعرف أنك عادل، عادل بصورة مطلقة. وكل ما
يهتم بمصلحتها.

فجأة أحسست أنني لم أعد أحتمل المزيد من صبيانيتها، قلت له
- لا تعنيني بمصلحتها في شيء، لك أن تأخذ بمصلحتها. أريد فقط
جسدها. أريدها معي في فراشي. أفضل عندي أن أغويها وأنا
معها من أن... من أن أهتم بمصلحتها.

ويصوت واو خرجت كلمته وسط الظلام:
- أوه.

وواصلت كلامي:

(١) «لويل» و«كابوت» عائلتان رافيتان في مدينة بوسطن.

- إذا كان لا يعينك منها غير مصلحتها فلأنني أستحلفك بالله أن
تتركها وشأنها. إنها مثل أي امرأة أخرى تفضل أن تحصل
على...

أنفذ صوت انفجار قذيفة الأذنين البوسطنيين من سماع الكلمة
الأسجلو-ساكسونية.

بيد أن العناد كان من بين ما يتصف به «بايل»، وحسم على أنني
سرفت بشكل جيد، وعلى أنني يجب أن أتصرف بشكل جيد. قال:
- أنا أعرف ما تكأبده يا «توماس».
- أنا لا أكأبده شيئاً.

- أوه نعم، بل إنك كذلك. أنا أعرف ما سوف أكأبده إذا ما
اضطرت إلى التخلي عن «فونج».
- ولكنني لم أتخل عنها.

- إنني أؤمن بالجسد أيضاً يا «توماس»، بيد أنني سأتخلي عن كل
أطماعي في ذلك، وبكفني أن أرى «فونج» سعيدة.
- إنها سعيدة.

- لا يمكن أن تكون كذلك. ليس في وضعها هذا، إنها بحاجة
إلى الأطفال.

- هل تصدق حقاً كل هذا الهراء الذي قالته أختها؟

- الأخت تعرف أحياناً أفضل.

- إنها لم تحاول سوى أن تبيع لك الفكرة. وها هي يا إلهي قد
أحسنّت بيعها.

- أنا لا أملك إلا راتبي.

- حسن، ولكنك على أي حال تحصل في مقابلة على بديل مح.
من العملة المحلية.

- لا تكن لا ذعاً يا «توماس». فإن هذه الأمور تحدث، ولكنني
كنت أود أن تحدث لأي إنسان آخر إلا أنت. أهذه قذايقنا نحر؟
- نعم هي قذايقنا نحن. إنك تتحدث إليّ وكأنها عزمت على أن
تتركتي يا «بابل».

قال من غير اقتناع:

- بالطبع إنها قد تختار البقاء معك.

- ماذا ستفعل إذن؟

- سأطلب نقلي.

- ولماذا لا ترحل من فورك يا «بابل»، بدلاً من أن تسب المتاعب؟
قال بجديّة متناهية:

- لن يكون ذلك عدلاً بالنسبة لها يا «توماس».

لم أعرف قطّ رجلاً كانت لديه دوافع أفضل لكل المشاكل التي
سببها. استطرد قائلاً:

- أحسب أنك لم تفهم «فونج» بعد على حقيقتها.

استيقظت ذات صباح بعد شهر من هذا الحديث وكانت «فونج»
إلى جانبي. وفكرت: «نرى هل فهمتها أنت أيضاً؟ ترى هل كنت
تتوقع مسبقاً هذا الموقف؟ «فونج» تنام سعيدة بجانبني، وأنت في
عداد الموتى؟» إن الزمن له أسلوبه في الثأر، بيد أن ثأره مر في غالب
الأحيان. أليس من الخير لنا أن نكف عن أي محاولة للفهم، ونسلم
بالحقيقة الواقعة. فإن أي إنسان لن يفهم أبداً غيره ولا الزوج زوجته.

« لا المحب معشوقته بل ولا الأب طفله. ربما لهذا السبب اخترع
«اس الإله» كائنًا قادرًا على الفهم. ربما لو أردت أن يفهمني الغير
أ، أنهمهم أنا، فقد أغرر بنفسي لأصبح إنسانًا صاحب عقيدة. بيد
«سي» لست سوى مراسل صحفي. أما الله فإنه موجود لدى المحررين
«مسؤولين فقط».

وسألت «بابل»:

«هل أنت متأكد من وجود شيء ما أصعب من أن يفهم؟ أوه بالله
عليك دعنا نشرب ويسكي، فالجو صاخب لا يسمح بالمناقشة.
قال «بابل»:

«لا زال الوقت مبكرًا إلى حد ما.
- بل متأخر جدًا».

صببت كأسين ورفع «بابل» كأسه وحملق بعينه من خلال
«الويسكي» في ضوء الشمعة. كانت يده تهتز كلما انفجرت قذيفة،
مع ذلك فقد قام برحله هذه - التي لا معنى لها - من نام دين.
قال «بابل»:

«شيء غريب أن أيًا منا لا يستطيع أن يقول «حظًا سعيدًا».
فشرنا دون أن نبيس بينت شفة».

الفصل الخامس

(١)

«سبت أنتي سأغيب عن مايجون أسبوعًا واحدًا فقط، ولكن هأنذا
الهي ما يقرب من ثلاثة أسابيع قبل أن أعود إليها. وتبين لي أولاً
أن الخروج من منطقة فات ديسم كان أشق من دخولها، فالطريق بين
ام دين وهانوي مقطوع. ولا يمكن تدبير السفر بالطائرة لمخبر
صحفي ما كان له أن يذهب إلى هناك بأي حال. ثم عند وصولي
إلى هانوي كان المراسلون قد طاروا لتسجيل آخر انتصار. ولم
يكن ثمة مكان لي في الطائرة التي عادت بهم. أما «بايل» فقد رحل
من فات ديسم صباح ليلة وصوله، فقد أنتم مهتة وهي الحديث معي
من «فونج»، ولم يكن ثمة ما يدعو لبقائه. تركته نائمًا عندما توقفت
.. أن مدافع «الهاون» في الساعة الخامسة والنصف، وعندما عدت
من الميسر بعد تناول قدح من القهوة وبعض البسكويت لم أجده،
«طنت أنه خرج لينجول، وأنه اتخذ طريقه في النهر يجدف بقاربه عبر

المصافاة التي نصل به إلى نام دين، وما كان ليحفل بعدد من الفناء قد يبيون له إزعاجاً، كان عاجزاً عن تصور الألم أو انخطر بالنه نفسه مثلما كان عاجزاً عن إدراك الألم الذي قد يسببه للآخرين وفي إحدى المناسبات - وكان ذلك بعد بضعة أشهر - فقدت سبطر على نفسي، ودفعته إليه، أعني إلى الألم، وأذكر كيف تحاشى ذلك ونظر بقلق إلى حذائه المتمسخ. قال: «لا بد أن ألمع حداثي قل أقبال الوزير»، وعرفت أنه صاغ عباراته على هدي الأسلوب ال نعلمه من «يورك هاردنج». ومع ذلك فقد ظل وفياً على طريقته. الصدفة وحدها هي التي تجعل الآخرين يتحملون كل التضحيات إلى أن جاءت تلك الليلة الأخيرة تحت قنطرة دافو.

علمت أن «بايل» ألح على ضابط فرنسي شاب ليصحبه على ظا مركب نهري، وأنزله خفية في نام دين بعد جولة روتينية لدوريا الحراسة. ولم أعلم بذلك إلا بعد عودتي إلى سايجون. وأنا أشر القهوة. وكان الحظ حليفه إذ عاد إلى هانوي ومعه فرقة «التراكو قبل أربع وعشرين ساعة من إعلان قطع الطريق رسمياً. وعنا وصلت إلى هانوي كان قد غادرها إلى الجنوب، وترك لي مذ: لدى البارمان في معسكر الصحافة يقول فيها:

عزيزي «توماس»، لا أستطيع أن أبدا حديثي عن مدى عظمتك في تلك الليلة. وإنما أستطيع أن أقول إن قلبي كان في حلقي وأنا أخطر داخل تلك الحجرة حيث ذهبت لملافائك (أين كان كل هذا أثناء الرحلة الطويلة على امتداد النهر؟) لا يوجد غير قلة من النامس بوسعهم

أن يتقبلوا هذا الموضوع بمثل هذا الهدوء. لقد كنت عظيمًا، ولا أشعر إلا بنصف ما كنت عليه من ضمة وماذا أقولها لك الآن (نساء) بنضاب أهو الوحيد المهم؟ ولو أنني عرفت أنه لم يكن يفكر على هذا النحو، كل ما في الأمر أنه سيكون أكثر سعادة بقدر ما ينفي إحساسه بالضمة. سأكون أكثر سعادة. وفونج! ستكون أكثر سعادة. كل العالم سيكون أكثر سعادة، حتى الملحق الاقتصادي والوزير. وما قد حل الربيع على الهند الصينية لأن «بابل» لم يعد يحس بالضمة. انتظرك أربعًا وعشرين ساعة، يد أنني لن أعود إلى سايجون لمدة أسبوع. هذا إذا لم أرحل اليوم فإن عملي الحقيقي في الجنوب. ولقد طلبت من الأولاد الذين يشركون في فرقة «التراكوما» أن يبحثوا عنك، وسوف تُرأى بهم. إنهم أولاد عظام وبؤدون عملاً إنسانياً. لا تنزعج على أي حال لعودتي إلى سايجون قبلك. لا أريد منك أن تشعر فيما بعد بأنني لم أكن واضحًا معك بأي حال من الأحوال. لك تحياتي القلبية. «الكبد»

مرة أخرى هذا المزعم الهادئ بأنني أنا الذي سوف أخسر «فونج» فيما بعد. ترى هل بنى ثقته هذه على أساس نسبة تحويل النقد؟ لقد اعتدنا الحديث عن صفات الاسترليني، فهل يا ترى بات علينا أن نتحدث من حب الدولار؟ الشيء المؤكد أن حب الدولار سيتضمن الزواج، عيد الطفولة وعيد الأم، رغم أنه قد يتضمن فيما بعد جزر ريونو وجزر العذراء. أو كل مكان يذهبان إليه ليشهرا حلاقيهما. إن حب الدولار

له نوايا طيبة، وضمير نقي، وليذهب الجميع إلى جهنم. أما حيي فلم تكن له نوايا: كان يعرف المستقبل. لقد كان كل ما يستطيعه الإنسان أن يجعل المستقبل أقل قسوة، وأن يخفف من وقع المستقبل كلما واثاه. وحتى الآيون كانت له قيمته هناك. بيد أنني لم أكن أتنبأ أبداً بأن أول مستقبل، سيكون عليّ أن أخفف من وقعه على «فونج»، هو موت «بايل».

ونذهبت إلى المؤتمر الصحفي، إذ لم يكن ثمة شيء أفضل أفعله. وكان «جرانجر» هناك بطبيعة الحال. ورأس المؤتمر ضابط فرنسي شاب وسيم للغاية برتبة كولونيل. كان يتحدث بالفرنسية وضابط آخر أقل منه رتبة يترجم ما يقول. وتجمع المراسلون الفرنسيون معاً كأنهم فريق منافس من فرق كرة القدم. وأحسست بمشقة في تركيز ذهني فيما يقوله الكولونيل. إذ كان عقلي طوال الوقت يشرده إلى حيث كانت «فونج». والفكرة الوحيدة التي استبدت بي هي: لو فرض أن «بايل» على صواب وخسرتها، فإلى أي مكان أذهب من هنا؟

قال المترجم:

- يقول لكم الكولونيل إن العدو قد مُني بهزيمة قاسية وخاسر فادحة تعادل كتيبة كاملة. وتحاول فلوله، الآن، أن تشق طريقها عائدة عبر النهر الأحمر فوق أطواف خشبية تسير على غير هدى. فقد تعرضوا لقصف مستمر طوال الوقت من السلاح الجوي.

ومسح الكولونيل براسته شعره الأصفر الأنيق. ثم لوح بعشرته.

أخذ يحركه بطرب فوق المخرايط الطويلة المعلقة على الحائط.
سأله مراسل أمريكي:

ما خبايا الفرنسيين؟

وأدرك الكولونيل تمامًا مغزى السؤال الذي كان يوجه عادة في مثل هذه المرحلة من المؤتمر تقريبًا. بيد أنه صمت هنيهة، ورفع مؤشره، على شفاهه ابتسامة رقيقة كأنه مدرس متمرص، إلى أن تمت ترجمة السؤال ثم أجاب إجابة مبهمة سقيمة:

يقول الكولونيل إن خسائرتنا ليست جسيمة، ولم يعرف عددها بالدقة بعد.

كانت هذه الإجابة دائمًا علامة قلق، ولا ريب في أنكم ستظنون أن الكولونيل سيقع إن آجلًا أو عاجلًا على صيغة يسكت بها نلامته المشاكسين، أو أن ناظر المدرسة سيوكل مهمة حفظ النظام لواحد من هيئة التدريس يكون أكثر كفاءة. وسأله «جرانجر»:

هل الكولونيل يقول لنا حقًا إنه وجد وقتًا كافيًا ليحصي عدد قتلى العدو دون أن يحصي قتلاه؟

وفي صبر وأناة نسج الكولونيل قناع التعلص، الذي كان يعرف جيدًا أنه سينتهوي بعد سؤال آخر، وخيم صمت كثيب على المراسلين الفرنسيين. فلو استطاع المراسلون الأمريكيون أن يورطوا الكولونيل في تصريح ما فإنهم سرعان ما يتلففونه. بيد أنهم ليسوا على استعداد للمشاركة في اصطلياد واحد من أبناء جلدتهم.

يقول الكولونيل إن قوات العدو قد هُزمت واحتلت مواقعها. ومن ثم فقد كان من الممكن إحصاء عدد الموتى فيما وراء

خط إطلاق النار. ولكن نظرًا لأن المعركة لا زالت دائرية، فإنك لا تستطيع أن تتوقع أرقامًا خاصة بالوحدات الفرنسية المتقدمة.

قال «جرانجر»:

- إننا لا نسال عما نتوقعه نحن، بل ما إذا كان رئيس هيئة الأركان يعرف أم لا. هل تقول لنا حقًا إن فرقة الجيش لا تبلغ عن خسائرها كما يفعلون في الميدان بجهاز لاسلكي.

وبدأ مزاج الكولونيل يتغير ويغتاض. وفكرت بأنه لو حاول في البداية أن يمد علينا الطريق في خداعه لنا، وقال بحسم إنه يعرف أرقام خسائره ولكنه لم يفصح عنها، لكان خيرًا له. إنها في النهاية حربهم ونمست حربنا. إننا لا نملك حقًا إلهيًا نحصل بمقتضاه على المعلومات. إننا لسنا ملزمين بمحاربة نواب الجناح اليساري في باريس، وكذلك قوات هوشي منه فيما بين النهر الأحمر والنهر الأسود. إننا لم نكن معرضين للموت.

وفجأة أعلن الكولونيل من تلقاء نفسه أن نسبة قتلى الفرنسيين إلى قتلى العدو هي واحد إلى ثلاثة. ثم أدار لنا ظهره ليحملق بغضب في خريطة. لقد كان الذين لقوا حتفهم رجاله وزملاءه من الضباط، وليسوا أرقامًا كما كانوا بالنسبة لـ «جرانجر». قال «جرانجر»:

- ها نحن قد اقتربنا إلى حد ما.

ثم نظر حوله إلى رفاقه بزهو أخرق. وكان الفرنسيون بروفوسهم المنكسة يكتبون ملاحظاتهم الحزينة. وقلت بسوء فهم متعمد: - هذا أكثر مما كان يمكن أن يقال في كوريا.

بيد أن الوحيد الذي استفاد من كلامي هو «جرانجر» إذ أعطاه
انجاءاً جديداً. فقال:

- اسأل الكولونيل ماذا سيفعل الفرنسيون بعد ذلك؟ إنه يقول إن
العدو يولي الأدبار هارباً عبر النهر الأسود.
وصحح له المترجم كلامه بقوله:
- النهر الأحمر.

- لا يعني لون النهر. إن ما نريد أن نعرفه، هو ماذا سيفعل
الفرنسيون الآن؟
- إن العدو يلوذ بالعوار.

- ماذا يحدث بعد أن ينتقلوا إلى الجانب الآخر؟ ماذا أنتم فاعلون
حينئذ؟ هل سيقفون بالجلوس على الشاطئ الآخر، وتقولون
لقد انتهى كل شيء؟

كان الفرنسيون ينصتون بصبر حزين لصوت «جرانجر» الباغي.
كل شيء مطلوب اليوم من الجنود حتى الخنوع.

- هل ترون أن تلقوا إليهم ببطاقات الكريسماس؟
وترجم الكابتن بحرص وعناية إلى أن قال بالفرنسية «بطاقات بابا
نويل». وابتسم الكولونيل ابتسامة باردة. قال:
- ليس ببطاقات الكريسماس.

أحسب أن شباب الكولونيل ووسامته بوجه خاص كانوا يستفزون
«جرانجر»، فلم يكن الكولونيل صورة كاملة للرجولة، على الأقل
دون استخدام مقاييس «جرانجر».
- إنكم لا تلقون إليهم بشيء آخر.

فجأة تحدث الكولونيل بالإنجليزية. وكانت إنجليزية صحيحة، فقال
- لو وصلتنا المعونات الأمريكية التي وُعدنا بها فسيكون لدينا
الكثير مما نلقي به إليهم.

لقد كان حقًا رغم رشاقتة إنسانًا بسيطًا. كان يعتقد أن المراسل
الصحفي يعنيه شرف بلده أكثر من حرصه على الأخبار.
قال «جرانجر» - الذي كان إنسانًا كفؤًا! يحفظ التواريخ جيدًا في
ذاكرته - بحدة:

- تعني أنه لم يصلكم أي شيء من المعونات التي وعدت الحكومة،
أن تصلكم في مطلع شهر سبتمبر؟
- لا.

وحصل «جرانجر» على أخباره وبدأ يكتب.
قال الكولونيل:

- آسف، فهذا ليس للنشر. هذا فقط، لتُحاط علمًا.
واحتج «جرانجر» قائلاً:

- ولكن هذه أخبار يا كولونيل. ونحن نستطيع أن نساعدك.
- لا، فهذه مسائل تخص الدبلوماسيين.
- وما الضرر إن نُشرت؟

كان المراسلون الفرنسيون ضائعين. فهم لا يعرفون غير انتر
الير من الإنجليزية. وحطم الكولونيل القواعد. وحرّت بينهم
همة غاضبة وقال الكولونيل:

- ليس لي القول الفصل، إذ ربما تقول الصحافة الأمريكية: «نعم،
ها هم الفرنسيون، دائمًا يتسولون ودائمًا يشكون»، وفي باريس

سينهمن الشوعيون بقولهم: «إن الفرنسيين يريقون دماءهم من أجل أمريكا، ولن توصل لهم أمريكا شيئاً حتى ولو طائفة هليوكوبتر مستعملة»، وليس هذا من المصلحة في شيء. وفي نهاية الأمر سنظل بلا طائرات هليوكوبتر. وسيظل العدو هناك على بعد خمسين ميلاً من هانوي.

- على الأقل فأنا أستطيع أن أنشر أنكم بحاجة ماسة إلى طائرات هليوكوبتر، ألا أستطيع ذلك؟

قال الكولونيل:

- تستطيع أن تقول إننا منذ سنة أشهر خلت كنا نملك ثلاث طائرات هليوكوبتر، أما الآن فلدينا واحدة.

ثم كرر كلمة «واحدة» بنوع من المرارة تثير الدهشة.

- لك أن تقول إنه لو أصيب رجل في هذه الحرب بجرح غير خطير، مجرد جرح عادي، فإنه على يقين من أنه قد تلقى حقه، إذ قد يقضي اثني عشرة ساعة بل وربما أربعاً وعشرين ساعة ما بين التقالة وعربة الإسعاف ثم الطريق الوعر، وقد يُغمر عليه، وربما يصادفه كمين، ويتحول الجرح إلى حالة غرغرينة. فمن الخير له أن يُقتل في الحال.

ومال المراسلون الفرنسيون إلى الأمام يحاولون جهدهم أن يفهموا ما يقال.

- لك أن تكتب هذا.

قال هذا وهو يبدو أكثر إثارة للفضيلة لجمال جسده، ثم أصدر أمره بالفرنسية:

- ترجم.

وخرج من الحجرة تاركًا للكاتبين مهمة لم يعتد عليها في الترجمة من الإنجليزية إلى الفرنسية.

وقال «جوانجر» في رضا:

- لقد حصلت منه على ما أريد.

ثم انزوى في ركن عند البار ليكتب برقيته. أما برقيتي فلم تستغرق مني وقتًا طويلاً. فليس ثمة ما أستطيع أن أكتبه عن فات ديسم ويسمح به الرقباء. ولو كانت المسألة تستحق الاهتمام، فربما طرأت إلى هونج كونج وأرسلتها من هناك. ولكن هل ثمة أخبار تستحق المخاطرة بالطرده؟ أشك في هذا. إن الطرد كان يعني بالنسبة لي نهاية الحياة كلها، كان يعني انتصار «بابل». وهناك، بعد أن عدت إلى فندق منتظرًا داخل جحري الصغير، كان يكمن انتصاره، النهاية، تلغراف التهينة بالترقية. إن «داتي» لم يفكر على الإطلاق في مثل هذا التبدل لعشاقه المدانين، إن «باولو» لم يترق إلى المطهر.

صعدت الدرج قاصدًا جحري ذات الأرضية العارية والصنبور الذي تتقاطر منه مياه باردة (لم تكن في هانوي مياه ساخنة)، وجلست على حافة سرير و ثمة ناموسية معقودة كانت أشبه بحجاب متضخمة تعلو رأسي. كنت دائمًا أول محرور أجنبي يصل عادة بعد الظهر في الساعة الثالثة والنصف إلى هذا المبنى الكالح من الطراز الفيكتوري الكائن قرب محطة «بلاك فرايزر» وبه - قرب المصعد - صحيفة مكتوب عليها «لورد سالزبري». كانوا قد أرسلوا الأخبار الطبية من سايجون. وتساءلت ترى هل بلغت مسامع «فونج». لم يعد لي

أ. أكون مجرد مخبر صحفي، أصبحت على وشك أن تكون لي
 أ.م. واحسست إزاء هذا الامتياز الفارغ بأنني على وشك أن أحرّم
 .. ألمي الأخير في الصراع مع «بايل». فقد كانت لي خبرني التي
 .. هلني للصمود أمام عذريته. كانت السن ورقة رابحة في مجال
 المغامرة الجنسية مثله مثل الشباب، بيد أنني الآن لم أعد أملك حتى
 المستقبل المحدود لفترة التي عشر شهراً أخرى لكي أقدمه. ولقد
 فإن المستقبل هو الورقة الرابحة. وأحسست برغبة في الهكاه، بيد
 .. دموعي جفت في مآقيها. مثلما جفت المياه الساخنة في أنابيبها.
 .. إنهم قد يستطيعون أن يكون لهم وطن، أما أنا فلم أكن أشد غير
 محترني في شارع كاتينات.

كان الجو بارداً في هانوي بعد أن هبط الليل، والأضواء أخفت
 من أضواء سايجون، وأكثر تلالماً مع ملابس النساء الفاتحة وواقع
 الحرب. سرت على طول طريق جاميتا فاصداً بار «باكس»، إذ
 أم أشأ أن أشرب في بار «متروبول» حيث كبار الضباط الفرنسيين
 وروجاتهم وبناتهم. وما إن وصلت إلى البار حتى تنبّهت إلى أصوات
 فرع المدافع عن بعد ناحية هاويين. وكانت هذه الأصوات تفرق في
 صوضاء المرور أثناء النهار. أما الآن فكل شيء هادئ، ما خلا صوت
 رنين أجراس الدراجات حيث يقف سائقو عربات «الترينسو» يكدون
 لتأجيرها. رأيت «بيتري» جالساً في مكانه المصهود. له جمجمة طويلة
 على نحو غير مألوف تستقر على كتفيه كأنها حبة كمثرى فوق طبق.
 فإن يعمل ضابطاً بمكتب الأمن، ومتزوجاً من فتاة رائعة الحسن من
 نبات تونكين، وهي التي تملك بار «باكس». كان إنساناً آخر لا يؤرقه

حينئذ العود إلى الوطن، فهو من أبناء كورسيكا، ولكنه أثر الحياة في
مرسيليا، وهو اليوم يفضل على مرسيليا أي يوم يقضيه جالسًا على
قارعة طريق جامبيتا. تساءلت ترى أيعرف مسبقًا مضمون برقيتي.
سألته:

- تلعب ٨١؟

- لم لا.

وبدأنا نلقي بالورق، وبدأ لي أنه قد بات مستحيلًا عليّ أن أنعم
بالحياة ثانية، بعيدًا عن طريق جامبيتا وشارع كاتينات وطعم شراب
«الغرموت» المائع وصوت دحرجة النرد الأليقة وقذائف المدافع
وهي تشق طريقها كأنها عقرب ساعة يدور حول الأفق.
وقلت:

- إنني عائد.

وألقى «بيتر» بأوراقه ٤ - ٢ - ١ وهو يألني:

- إلى البيت؟

- لا. إلى إنجلترا.

الجزء الثاني

الفصل الأول

«فاني «بابيل» نفسه إلى ما سماء «شرباء» بيد أنني كنت أعرف يقيناً
«لا يشرب». وبعد مضي عدة أسابيع على هذا اللقاء الخيالي في
«ات ديسم» بدا لي شيء «عسير التصديق» كأنه لم يقع: فحتى تفاصيل
«المحادثة» باتت أقل وضوحاً. كانت أشبه بالحروف الناقصة على
«سر روماني» وأنا عالم الآثار الذي يملأ الفجوات حسبما تمليه عليه
«دراسته». بل لقد خطر لي أنه كان «مكربي»، وأن «المحادثة» لم تكن سوى
«مدعة» متقنة ساقها على سبيل العزاج ليخفي وراءها هدفه الحقيقي.
«ذلك لأن الشائعات في «سايجون» تقول إنه يقوم ببعض الخدمات
التي تُسمى تحايلاً «الخدمات المرسية». ربما كان يتولى مهمة تدبير
«الأسلحة الأمريكية لقوة ثالثة، فرقة الأسقف للموسيقى النحاسية،
وهي كل ما تبقى له من جنده «المروعين» الذين لم تدفع لهم رواتبهم.
«احتفظت في جيبي بالبرقية التي كانت تنتظرني في هانوي. ولم تكن
نمّة حاجة لأخبر «فوننج»، إذ إن هذا من شأنه أن يسم الأشهر القليلة
«الباقية» بالدموع والمشاحات، بل لم أفكر في الذهاب للحصول على

تأشيرة الخروج. وقررت الانتظار حتى آخر لحظة خوفاً من أن يكرر لها قريب من العاملين بمكتب الهجرة.
قلت لها:

- سيحضر «بابل» في الساعة السادسة.

- سأذهب لأرى أختي.

- أعتقد أنه يسره أن يراك.

- هو لا يحبني ولا يحب عائلتي، إذ إنه أثناء سفرك لم يفكر مرة واحدة في زيارة أختي رغم أنها دعت، وساءها ذلك كثيراً.

- إذن لست بحاجة إلى الخروج.

- لو شاء أن يراني لدعانا إلى «العاجتيك»، إنه يود أن يتحدث إليك حديثاً خاصاً عن العمل.

- وما عمله؟

- يقول الناس إنه يتورد أشياء كثيرة جداً.

- أي أشياء؟

- عقاقير وأدوية...

- تلك خاصة بفرقة «النراكوما» في الشمال.

- ربما. ويجب على الجمارك ألا تفتحها. إنها طرود دبلوماسية.

ولكن حدثت غلطة ذات مرة. طُرد بسببها الرجل. هدد السكرتير.

الأول بإيقاف كل عمليات الاستيراد.

- ماذا كان في الحقيبة؟

- بلاستيك.

وقلت بغير اهتمام:

ولماذا هم بحاجة إلى بلاستيك؟

بعد أن خرجت «فونج» كتبت رسالة إلى بلدي. كان ثمة رجل يعمل في «دويتز» سافر إلى هونج كونج خلال أيام قليلة، وكان معه أن يرسل خطابي من هناك بالطائرة. كنت أعلم أنه لا أمل في التماسي، بيد أنني لم أשא أن ألوم نفسي فيما بعد لأنني لم اتخذ كل الإجراءات الممكنة. كتبت لمدير التحرير أن هذه ليست هي الملحظة المناسبة لتغيير مراسله، وكان الجنرال «دو لانغ» يلفظ أنفاسه في زربس، وكان الفرنسيون على وشك الانسحاب كليةً من هوايين، «أم بعد الشمال مهددًا بأخطار جسيمة. وفلت له إنني لا أصلح لأكون محررًا للشؤون الخارجية، فأنا مخبر صحفي. وليست لي أية حقيقة في أي شيء». وفي الصفحة الأخيرة بيت التماسي على أسباب شخصية، على الرغم من أنه لم يكن من المحتمل أن يفوى لي تعاطف بشري على البقاء وسط المكابات الخضراء والقوالب اللفظية: «مصلحة الصحافة» و«متطلبات الموقف»...

كتبت:

إنني لأسباب شخصية أشعر بتعاسة شديدة لنقلي من فييتنام. ولا أحسب أنني قادر على أن أؤدي عملي على خير وجه في إنجلترا حيث لن تواجهني ضائقات مالية فعسب، بل عائلية أيضًا. والحقيقة أنه لو كان لدي ما يكفي من الموارد المالية، فإني أؤثر الاستقالة على العودة إلى المملكة المتحدة. ولم أذكر هذا إلا لأبين مدى قوة معارضي. لا أظنكم وجدتم في مراسلًا سيئًا. وهذه هي أول خدمة أقدم بطلبها منكم.

ثم ألقيت نظرة على مقالتي عن معركة فات ديسم حتى يتسنى لي أن أخرجها لأرسلها بالبريد موسومة بخاتم بريد هونج كونج. فليس من المتوقع أن يبدي الفرنسيون الآن اعتراضاً جاداً فقد رُفع الحصار، والهزيمة يمكن تصويرها على أنها نصر. ثم مزقت الصفحة الأخيرة من خطابي إلى رئيس التحرير، أحسست أن لا فائدة، فالأسباب الشخصية ستكون فقط مجالاً لتكت خبيثة. إذ يفترضون هناك أن كل مراسل له فئاته من بنات البلد الذي يحل به. وسوف يقص رئيس التحرير النكتة على محرر المصاء. ويعود هذا بفكره الحائد إلى مسكنه في القبلاً المنعزلة في سترينام. ويقصها بدوره، وهو نائم فوق سريره، بجانب زوجته الوفية التي عادها منذ سنوات خلت من جلاسجو. إنني أكاد أرى بوضوح شديد نوع هذا البيت الذي لا يعرف الرحمة، في الصالة دراجة مهشمة ذات ثلاث عجلات، وشخص ما حطم غليونه المفضل، وفي حجرة الاستقبال فميص طفل يتظمر من يخيظ زواره. «أسباب شخصية»، الشرب في «نادي الصحافة»، لأنني لا أريد ما يذكرني في دعاياتهم بـ«فونج».

سمعت طرقاً على الباب. وفتحت له «بايل» وكلبه الأسود يسير أمامه. وألقى «بايل» نظرة من فوق كتفي، وألقى الحجرة خاوية. قلت له:

«أنا وحدي، «فونج» عند أختها.

واحمر وجهه. ولاحظت أنه يرتدي قميصاً من قمصان هاواي، وإن كان محتشماً من حيث تصميمه ولونه. ودهشت، ترى هل أنهم بأنه يقوم بنشاط غير أمريكي؟

قال:

- أرجو ألا أكون قد أخلقت راحتك.

- لا بالتأكيد، تريد أن تشرب؟

- شكرًا، هل لديك بيرة؟

- آسف، ليس عندي ثلاثة، فحن نشري الثلج. ما رأيك في

وبسكي اسكوتش؟

- كأس صغيرة. إذا كان هذا لا يضايقك، فأنا لست مولعًا بالخمور

القوية.

- ثلج؟

- مع كثير من الصودا إذا كانت متوفرة.

- لم أرك منذ كنا في فات ديسم.

- هل وصلتك رسالتي يا «توماس»؟

عندما استخدم اسمي الأول أحست أن كلامه بمثابة تصريح

بأنه لم يكن مازحًا، وأنه أتى إلى هنا ليحصل على «فونج» ولاحظت

أنه غني حديثًا بأناقة هندامه، ترى هل يفيد قميص هاواي في إضفاء

مظهر الذكورة؟

قلت له:

- وصلني رسالتك، أظن ينبغي عليّ أن أ طرحك أرضًا.

- لك الحق بالتأكيد يا «توماس». بيد أنني تعلمت الملاكمة في

الكلية، فضلًا عن أنني أكثر شبابًا.

- إذن هذه الخطوة لن تكون لصالحني، أليس كذلك؟

- تعرف يا «توماس»، وإني على يقين من أن لك نفس الشعور،

أنني لا أحب مناقشة موضوع «فونج» من ورائها، اعتقد أن الأفضل أن تكون معنا.

— ماذا عسانا أن تناقش، البلاستيك؟

لم أقصد بذلك أن أباغته.

قال:

— أتعرف شيئاً عن هذا؟

— حدثني عنه «فونج».

— كيف نسني لها...؟

— لك أن تكون على يقين من أنه حديث المدينة كلها، ماذا بهم

في ذلك؟ هل تنوي الاشتغال في لعب الأطفال؟

— نحن لا نحب أن تكون تفاصيل مساعدتنا على لسان كل من

هب ودب، وأنت تعرف طبيعة الكونجرس، إننا نتوقع دائماً،

من ذلك الحين، زيارة بعض الشيوخ، لقد واجهنا متاعب كثيرة

بالنسبة لفرق «التراكوما» لاستعمالهم عقاراً بدلاً من الآخر.

— ما زلت لا أفهم شيئاً عن البلاستيك.

كان كلبه الأسود الرابض على الأرض يشغل حيزاً كبيراً وقد أخذ

يلهث، وبدأ لسانه كأنه فطيرة مشتعلة. قال «بابل» كلمات غامضة:

— أوه، أنت تعرف أننا نريد لبعض الصناعات المحلية أن تقف

على قدميها، ويجب أن نكون على حذر من الفرنسيين، فهم

يريدون أن نبتاع كل شيء من فرنسا.

— أنا لا ألوهمهم. فالحرب نحتاج إلى أموال.

— هل تحب الكلاب؟

- لا.

- كنت أظن أن الإنجليز من أكبر عشاق الكلاب.
- ونحن نظن أن الأمريكان عشاق دولار، ولكن لا بد أن يكون
ثمة استثناء.

- لست أدري كيف لي أن أمضي من دون «ديوك». وانت تعرف
أنني أشعر أحياناً أنني وحيد للغاية...
- إن لك رفاقاً كثيرين جداً في مجال عملك.
- كان أول كلب لي اسمه «برنس»، وسُمّيته بعد ذلك «البرنس
الأسود». أنت تعرف الرجل الذي...
- الذي قتل كل النساء والأطفال في ليموجيس.
- لا أذكر ذلك.

- كتب التاريخ تلّمع ما حدث.
كنت كثيراً ما ألاحظ ملامح ألم وخيبة رجاء يتخيلان في عينه
على شفاهه كلما اصطدمت بالواقع أفكاره الرومانسية التي شغف
بها حباً، أو إذا سقط أحد محبيه أو معجبيه دون المستوى المستحيل
الذي وضعه فيه. وأذكر أنني ذات مرة أسكت له «يورك هاردنج» خطأً
جسيماً لا يتفق مع الواقع وأردت أن أواسيه فقلت له:
- إن الخطأ من طبيعة البشر.

ضحك بعصبية وقال:
- لا بد أنك تظنتني بليداً، ولكن... حسناً. إنني غالباً ما كنت أظنه
معصوماً، لقد أحبه أبي حباً جماً منذ اللقاء الوحيد الذي نم
بينهما، وعمير على أبي أن يصادف إنساناً لديه قبول.

ويعد أن لهث الكلب الأسود المسمى «ديوك» بما فيه الكفاية
ليثبت حقه في الهواء، بدأ يتشمم داخل الحجرة. قلت له:
- هل لك أن تطلب من كلبك أن يكف عن الحركة؟
- أوه، إني آسف. «ديوك»، «ديوك». اقعد يا «ديوك».
فعد «ديوك» وشرع يلحق أطرافه الحميمية معهدًا ضجيجًا. وملأ
كأسينا وتعمدت أثناء مروري أن أقلق تزيين «ديوك» لنفسه. وليت
هادئًا لفترة قصيرة جدًا، وبدأ يهرش.

قال «بايل»:

- «ديوك» ذكي جدًا.

- ماذا حدث لـ «برنس».

- كنا في طريقنا من المزرعة في كونيتيكت، ودهمت سيارة.

- هل انزعجت لذلك؟

- أوه، تضايقت كثيرًا. لقد كان بالنسبة لي شيئًا كبيرًا، ولكن يجب

على المرء أن يكون متعالمًا لشعوره فلا يجره شيء إلى الخلف.

- وإذا فقدت «فرونج»، هل ستكون متعالمًا لشعورك؟

- أوه، نعم، آمل ذلك. وأنت؟

- أشك في ذلك، إذ ربما أفقد وعيي. هل فكرت في هذا يا «بايل»؟

- أود يا «توماس» أن تناديني «آلدن».

- لا أفضل ذلك، فإن اسم «بايل» أصبح له تداعبات، هل فكرت

في هذا؟

- بالتأكيد لم أفكر، وأنا لم أعرف إنسانًا أكثر منك استقامة، وكل

تذكرت كيف تصرفت معي عندما اقتحمت عليك مكانك..

- اذكر أنني كنت أفكر في ذلك اليوم أن من الملائم تمامًا لو حدث هجوم ولقيت فيه مصرعك، موت بطل، دفاعًا عن الديمقراطية.
- لا تسخر مني يا «توماس».

نملعل في وقفته:

- لا بد أنك تراني شخصًا غيًّا إلى حد ما، بيد أنني أعرف متى تهزأ بي.
- لا أفعل.

- أعرف أنك لو توخيت الإنصاف فسترجو لها كل ما فيه خيرها.
وهنا سمعت وقع خطوة «فونج». كنت آمل لو أنه رحل فيل أن «ود مع علمي باستحالة ذلك. سمع خطوها هو أيضًا وتعرف عليه.
«ال: «ها هي ذي». هذا على الرغم من أنه لم تنح له معرفة وقع خطواتها وهي نازلة إلا لليلة واحدة. حتى كلبه شب على أقدامه ووقف إلى جانب الباب، الذي تركه مفتوحًا لتريد الغرفة، واستقبلها ذابها واحدة من أفراد عاتلة «بايل». كنت أنا الدخيل.

نظرت «فونج» إلى «بايل» نظرة تحفظ. قالت:

- لم تكن أختي في البيت.

وتساءلت في نفسي أتقول الصدق، أم أن أختها طلبت منها العودة

على عجل؟

وقلت لها:

- أتذكرين السيد «بايل»؟

فالت بالقرنية:

- تشرفنا.

بدت على أحسن ما تكون في سلوكها.

قال «بايل» وفد احمر وجهه:

- إنني سعيد جداً لروايتك الثانية.

وردت بالفرنسية:

- ماذا؟

فقلت له:

- إن لغتها الإنجليزية ليست كما ينبغي.

- أخشى أن تكون فرنسيتي شعبة. ومع ذلك فإني ألتقى فيها دروساً

وأستطيع أن أفهم، إذا تحدثت «فونج» على مهل.

قلت:

- سأقوم بدور المترجم، فالنبرة المحلبة تحتاج إلى تعود كذلك

والآن ماذا تريد أن تقول؟ اجلسي يا «فونج»، لقد أتى «بايل»

خصيصاً ليرأك، أنت على يقين من...

ثم استطردت موجهة حديثي إلى «بايل»:

- ... أنك لا تريد أن أتركما وحدكما؟

- أريد منك أن تسمع كل ما أود أن أقوله، وليس من الإنصاف أن

يحدث غير ذلك.

- حسن، أطلق نيرانك.

وتحدث بوقار وكأنه حفظ هذا الجزء عن ظهر قلب. قال إنه

يكن له «فونج» حبيباً وتقديراً عظيمين. وإن ذلك الشعور لازمه منذ

تلك الليلة التي راقصها فيها. وعاد لذاكرتي بعض حديث لرئيس

خدم، وهو يعرض على مجموعة من السائحين مزايا «بيت عظيم».

«إن البيت العظيم هو قلبه، أما عن الحجرات الخاصة في هذا البيت،
- ث كان يعيش أفراد العائلة، فلم يقدم لنا عنها سوى لمحة خاطفة
- حنية. ترجمت له كلماته ترجمة حرفية وأمانة، ومن ثم بدت ترجمة
دعته. كانت «فونج» آنذاك جالسة في صمت ويدها في حجرها،
- فأنها تنصت لكلمات فيلم سينمائي.

سألني:

- هل فهمت ذلك؟

- بقدر ما استطعت أن أنقل إليها. أنت لا تريد مني أن أضيف
القليل من القبهارات إلى كلامك، هل تريد مني ذلك؟
- أوه لا، ترجم فقط، أنا لا أريد أن أهزها عاطفيًا.
- أعرف.

- قل لها إنني أريد أن أتزوجها.

- قلت لها ذلك.

- ماذا قالت لك؟

- سألتني ما إذا كنت جادًا في ذلك. وقلت لها إنك من الطراز
الجاد.

- أظن أن هذا الموقف شاذ، إنني أنا الذي أطلب منك أن تتزوج
لي.

- إلى حد ما أنت كنت ترى ذلك.

- ومع ذلك فإنه يبدو أمرًا طبيعيًا، فأنت في النهاية أخلص أصدقائي.
- جميل منك أن تقول هذا.

- وأنت الوحيد الذي سادخل معه في مشاكل عن قريب.

- هل تظن أن حبك لفتاتي نوع من المشاكل؟
- بالطبع، كنت أود أن يكون أي إنسان غيرك يا «توماس».
- حسناً، ماذا أقول لها بعد ذلك؟ إنك لن تستطيع الحياة من دونها؟
- لا، فهذا حديث عاطفي جداً. فضلاً عن أنه ليس صادقاً تماماً.
- قد اضطر إلى الرحيل بالتأكيد، بيد أن على الإنسان أن يتحكم في كل أموره.
- بينما تفكر فيما تريد قوله، أتمنع في أن أقول كلمة لحسابي؟
- لا، بالقطع لا. فالمسألة يجب أن تكون مبرأة من كل شأن، يا «توماس».
- قلت لـ «فونج»:
- حسناً يا «فونج». هل أنت بصدد أن تتركيني من أجله؟
- سينزوجك وأنا لا أستطيع ذلك، وأنت تعرفين السبب.
- سأنتني:
- هل سترحل؟
- وفكرت في خطائي إلى رئيس التحرير وهو في جيبي.
- لا.
- أبداً؟
- كيف لإنسان أن يعد بذلك؟ هو لا يستطيع ذلك، الزيجار تتحطم، وغالباً ما تتحطم بأسرع من علاقة كعلاقتنا.
- أنا لا أريد أن أذهب.
- لم تكن هذه الجملة تبعث على الراحة، إذ كانت تحتوي على كلمة «لكن» غير معلنة.

قال «بابل» :

ينبغي أن أكتشف كل أوراقتي . لست ثرياً، ولكن سيؤول إليّ بعد وفاة أبي حوالي خمسين ألف دولار . وأنا أتمتع بصحة طيبة . لقد استخرجت شهادة طبية منذ شهرين فقط وأستطيع أن أهيئ لها فرصة معرفة فصيلة دمي .

- أنا لا أعرف كيف أترجم لها ذلك . لماذا كل هذا الكلام ؟

- حسناً، لكي أؤكد لها أننا نستطيع أن ننجب أطفالاً .

- أمكذا تمارسون الحب في أمريكا: أرقام عن الدخول وتحليل

الدم ؟

- لست أدري، فأنا لم أفعل ذلك من قبل، ربما في بلادي نتحدث

أمي مع أمها .

- عن تحليل دمك ؟

- لا تهز أبي يا «توماس»، أعتقد أنني من طراز قديم . أنت تعرف

أنني ضائع إلى حدّ ما في هذا الموقف .

- وأنا كذلك، ألا ترى أننا نستطيع أن نغافلها ونحتكم إلى الرد

بشأنها .

- ها أنت تتظاهر الآن يا «توماس» بالعناد، وأنا أعرف أنك تحبها

على طريقتك مثلما أحبها أنا .

- حسن، استمر يا «بابل» .

- قل لها إنني لا أتوقع منها أن تحبني توّاً، فهذا صيأتي مع الوقت .

ولكن قل لها إنني أكفل لها الأمان والاحترام . لا يبدو ذلك شيئاً

مثيراً للغاية، ولكن ربما يكون أفضل من الشغف .

- إنها قادرة على أن توفر لنفسها الحب الجنسي عن طريق سافلك.
عندما تكون أنت في مكتبك.

احمر وجه «بايل» واستبد به الحرج، قال:

- هذه إهانة، أنا لا أريد أن أخرجها، وليس من حقك...

- إنها ليست زوجتك بعد.

سألني بغضب:

- ماذا تستطيع أن تمنحها؟ ماتي دولار وقتما ترحل إلى إنجلترا

أم أنك ستسحبها مع الأثاث؟

- ليس الأثاث ملكاً لي.

- ولا هي أيضاً. «فونج» هل تتزوجيني؟

سأله:

- ماذا عن تحليل الدم والشهادة الطبية، هل ستحتاج إليهما؟

أنتك ستحتاج إلى شهادتها الطبية بل وربما احتجت إلى شهادتي

أنا أيضاً، ويرجها... لا، فذلك تقليد هندي.

- هل تتزوجيني؟

قلت له:

- قلها بالفرنسية، ولتحل بي اللعنة إن ترجمت لك بعد ذلك

ونفضت واقفاً على قدمي ونبح الكلب. وأغضبني هذا.

- قل لكليك الملعون «ديوك» أن يصمت، فهذا يتي وليس به

وأعاد سؤاله:

- هل تتزوجيني؟

خطوت خطوة ناحية «فونج»، ونبح الكلب ثانية.

قلت له «فونج»:

- قل لي له أن ينصرف ويأخذ كلبه معه.

قال «بايل» له «فونج»:

- تعالي معي الآن.

ثم أتبعها قوله بالفرنسية:

- معي.

وأجابته «فونج»:

- لا، لا.

وفجأة اختفى الغضب الذي بداخل كليتا. أكانت المشكلة على

«القدر من البساطة بحيث يمكن حلها بكلمة من حرفين؟ أحست

أخاه هائلة، ووقف «بايل» جانباً، فاعترافاً قليلاً، وبدت على وجهه

«عالم الارتباك». قال:

- قالت لا.

- هي تعرف هذا القدر من الإنجليزية.

أحست الآن برغبة في الضحك، أي سخافات أقدم عليها كلُّ

أ. قلت:

- اجلس يا «بايل»، وتناول كأساً أخرى من الويسكي.

- أحسب أنه ينبغي عليّ أن أنصرف.

- كأس للطريق.

نعمهم قائلاً:

- يجب ألا تأتي على ما لديك من الويسكي.

- إنني أحصل على كل ما أحتاج إليه من المفوضية.

خطوت ناحية المائدة وكشف الكلب عن أنيابه.

قال «بايل» بحتق:

- «ديوك» انزل، تأدب.

مسح العرق من على جبهته:

- «إني أسف أشد الأسف يا «توماس»، إن كان قد بدر مني ..

لا ينبغي، لست أدري ماذا حدث لي.

أمسك بالكأس وقال بقلق:

- «خير الناس يفوز دائماً، فقط أرجو ألا تتركها يا «توماس».

- قطعاً لن أتركها.

فالت لي «فونج»:

- هل يروق له أن يدخن غليوناً؟

- هل يروق لك أن ندخن غليوناً؟

- لا، شكراً. أنا لا أمس الأفيون، وثمة تعاليم صارمة بذلك من

العمل. سأكتفي بشرب هذه الكأس ثم أنصرف أسف لعاباً.

من «ديوك»، إنه هادئ جداً في العادة.

- انتظر حتى العشاء.

- «إنني أفضل، إن لم يكن في هذا ما يضايقك، أن أكون وحدي

بدت على وجهه تكمشيرة غير مفهومة، تابع:

- أظن أن الناس قد يقولون إن كليتنا قد تصرف على نحو غريب.

أمل أن تتمكن من الزواج بها يا «توماس».

- هل تأمل هذا حقيقة؟

- نعم، كلما وقع بصري على ذلك المكان... لعلك تعرفه. ذلك:

البيت القائم بجوار «الشالب»، تملكني الخوف.

وشرب على عجل كأس الويسكي الذي لم يعتده من دون أن
. طر إلى «فونج». عندما قال «وداعًا» لم يلمس يدها واكتفى بانحناءة
«غمة متحرجة». لاحظت كيف تبعته عينها حتى الباب، وبينما كنت
أنا بجانب المرأة رأيت نفسي، كان الزر العلوي لينطلقني مفكرًا،
أوع في كرش. عندما وصل إلى الخارج قال:

«أعد بالآل إراها ثانية يا «توماس»، يحسن ألا نجعل لهذا أثرًا فيما
بيننا. هل ستفعل ذلك؟ سأطلب نقلي بعد أن أنهى جولتي.
- متى سيكون ذلك؟
- حلال عامين تقريبًا.

عدت إلى حجرني، وفكرت: «ما الخير في هذا؟ كان حرًا بي
أحبرهما أني راحل». حينها ما كان عليه إلا أن يحمل قلبه الدامي
«سابع فليلة كأنه زينة... حتى إن كذبتني كانت لثريح ضميره.
سأنتي «فونج»:
- هل أعد لك غليونًا؟

«نعم، بعد قليل، فانا أريد أن أكتب رسالة فورًا.
كانت هذه هي رسالتي الثانية في ذلك اليوم. بيد أنني لم أمزق
مها شيئًا. ورغم أن أملي كان ضعيفًا في أن تلقى استجابة كنت:

عزيزتي «هيلين»، سأعود إلى إنجلترا في أبريل القادم
لأتولى عمل محرر لنبأسة الخارجية. ولأن
تصوري أنني غير سعيد تمامًا بهذا، فإنجلترا بالنسبة
لي هي مسرح فشلي. لقد سبق لي أن عزمت على
أن يظل زواجنا هادئًا بقدر مشاركتي لك في عقائدك
المسيحية، ولا زلت حتى يومنا هذا لا أعرف الخطأ

الذي حدث على وجه التحديد (فأنا أعرف أن كلاً منا حاول) بيد أنني أحسب أن الخطأ يرجع إلى مزاجي أنا. أنا أعرف مدى ما يشتم به مزاجي من قسوة وسوء. واعتقد أنه الآن أفضل قليلاً - وهذا ما فعله بي الشرف - لم يصبح أكثر حلاوة بل أكثر هدوءاً. ربما يرجع هذا إلى أنني تقدمت في العمر خمس سنوات. في هذه المرحلة من العمر تصبح الخمس سنوات نسبة كبيرة بالقياس إلى ما خلا من أيام الحياة. لقد كنت كريمة غاية الكرم معي. ولم توجهي إليّ لوماً مرة واحدة منذ أن افترقنا. ترى هل لي أن أطمع في مزيد من كرمك؟ أعرف أنك حذرتني قبل زواجك بأنه لن يكون نمة طلاق. وقبلت المخاطرة ولبس ثمة ما أشكركمته. وفي نفس الوقت إنني أسألك الآن أن تليي لي طلباً....

ونادتنني «فونج» من فوق فراشها، قائلة إن الصينية جاهزة. قلت:
- لحفلة واحدة.

كنت:

أستطيع أن أزخرف لك قولي ليبدو قولاً سديداً وأكثر وجاهة. بأن أظهار أن ما أطلبه إرضاء لحاطر شخص آخر، بيد أن الأمر ليس كذلك. ولقد نعدونا أن يصدق كل منا الآخر القول. إنه إرضاء لحاطري: أنا، وأنا وحدي. إنني أحب إنسانة ما حباً جماً، وقد عشنا معاً لأكثر من عامين، وكانت رغبة لي غاية الرفاء، وإن كنت أعرف أنني لا أمثل شيئاً جوهرياً بالنسبة لها، إذ اعتقد أنني لو تركتها فإنها ستبتئس لذلك قليلاً، ولكن لن

تكون ثمة مأساة على الإطلاق، فهي ستروج بشخص آخر وتكون أسيرة. إنه لغناء مني أن أقول لك ذلك. هناذا اضع أمامك ودًا جاهرًا، ولكن نظرًا لأنني كنت صادقًا معك إلى هذا الحد فربما تصدقيني. إذا ما قلت لك إن فقدي لها سيكون بالنسبة لي بمثابة الموت. أنا لا أسألك أن تحكمي «العقل» (فالعقل إلى جانبك على طول الخط)، ولا أن تكوني رحيمة بي. إنها كلمة كبيرة جدًا على موقعي وأحسب أن ما أسألك إياه حقيقة هو أن تتصرفي معي بخير وعي وبلا عقل وعلى غير ما يقضيه الطبع. أريد منك أن تستشعري (ترددت في كتابة هذه الكلمة ثم كتبتها على مضض) وجدان الحب. وأن تتصرفي دون تزيث للتفكير. وأعرف أن من الأسر أن يتم ذلك تلقائيًا، بدلًا من أن يكون في رسالة تنقل عبر ما يزيد عن ثمانية آلاف ميل. ولو اكتفيت بأن تبرقي لي فلأنتي أقبل ذلك وافيًا.

مد أن فرغت من الكتابة أحسست بأنني عدوت مسافة طويلة وقد هزت عضلاتي لإرادتي. واستلقيت على سريرتي بينما كانت «فونج» بعد لي غليوني. قلت:

- إنه شاب.

- من؟

- «بابل».

- هذا أمر غير مهم.

- أود أن أتزوجك لو أستطيع يا «فونج».

- اعتقد ذلك، بيد أن أختي لا تصدقه.

- كتبت نواً إلى زوجتي وطلبت منها الطلاق. لم أحاول ذلك،

قبل على الإطلاق، فهناك فرصة دائماً.

- هل هي فرصة كبيرة؟

- لا، بل صغيرة.

- لا تعبأ... دخن.

جذبت أنفاس الدخان، وشرعت تعد غليوني الثاني.

وسألتها ثانية:

- أحقاً لم تكن أختك بالمنزل يا «فونج»؟

- قلت لك إنها كانت بالخارج.

كان من السخف أن أعرضها إلى شغف الحقيقة، شغف غمر

كشغف الكحول. خف أثر الأفيون بسب ما شرته من الويسكي..

«بابل».

وقلت لها:

- كذبت عليك يا «فونج»، لقد صدر لي أمر بالعودة إلى بلادي

وضعت الغليون على الأرض. قالت:

- ولكنك لن تذهب؟

- إذا رفضت فعلى أي شيء نعيش؟

- أستطيع أن آتي معك، أود أن أرى لندن.

- إذا لم تنزوج فلن يكون في هذا راحتك.

- ولكن ربما نطلقك زوجتك.

- ربما.

- سأأتي معك على أي حال.

كانت تعني ما تقول، يد أنني لمحت في عينيها بداية سلسلة من
" مكبر، وبدأت ترفع الغليون ثانية وتسخر قطعة الأفيون. قالت:

- هل توجد ناطحات سحاب في لندن؟

أجبتها لبراءة سؤالها، إنها قد تكذب بدافع الأدب أو الخوف
أو ابتغاء الربح، ولكن لن يبلغ بها الدهاء إلى الحد الذي تخفي معه
١٩. بها.

- لا، عليك أن تذهبي إلى أمريكا لتريها.

ورمفتني بنظرة خاطفة من فوق الإبرة، واعترفت بهفوتها، وبينما
أنا تمعجج الأفيون شرعت تتحدث بطريقة عشوائية عن الملابس
في ستر قديها في لندن، وأمين ستعش، وقطارات الأنفاق التي قرأت
مها في إحدى الروايات، والأنوبيسات ذات الطابقيين، أسنافر
الجو أو البحر؟

قالت:

- وتمثال الحرية...

- لا يا «فونج»، هذا أمريكي أيضًا.

الفصل الثاني

(١)

ساد «الكاودبون» أن يقيموا مهرجانًا على الأقل كل عام عند «المشهد المقدس» في تانين، التي تقع على بعد ثمانين كيلومترًا إلى الشمال الغربي من سايجو. كانوا يقيمون مهرجاناتهم احتفالاً بهذه المناسبة أو تلك؛ فهناك «عام التحرير» أو «عام الفتح»، بل ثمة مهرجان «بودي» أو «كونفوشيوسي» أو حتى «مسيحي». ولقد كانت العقيدة الكاودية موضوعي المفضل في حديثي إلى الزوار. والعقيدة الكاودية بدعة ابتدعها موظف مدني من مقاطعة كوشين. وهي نوليفة متفاعة من الأدب الثلاثي. فد «المشهد المقدس» كان في تانين. وهناك بابا وكاردينالات إناث. ونبوءة من نوح التبو. والقديس «فيكتور هوجو». والمسيح وبوذا يطلان من سقف الكاتدرائية على تخيلات «والث دبزي» عن الشرق، التنين والتعابين بالألوان الطبيعية. كان الوافدون الجدد يرون لرؤيتهم هذه الأمور. لست أدري كيف ينسى للمرء

أن يعمل الكآبة التي تخيم على التجارة كلها؟ أهو الجيش الحاسم المكون من خمسة وعشرين ألفاً من الرجال المسلحين بمدافع «الهاون» التي صُنعت من مواشير العادم لسيارات قديمة، الذي لا يتحالف مع الفرنسيين ثم يعود إلى التزام موقف الحياد في وقت الخطر؟ ساعدت هذه الاحتفالات على تهدئة خواطر الفلاحين واعتاد البابا أن يدعو إليها أعضاء الحكومة (الذين قد يظهرون عام المسرح إذا ما استولى «الكاديين» على مقاليد الأمور)، وأعضاء السلك الدبلوماسي (الذين قد يوفون عنهم بعض صغار الموظفين نصحبهم عشيقاتهم أو زوجاتهم) والقائد العام الفرنسي الذي قد يُبَيِّن نيابة عنه أحد الضباط الصغار.

على طول الطريق إلى تانين تدفق ثيار سريع من سيارات رجال الحكومة والسلك الدبلوماسي. انتشر رجال من «الفرقة الأجنبية» عبر حقول الأرز عند المناطق المكشوفة من الطريق. كان هذا اليوم دائماً مثار قلق للقائد العام الفرنسي، وربما كان يبعث بعض الأمل في نفوس «الكاديين»، إذ ماذا يؤكد ولاءهم الخاص بطريقة محمودة العواقب أكثر من أن يلقى بعض الضيوف من ذوي الشأن مصرعهم وفي أرض غير أرضهم.

وعلى بعد كل كيلومتر يرتفع برج مراقبة صغير، مبني من الطين فوق الحقول المنبسطة كأنه علامة تعجب. وكل عشرة كيلومترات توجد قلعة أضخم من هذا حُشدت فيها شرذمة من جنود الفرق الأجنبية من المراكشيين أو السنغاليين. تتابعت السيارات بسرعة واحدة وفق نظام المرور في نيويورك، ومثل مرور نيويورك نصيبك

مالة من الحقل، ترقب السيارة التي تسير أمامك، كما ترقب - من امرأة - السيارة التي من خلفك. كان الجميع يريدون الوصول إلى ابن ليفرغوا من مشاهدة العرض ثم يعودون بأسرع ما يمكن، حظرت حول في الساعة.

واجتازنا مناطق حقول الأرز التي يسيطر عليها الفرنسيون إلى حقول الأرز التي يسيطر عليها أتباع «هوا هاو»، ثم اتجهنا إلى حقول الأرز التي يسيطر عليها «الكارديون» الذين كانوا عادة في حالة حرب مع أتباع «هوا هاو». ولم يكن يتغير سوى الأعلام العرفقة فوق أبراج المرافة، وأطفال صغار عمرة الأجسام يجلسون فوق الجاموس الذي يحوض وسط الحقول المروية وقد وصلت المياه فيها حتى أعضائه التناسلية. في الحقول التي تم فيها حصاد المحصول الذهبي ترى ألاحين بقبعاتهم النسيجية بالأصداغ المخروطية يذرون الأرز مالة حوائط صغيرة منحنية مصنوعة من البامبو المضغوط. واندفعت السبارات بجانبهم مسرعة لا تلوي على شيء، فهي تنسج إلى عالم آخر غير عالمهم.

ها هي كنائس «الكاردين» نشد انتباه الغرباء في كل قرية. الباب ذو طلاء أزرق شاحب وعين كبيرة وردية من الجص للرب. تزايدت الأعلام، وسارت فرق الفلاحين على طول الطريق، كنا نقترّب من «المشهد المقدس». وعلى البعد يطل الجبل المقدس يعلو شامخاً دانه قبعة خضراء هائلة تظلل مدينة تانين، وها هنا كانت وقفة الجنرال «ني» الصامدة، قائد الأركان المارق الذي أعلن منذ عهد قريب من عزمه على محاربة كل من الفرنسيين و«الفيت» ولم يبدل

«الكارديون» من جانبهم أي محاولة لأسره، رغم أنه اختطف أمة الكاردينالات. بيد أنه أشيع أن البابا تواطأ معه في فعلته هذه.

كان الجو في ثانيين يبدو أكثر سخونة منه في أي مكان في اندا الجنوبية. وربما كان نقص المياه أو الإحساس بالضجر لطولها، الاحتفالات اللانهائي هو السبب في أن المرء يتصبب عرقاً من أي هذه الحشود التي تجمعت لتصفي إلى أحاديث مملّة تُلقى عليهم بلغة لا يفهمونها، أو من أجل البابا الذي أثقلته أرويته الصينية الصنع والشيء الوحيد الذي كان يستشعر معه المرء بعض الرطوبة تحب هذا الوجه هو منظر الكاردينالات الإناث في سراويلهن الحريري البيضاء وهن يتجاذبن أطراف الحديث مع القساوسة، الذين غطوا رؤوسهم بخوذات نقيهم حرارة الشمس. يتبد بك العطل حتى تحسب أن الساعة السابعة لن تأتي أبداً، وقت الكوكبيل على سطح الماجستيك مع هبات النسيم من فوق نهر سايجون.

وبعد أن انتهى العرض أجريت حواراً صحفياً مع نائب البابا لم أتوقع أن أخرج بشيء من حديثي معه وكنت على صواب في ذلك، لقد كان اتفاقاً مضمراً بين الجانبين. وسألته عن الجنرال «تي» أوجز في حديثه فقال: «إنه رجل متهور». وبدأ حديثه معي، وقد نسي أنني استمعت إليه منذ عامين مضياً، ذكرني بجهاز الجرامفون الذي أديره في بيئي للوافدين الجدد: العقيدة الكاودية توليفة دينية. خير الأدبان قاطبة... والمبشرون الذين أرسلوا إلى لوس أنجلوس.. وأسرار الهرم الأكبر. كان يرتدي ثوباً كهنوياً أبيض طويلاً، ولا يتوقف عن التدخين. وكنت تشعر أن ثمة شيئاً من الدهاء والخبث يشوبه.

«لمعة الحب» ترد كثيرًا على لسانه. وكنت على يقين من أنه يعرف
١١ «وقدنا إلى هنا جميعًا لنستضحك من حركاته. وأن مظاهر التقدير
١٢ «ي نبديها فاسدة مثل تواتبيته الزائفة، بيد أننا كنا أقل دهاء. لم يحقق
١٣ «أفاننا مغتما، ولا حتى مجرد حليف يُعتد به، فإن نفاقهم ساعدتهم
من الحصول على أسلحة ومؤن، بل وحتى نقود.

— شكرًا يا صاحب النياقة.

نهضت لأنصرف. صحتني إلى الباب وهو يثر رماد السجارة.

قال ياركني:

— يُبارك الرب عملكم، تذكر دائمًا أن الرب يحب الحقيقة.

سأله:

— أي حقيقة؟

— في العفيدة الكاودية تلتقي كل الحقائق، والحقيقة هي الحب.
كان يضع خاتمًا ضخمًا حول إصبعه، وعندما مد إليّ يده اعتقدت
حق أنه بمدّها إليّ لأقبلها، لكنني لست من رجال السلك الدبلوماسي.
تحت أشعة الشمس الأفقية الكابية رأيت «بايل»، كان يحاول عبثًا
أن يدير محرك سيارته «البويك». لقد كنت طوال الأسبوعين الأخيرين
ألتقي دائمًا به «بايل» بشتى الطرق، في بار «الكوئنتال»، في المكتبة
الوحيدة الممتازة، وفي شارع كاتينات والصدافة التي فرضها عليّ
منذ البداية يحاول الآن جاهدًا أن يدعمها أكثر وأكثر. وكانت عيناه
تستفسران بصمت عن «فونج»، بينما شفتاه تفصحان - يا للهول -
من شدة حبه وإعجابه بي.

كانتمة قائد من فادة «الكاوديين» يقف إلى جانب العربية وينحدث

على عجل. توقف عندما ظهرت. تعرفت عليه، كان أحد ماعدم.
«نبي» قبل أن يلجأ إلى الجبال. قلت له:

- هالو سيادة الضابط، كيف حال الجنرال.

وسألني بتكشيرة خجولة:

- أي جنرال؟

- المؤكد أن كل الجنرالات على وفاق في نطاق العقيدة الكاودية.

قال «بايل»:

- إنني عاجز عن تحريك هذه السيارة يا «توماس».

- سألني بميكانيكي.

قالها الضابط وانصرف.

- هل قاطعت حديدكم؟

- لا، ليس ثمة شيء. أراد أن يعرف ثمن السيارة «البويك». إن

هؤلاء الناس يُبدون لك كثيرًا من الود إذا ما تعاملت معهم بطريقة

سليمة. يبدو أن الفرنسيين لا يعرفون كيف يتصرفون معهم.

- الفرنسيون لا يثقون بهم.

قال «بايل» بوقار:

- إن الناس يصبحون جديرين بالثقة، إذا ما وثقت أنت فيهم.

وبدت لي عبارته كأنها حكمة كاودية. وبدأت أحس أن جرتانيس

مضعم بالأخلاقيات التي يشق عليّ أن أُنسبها.

قال «بايل» بوقار:

- هل تناول كأسًا؟

- ليس ثمة ما هو أحب إلى نفسي من ذلك.

- أحضرت معي ترموس به عصير ليمون.
- وانحنى وشغل نفسه بـلعة موضوعه في الخلف.
- ألا يوجد معك أي صنف من شراب الجبن؟
- لا، آسف جدًا.
- ثم أضاف وكأنه يغريني:
- تعرف أن عصير الليمون يفيدك كثيرًا في هذا المناخ. فهو يحتوي على فيتامينات وإن كنت لا أعرف ما هي على وجه الدقة.
- ناولني كوبًا وشربته.
- إنه مرطب على أي حال.
- هل لك في شطيرة؟ إنها مفيدة جدًا، في الحقيقة، ثمة نوع جديد من الشطائر يُسمى «الصحة الجيدة» أرسلته إليّ أمي من الولايات المتحدة.
- لا، شكرًا. لست جوعان.
- إن مذاقها يشبه السلاطة الرومية، وإن كانت أجف منها.
- لا أظن أنني سأكل.
- أتمانع إن فعلت؟
- لا، لا، قطعًا.
- وقضم قضمة ملء فيه، وشرع يمضغ ويطقطق. وعلى البعد كان بطالعتا مثال بوذا من حجر أبيض ووردي مخلطًا وراءه وطن أجداده، ومثال آخر لتابعه وهو يقتفي أثره غدًا. كانت الكاردينالات الإناث يبرن على غير هدى في طريقهن عائذات إلى دارهن، وعين الرب ترفبتنا من أعلى باب الكاتدرائية.

قلت:

- هل تعرف إن كانوا يقدمون غداء هنا؟
- حسبت أنني لن أخطر بمثل هذا، عليك أن تحذر اللحوم من مثل هذا القبيظ.
- لا تخش شيئاً، إنهم نباتيون.
- حسن، بيد أنني أحب أن أعرف ما الذي آكله.
- وأخذ قسمة أخرى من شطيرة الصحة الجديدة.
- أنتظن أن لديهم ميكانيكيين يُعتمد عليهم؟
- إن لديهم الخبرة الكافية في أن يحولوا ماسورة العادم عندك إلى مدفع «هاون»، أعتقد أن سيارات «البويك» تُصنع منها أفضل مدافع «الهارن».
- عاد الضابط وحيانا بخفة ورشاقة وقال إنه أرسل في طلب ميكانيكي من الثكنات. وعرض عليه «بايل» شطيرة من شطائر الصحة الجديدة، ولكنه رفضها بأدب. قال، كأنه رجل يستوعب خبرة العالم أجمع، وهو يتحدث بلغة إنجليزية ممتازة:
- لنا قواعد كثيرة هنا بالنسبة للطعام، وهي قواعد سخيفة غاية السخف، بيد أنك تعرف قدرها في عاصمة دينية.
- واستطرد قائلاً بانحناء خفيفة رقيقة ومهذبة:
- أحسب أن هذا هو نفس الوضع في روما أو كاتربري.
- ثم لزم الصمت. كان كلاهما صامتاً. وخالجني إحساس قوي أن صحبتي لهما غير مرغوب فيها. ولم أقف على مقاومة إغراء رغبتني في إغاطة «بايل»، وذلك في نهاية الأمر سلاح الضعفاء.

« قد كنت ضعيفًا، لم أكن أملك الشباب ولا الجدية ولا الاستقامة
لا المستقبل، قلت:

« ربما يكون لي الحق في شظيرة في نهاية الأمر.

قال «بايل»:

« أوه، طبعًا طبعًا.

وصمت بهتة قبل أن يستدير إلى السلة الموضوعة خلفه.

قلت:

« لا، لا، كنت أمزح فقط، إنكما تريدان أن تختليا وحدكما.

قال «بايل»:

« لا شيء من هذا.

لقد كان من أكثر من عرفت من الكذابين قصورًا، ومن الواضح
أنه لم يمارس فن الكذب على الإطلاق.

وتحدث إلى الضابط قائلاً:

«توماس» أعز صديق لي هنا.

قال الضابط:

«إنني أعرف متر «فاولر».

وقلت لـ «بايل»:

« سأراك قبل أن أرحل يا «بايل».

وانصرفت بعيدًا عنهما قاصدًا الكاتدرائية، فهناك أستطيع أن أنعم
بعض البرودة.

«القدّيس فيكتور هوجو» في زي الأكاديمية الفرنسية، وهالة من

النور حول قبعته العثة تشير إلى مسونيات - سبن^(١) حساس وهو ينقش على أحد الألواح، ثم كنت داخل صحن الكنيسة. لم أجد أجلس عليه عدا الكرسي البابوي الذي تحيط به أفعى من نوع الكوبرا صنعت من الجبس وقد التفت حول نفسها. كانت الأرضية المصنوعة من الرخام تتلألأ حتى لتحيتها ماء، والنوافذ بلا زجاج، وفكرت أننا نصنع قفصاً للهواء به فتحات، والإنسان يصنع على نفس النهج قفصاً لعقيدته الوثنية، يترك فيه أبواب الشك معنوعة للطفس وشرائه مضوحة لتأويلات لا حصر لها. لقد عثرت زوجتي على قفصها من الفتحات وكم من مرة حصدتها على ذلك، إن ثمة صراغاً بين الشمس والهواء، عشت أكثر حياتي تحت الشمس.

سرت داخل صحن الكنيسة الخالي الطويل، لم تكن هذه هي الهند الصينية التي أحببتها. الثنائين برؤوس كرفوس الأسود تتساق المعراب، وعلى السقف يعرض المسيح قلبه الدامي. جالس برذا كذا اعتاد أن يجلس دائماً بجحره الخاوي. تدلت لحية كونيقيوس في هزال كأنها شلال مياه في فصل الجفاف. إنها مشاهد مسرحية، الكره الأرضية الكبيرة التي تعلو المذبح مطمع، والسلة ذات الغطاء المتحرك التي يخرج منها البابا نبوءاته خداع. ترى لو أن هذه الكاتدرائية كانت موجودة منذ خمسة قرون بدلاً من عشرين عامًا، أكان من الممكن أن تجمع حولها أي ضرب من ضروب الاقتناع مع ما يلحق بها من خدوش من أثر وقع الأقدام وعوامل التعرية الجوية؟ أكان من

(١) قائد سياسي وجسوف وأول رئيس لجمهورية الصين الشعبية. (الناشر).

الاممكن لأي إنسان يقبل الاقتناع مثل زوجتي أن تلتبس هنا الإيمان الذي تفقده لدى البشر؟ ترى لو أنني كنت أشد الإيمان حقيقة أكنت أعدد في كنيسة النورماندية الطراز؟ بيد أنني لم أبتغ الإيمان أبدًا. إن وظيفة المخبر الصحفي هي أن يكشف ويسجل. أنا لم أكتشف طوال حياتي ما لا تفسير له. البابا يكتب نبوءاته بقلم رصاص ذي خطأ والناس يصدقونه. وتستطيع أن تعثر على لوح التنبؤ في أي رؤيا حرافة في هذا المكان أو ذاك. أما سجل ذكرياتي فإنه خاو تمامًا من كل رؤى خرافة أو معجزات.

واستعرضت ذكرياتي بطريقة عشوائية كأنما أستعرض صورًا في لوم، ثعلب كنت قد رأيته على ضوء وهج نيران العدو فوق قرية أورينجتون ينسل خفية بجانب حظيرة للدواجن، خارجًا من مكانه الخمري في مكان يقع عند الحدود. جثة رجل من سكان الملايو مطعونًا بسونكي أتى بها حارس دورية من رجال الجورخا على ظهر لوري إلى معسكر لحفر المناجم في فانج، وقد وقف الفعلة الصينيون يقهقهون متوترين، بينما أخ له من أبناء الملايو يضع وسادة تحت رأس الميت. حمامة على طرف عشها توازن نفسها تأهبًا للطيران داخل حجرة نوم في فندق. وجه زوجتي بعد أن عدت إلى وطني لأحييها تحية الوداع الأخيرة. لقد بدأت أفكاري معها وانتهت بها. لا بد أنها تلقت رسالتي منذ أكثر من أسبوع مضى، ولم تصلني منها بعد البرقية التي لم أتوقعها. بيد أن المثل يقول إذا ما غاب المحلف لفترة طويلة فثمة أمل للسجين. ترى لو لم تصلني رسالة لأسبوع آخر لتي أن أظن على أجلي؟ أسمع من حولي سيارات الجنود ورجال

السلك الدبلوماسي تدب فيها الحياة من جديد، ها قد انتهى العمل
في انتظار عام آخر. لقد بدأ الناس يهرولون عائدين إلى سابجون،
وحظر التجول يقترب. خرجت لأبحث عن «بابل».

كان يقف في مكان ظليل مع الضابط، ولم يكن ثمة من يجرد.
إصلاحًا في سيارته. وبدأ لي أن المحادثة على وشك الانتهاء بغض
النظر عن موضوعها، وها هما يقفان هناك صامتين تشدهما مظلم
أدب متبادلة. انضمت إليهما.

قلت:

- حسن. أظن أنني سأصرف. خير لك أن تنصرف أيضًا إذا شئت.

الوصول قبل حظر التجول.

- لم يأت الميكانيكي بعد.

قال الضابط:

- سيأتي حاليًا، لقد كان في الاستعراض.

قلت له:

- لك أن تقضي ليلتك هنا، ثمة فنداس خاص سنجد فيه تجرته

جيدة. إنه يستغرق ثلاث ساعات.

- ينبغي عليّ أن أعود.

- لن تعود ما لم تتحرك الآن.

وأردفت قائلاً عن غير قصد:

- أستطيع أن أصحبك معي إن كان هذا يروقك، ويرسل الضابط

غداً سيارتك إلى سابجون.

قال الضابط بخيلاء:

- ليس لك أن تنزعج من حظر التجول في أرض «الكاودين»، أما بعدها... فمن المؤكد أنني سأبعث بسبارتك غداً.
وقلت له:

- على أن تكون مواسير العادم سليمة.
وابتسم ابتسامة مضيئة نقية، صغيرة، ومقتضبة على الطريقة العسكرية.

(٢)

«ات سيارات المركب قد سبقتا بمسافة طويلة وقت أن بدأنا نتحرك.
زدت من سرعتي محاولاً أن ألحق بها. بيد أننا خرجنا من منطقة
«الكاودين» إلى منطقة أنصار «هوا هاو» دون أن تصادفنا عن بُعد
عن سحابة تراب. كان العالم مع المساء أرضاً متبسطة قفراً.
لم تكن من نوع البلدان التي تذكرنا بالكمانين، بيد أن الناس
يستطيعون أن يخفوا أنفسهم في الحقول الغارقة بالمياه إلى ما دون
الرقاب على بعد يضع برادات من الطريق. نتحنج «بايل» وكانت
هذه علامة ود قريب. قال:

- أرجو أن تكون «فونج» على خير حال.
- لم أعرفها مريضة يوماً.
واختفى وراءنا أحد أبراج المراقبة وظهر آخر، كأنها أُنْقَال في
كفني ميزان. قال:

- رأيت أختها بالأمس، وهي تشتري بعض البضائع.

- أظنها طلبت منك زيارتها.

- نعم.

- إنها لا تفقد الأمل بسهولة.

- أمل؟

- في أن تزوجك أختها.

- أخبرتني أنك ستغادر البلاد.

- هذه إشاعات رائجة.

- هل ستكون جاداً معي يا «توماس»؟ ألن تكون كذلك؟

- جاداً؟

- لقد طلبت نقلي وأنا لا أريد أن أتركها من دون أحدنا.

- حيثك سترحل بحثاً عن فرصتك في الخارج.

- فقال من دون أن يشفق على نفسه:

- تبنت أنني لا أحتمل هذا.

- متى سترحل؟

- لمست أدري، في ظنهم أن الترتيبات قد تتم خلال ستة أشهر.

- هل تقوى على الاحتمال طوال الستة أشهر؟

- وماذا عساي أفعل غير ذلك؟

- ما الأسباب التي قد منها؟

- لقد أخبرت الملمح الاقتصادي، الذي سبق لك أن رأيته، اجو،

بالحقيقة بشكل أو آخر.

- أظن أنه يلومني لأنني لم أسمع لك بأخذ فتاتي.

- أو لا، بل الأصح أنه انحاز إليك.

كانت السيارة تفرقع وتعلو وتهبط، ويبدو أنها بدأت هذه الفرقة منذ فترة قبل أن أتنبه إليها، ذلك لأنني كنت أتحقق سؤال «بايل» البريء: «هل ستكون جاداً؟»، إنه يسمي إلى عالم نفسي يتسم بالبساطة الشديدة. حيث تحدث عن الديمقراطية وعن كلمة «Honor» من دون حرف «ب» كما كتبت على شواهد القبور القديمة، بيد أنك عنت ما كان يعنيه أبوك بهاتين الكلمتين نفسيهما. قلت:

- فرغ الخزان.

- الوقود؟

- كان بها الكثير. ملأته الخزان عن آخره قبل أن أتحرك ولكن أولاد الحرام في نانين سرقوه. كان عليّ أن أتنبه إلى ذلك، لم يتركوا إلا ما يكفي للخروج من منطقتهم.

- ماذا سنفعل؟

- نستطيع أن نواصل السير حتى نصل إلى برج المراقبة التالي، علنا نجد لديهم ولو قدرًا ضئيلاً.

بيد أن الحظ لم يكن حليفاً لنا، فقد وصلت السيارة على بعد ثلاثين ياردة من البرج وتوقفت تماماً. سرنا على أقدامنا حتى أسفل البرج وناديت على الحراس بالفرنسية قائلًا لهم إننا أصدقاء عائدون، فلم تكن لي رغبة في أن يصرعني حارس فيتنامي. ولكن ما من مجيب وما من أحد يطل علينا. قلت له «بايل»:

- هل معك بندقية؟

- أنا لا أحملها أبداً.

- ولا أنا.

كانت ألوان أشعة الشمس الغارية تشبه الأرض في لونه الأخضر،
والذهبي، وقد بدأت تختفي رويدًا رويدًا وراء حافة العالم المنبسط،
ويدأ برج المراقبة كأنه بصمة سوداء على صفحة السماء الرمادية
الصفافية، لا بد أننا اقتربنا من موعد حظر التجول. صحت ثانية دون
مجيء.

- هل تعرف عدد الأبراج التي مررنا عليها بعد آخر قلعة؟

- لم أنتبه إلى ذلك.

- ولا أنا.

ربما لا زالت أمامنا ستة كيلومترات على الأقل إلى القلعة الثانية،
أي ساعة سيرًا على الأقدام. ناديت للمرة الثالثة. وردد الصمت نفسه
كأنه الإجابة. قلت:

- يبدو أنه خاو، الأفضل أن أتلق وأرى.

ثمة راية صفراء بها خطوط حمراء بهت لونها واستحال إلى لون
برتقالي. وتشير هذه الراية إلى أننا أصبحنا خارج المنطقة التي يسيطر
عليها أنصار «هوا هاو»، وأنا أصبحنا داخل المنطقة التي يسيطر عليها
الجيش الفيتنامي. قال «بايل»:

- ألا تظن أننا لو انتظرنا هنا فقد تمررنا بسيارة؟

- ربما، ولكنهم قد يأتون أولًا.

- هل أعود إلى السيارة وأضيء أنوارها كإشارة.

- يا إلهي، لا، دعها كما هي.

ساد الظلام الآن بحيث إنني كنت أتعثر أثناء بحثي عن مكان

السلام، وطقطق شيء تحت قدمي، وتخليلت أن الصوت ينتقل عبر
مفول الأرض. ولكن من ذا الذي عساه يسمعه؟ ضاعت ملامح «بايل»
أصبح أشبه بقعة على جانب الطريق. إن الظلام حين يهبط يسقط
كحجر. وقلت: «انتظر هناك حتى أناذك». وتساءلت إن كان الحارس
قد جذب السلام معه. ولكن ما هو السلام، وعلى الرغم من أن العدو
قد يتسلقه فإنه وسيلتهم الوحيدة للهروب. بدأت الصعود.

سبق لي أن قرأت كثيرًا عن الأفكار التي تراود الناس لحظة
«خوف»: أفكارهم عن الحرب أو الأسيرة أو المرأة، وإني لأعجب
بمقدرتهم. أما أنا فلم أفكر في شيء ولا حتى في ذلك الباب السحري
الذي بعلوني. وتوقفت عن الحياة طيلة تلك الثواني، كنت فريسة
سهلة للخوف. واصطدم رأسي عند قمة السلم، فالخوف عاجز عن
أن يعد الدروج أو أن يسمع أو يرى. ثم ارتفع رأسي فوق أرضية البرج
ولم يطلق أحد النار عليّ وفارقني الخوف.

(٢)

وجدت فوق الأرضية مصباحًا زيتيًا مشتعلًا، ورجلين رابضين
بجوار الحائط يرقباني. أمسك أحدهما برشاش «ستين» والآخر
ببنقية، بيد أنهما كانا فزعين مثلما كنت، وكانا يدوان كتلميذين
بيد أن العمر عند الفيتاميين يغرب فجأة كالشمس. إنهما صبيان
وهما كذلك شيخان، وسررت لأن لون بشرتي وشكل عيني كانا

بمثابة جواز مرور، ومن ثم فإنهما لن يطلقا الرصاص عليّ إلا.
ولا حتى بدافع الخوف.

صعدت الدرج لأصبح فوق الأرضية، متحدثًا إليهما لأطمئنهما،
قائلًا إن سيارتي بالخارج وقد نفذ ما فيها من وقود. ربما كان معهما
بعضه فأنشريه، ولم يبدُ ذلك بينما كنت أنظر حولي متفحصًا. لم يكر
ثمة شيء، في هذه الحجرة الصغيرة المستديرة سوى صندوق ذخيره
لـ«النتين» وسرير خشبي صغير ولفافتين معلقتين على مسامير
ووجدت إناءين بهما بقايا أرز وبعض الملاءق الخشبية. وعرف
أنهما كانا يأكلان بغير شهية كبيرة.
سألت:

- كمية تكفينا للوصول حتى القلعة التالية؟

هز أحد الرجلين القابعين بجوار الحائط رأسه، وهو الرجل الذي
يحمل البندقية.

- إذا لم يكن ميسورًا لكما فإننا منضطر إلى أن نقضي ليلتنا هنا
فأجاب بالفرنسية:

- ممنوع.

- بأمر من؟

- إنك مدني.

- ليس هناك من يرغبني على الجلوس في الخارج على قارعة
الطريق حتى تقطع رقبتني.

- هل أنت فرنسي؟

كان المتكلم واحدًا فقط. أما الآخر فقد جلس برأسه متجهًا ناحي

امرئ يرقب فتحة في الجدار، إنه لم يستطع أن يرى شيئاً سوى صفحة اسماء، وبدا لي أنه ينصت لشيء وبدأت أنصت أيضاً. وبدأ صوت ملا الصمت جلبة لا تعرف لها اسماً. صلصلة، صرير، حفيف، شيء شبه السعال، صوت هامس. وسمعت «بابل»، لا بد أنه اقترب من أسفل السلم.

- هل أنت بخير يا «توماس»؟

ناديته:

- اطلع.

بدأ يصعد السلم. وحرك الجندي الصامت رشاشه «الستين»، لا اعتقد أنه سمع كلمة واحدة مما قلناه. لقد كانت حركة جبانة نزفة. تحققت من أن الخوف قد أصابه بشلل فصرخت فيه كأنني رقيب أول: - ضع سلاحك إلى جانبك.

واستخدمت الأسلوب الفرنسي البذيء الذي حبت أنه سيعرفه، مرضخ لي تلقائياً. صعد «بابل» إلى الغرفة. قلت له:

- لقد عرضوا علينا الأمان في البرج إلى أن يطلع الصباح.

قال «بابل»:

- جميل.

كان صوته ينم عن قليل من الحيرة. ثم قال:

- أما كان ينبغي لواحد من هذين الأحمقين أن يكون يقظاً في حراسته؟

- إنهما يؤثران ألا يطلق أحد عليهما الرصاص، وددت لو أنك أحضرت معك مشروباً أقوى من عصير الليمون.

- أظن أنني سأحضر مثل هذا المشروب في المرة القادمة.

- أمامنا ليلة طويلة.

الآن وبعد أن أصبح معي «بابل» لم أعد أسمع الضوضاء، بل إذ الجنديين بدوا لي وكأنهما استرخيا قليلاً. سألتني «بابل»:

- ماذا يحدث لو أن الفيتامين هاجموهما؟

- سيطلقان رصاصة ثم يفران، وتقرأ عن هذا كل صباح في صحيف «الشرق الأقصى»: «احتل «الفيتمين» ليلة أمس، مؤقتاً، مرفأ جنوب غرب سايجون».

- إنه لمنظر سيئ.

- ثمة أربعون برتجا مثل هذا بيننا وبين سايجون، والاحتمال دائماً أن الآخر هو من سيُصاب.

- ليتنا أكلنا الشطائر، أظن أنه ينبغي على أحدهما أن يظل إلى الخارج.

- إنه يخشى أن تظل قذيفة إلى الداخل.

بعد أن استقر بنا المقام على أرضية البرج استرخى الفيتناميون قليلاً. أحسست ببعض التعاطف معهما. إنها ليست مهمة سهلة لاثنيين من الرجال لم يحسن تدريبهما أن يقضيا الليلة نلوا الأخرى هنا، يقظتين وهما لا يعرفان أبداً متى سترحف قوات «الفيتمين» إلى الطريق عبر حقول الأرز. وقلت لـ «بابل»:

- أنتظن أنهما يعرفان أنهما يحاربان من أجل الديمقراطية
ما أحوجنا إلى «يورك هاردنج» ليأتي ويشرح لهما ذلك.
- إنك دائم السخرية من «يورك».

- أنا أسخر دائمًا من أي إنسان يقضي معظم وقته في كتابة صور ذهنية محضة عن شيء لا وجود له.

- إنها موجودة بالنسبة له، ألم تكن لك مفاهيم ذهنية؟ «الله» على سبيل المثال.

- ليس عندي ما يبرر الإيمان بالله، هل لديك أنت ما يبرر ذلك؟
- نعم، إنني من الموحدين.

- كم من مئات الملايين من الآلهة يؤمن بها البشر؟ حتى الكاثوليك الروماني نفسه يؤمن بإله جد مختلف حين يكون فرعًا أو سعيّدًا أو جانعًا.

- قد يكون هذا صحيحًا، فلو كان ثمة إله فإنه سيكون هائلًا بحيث يبدو على صور مختلفة بالنسبة لكل إنسان.

- مثل بوذا العظيم في بانكوك، إنك لا نستطيع أن تحيط به بنظرة واحدة. وعلى أي حال فإنه يظل ساكنًا.

- أحسب أنك تحاول فقط أن تكون عنيّدًا، فلا بد أن ثمة ما تؤمن به، فليس ثمة إنسان يستطيع أن يحيا بغير عقيدة يؤمن بها أيًا كانت.

- أوه، لست من أتباع «باركلي»، أنا أؤمن بأنني أسند ظهري إلى هذا الجدار. وأؤمن بأن هناك «ستين».

- ليس هذا ما أعنيه.

- بل إنني أؤمن بما أسجله في تفاريري وهو شيء لا يفعله أكثر مراسليكم.

- هل تريد سيجارة؟

- أنا لا أدخن، فيما عدا الأفيون. أعطِ واحدة للحارسين. »
 الأفضل أن نظل أصدقاء لهما.
- نهض «بايل» وأشعل لهما سيجارتيهما ثم عاد. قلت له:
 - أود لو أن للسجائر دلالة رمزية مثل الملح.
 - ألا تثق فيهما؟
- إن أي ضابط فرنسي لن يحرص على أن يقضي ليلته مع حارسين فرعين في أحد هذه الأبراج. لماذا؟ لأن المعروف أن حقة من الجنود سلموا ضباطهم. لقد استفاد قوات «الفيتمه» أن تحقق نجاحاً كبيراً بمكبرات الصوت أن مما سجلته من نجاح بمدافع «البازوكا». أنا لا ألوهم، هم لا يؤمنون بغير هذا. أما أنت وأمثالك فتحاولون إشعال الحرائق عن طريق شعوب لا مصلحة لها فيها.
- إنهم لا يريدون الشيوعية.
- إنهم يريدون كفايتهم من الأرز، ولا يريدون أن يطلق عليهم الرصاص. إنهم يأملون في يوم يكونون فيه مثل غيرهم. إنهم لا يريدون أن يجلبوا أنفسهم محاطين ببشرتنا البيضاء لنفوسهم ما الذي يريدونه هم.
- لو ضاعبت الهند الصينية...
- أعرف هذه الأسطوانة. ستضيع معها سيام. وستضيع الملاحة وستضيع إندونيسيا. ماذا تعني كلمة «تضيع» هذه؟ لو أنني أومأ بالهك وبالحياة الأخرى لراحتك بقيارتي في الحياة الأخرى. مقابل تاجك الذهبي على أنه في خلال خمسمائة عام قد لا

تكون هناك نيويورك أو لندن، أما هم فيظلون يزرعون الأرز في هذه الحقول ويحملون إنتاجهم إلى السوق على عوارض خشبية طويلة وفوق رؤوسهم قبعاتهم المخروطية. سيمتطي الصبية الصغار ظهور الجاموس. وأنا أحب الجاموس لأنها لا تحب رائحتنا، رائحة الأوروبيين. ونذكر أنك أوروبي أيضًا من وجهة نظر الجاموسة.

- سيكرهون على الإيمان بما يلقي عليهم، لن يتركوا وشأنهم يفكرون لأنفسهم.

- الفكر نوع من الثرف، هل تظن أن الفلاح يجلس على الأرض ليفكر في الله والديمقراطية حين يذئف أثناء الليل إلى كوخه المحبي من العطين؟

- إنك تتحدث كأن كل سكان البلد من الفلاحين. ماذا عن المثقفين؟ هل سيكونون سعداء بذلك؟

- أوه، لا، لقد نشأناهم على أفكارنا نحن. علمناهم ألا عيب خطيرة. وهذا هو سبب انظارنا هنا آملين ألا تقطع رقابتنا. إننا نستحق قطعها. وأود أن يكون معنا هنا أيضًا صديقك «يورك هاردنج». ترى كيف سيتلذذ بهذا.

- «يورك هاردنج» رجل شجاع للغاية، فني كوربا...

- إنه لم يكن مجندًا. أكان كذلك؟ لقد كان يحتفظ بذاكرة العودة. ومع تذكرة العودة تصبح الشجاعة تجربة فكرية، كجلد الراهب نفسه. أما هؤلاء الشياطين التواء فإنهم لا يستطيعون أن يلحقوا بطائرة تعود بهم إلى وطنهم.

ناديت على المحارسين قائلاً:

ـ هاي، ما اسماكما؟

ظننت أن معرفتنا باسميهما قد تكون بشكل ما دعوة لبحر
داخل دائرة حديثنا. إلا إنهما لم يجيبا. وانحيا فقط ناحيتنا شاه
رماد سجاثرهما. قلت:

ـ إنهما يظنان أننا فرنسيان.

ـ بالضبط، حري بك ألا تعادي «يورك»، وإنعا تعادي الفرنسيين.
تعادي اتجاعهم الاستعماري.

ـ مذهب وأنظمة. أعطني وقائع. صاحب مزارع المطاط يضرب
عامله، وأنا فعلاً مُعَادٍ له. إنه لم يأمره وزير المستعمرات بعد
ذلك. أتوقع أنه يضرب زوجته في فرنسا. حدث أن رأيت ق.
فقيراً اقترأ مدققاً حتى إنه لا يملك إلا بنطلوناً واحداً، كان بعد
خمس عشرة ساعة في اليوم يتنقل من كوخ إلى كوخ أيام و.
الكوليرا. لا يطعم شيئاً سوى الأرز والسمك والملح، يرا
قدامه ومعه كوب قديم، وعاء خشبي. أنا لا أؤمن بالله لكن
مع هذا القسيس. لماذا لا تسمى هذا «استعماراً»؟

ـ إنه استعمار. يقول «يورك» إن الإداريين الطيبين هم غالباً
صعوبة تغيير النظام السيئ.

ـ على أي حال فلن الفرنسيين يموتون كل يوم، وليس هذا
ذهنياً. إنهم لا يقدرون هذا الشعب بنصف أكذوبة مثلما بعد
ساستكم وساستنا. كنت في الهند يا «بايل»، وأعرف المساء
التي يقدم عليها الليبراليون. لم يعد عندنا الآن حزب ليبرالي.

فقد سرت عدوى الليبرالية إلى كل الأحزاب الأخرى. وأصبحنا جميعًا إما محافظون ليبراليون أو اشتراكيون ليبراليون، ولنا جميعًا ضمير خير. أوثر أن أكون مستغلًا يحارب ويموت دفاعًا عما يستغله. ألقي نظرة على تاريخ بورما. لقد ذهبنا وغزونا البلد، وساندتنا القبائل، وانتصرنا. ولم نكون في تلك الأيام دعاة استعمار تمامًا كما أنتم أيها الأمريكيون، لا، بل لقد عقدنا سلامًا مع الملك وأعدنا إليه مقاطعته، وتركنا حلفاءنا لبصليوا أو يقطعوا نصفين. لقد كانوا أبرياء فظنوا أننا سنبقى. بيد أننا كنا ليبراليين. ولم نشأ أن تكون لنا نوايا شريرة.

- كان هذا منذ زمن طويل.

- إننا سنفعل نفس الشيء هنا، نشجعهم ثم نتركهم بقليل من المعدات وصناعة هزيلة.

- صناعة هزيلة؟

- بضاعتك من البلاستيك.

- أوه نعم، فهمت.

- لست أدري لماذا أتحدث في السياسة فهي لا تعنيني، وأنا مجرد مخبر صحفي. ولست متورطًا.

- ألنت كذلك؟

- هذا كان على سبيل المحاجة لتمر ليلتنا اللعينة، هذا كل ما في الأمر. أنا لا أنحاز لأي جانب. سأظل دائمًا أخيرًا أيًا كان الجانب الفائز.

- وإذا فازوا فإنك ستخبر بأكاذيب.

- يوجد عادة طريق ملتوي، وأنا على العموم لم ألحظ اهتماماً ..
بالحقيقة في أي من صحفنا.

اعتقد أن جلوسنا هنا وحديثنا معاً كان مشجعاً للجنديين. ربما رأها.
جرس أصواتنا البيضاء.. ذلك لأن الأصوات لها لون أيضاً، فتحة أصدا،
صفراء نفثي، وأصوات سوداء تزمجر، أما أصواتنا فهي تتكلم فقط ..
يعطي إحساساً بوجود أعداد كبيرة، مما يبعد قوات «القيمتة». والعمامة
طبقيهما، وشرعاً يأكلان من جديد، ويحتكان بملاعقهما الخشنة ..
وعيونهما ترقب «بابل» كما ترقبني من فوق حافة الطبق.

- معنى هذا أنك ترى أننا نخسرنا؟

- ليس هذا هو بيت القصيدة، فأنا لا يعنيني أساساً أن أراك متصلاً،
وإنما أريد أن أرى هذين التعيسين اللذين يعيشان حياة الحيوان.
وقد ظننتهما السعادة. هذا كل ما في الأمر. لا أريد لهما أن يُكره ..
على الجلوس في ظلام الليل وقد استبد بهما الهلع.

- عليك أن تكافح من أجل الحرية.

- أنا لم أر أي أمريكي يكافح هنا، أما عن الحرية فلمست أدم ..
لها معنى، سلهما.

ورفعت صوتي ليمتد عبر الأرضية، وسألتهما بالفرنسية: «الحرب ..
ما الحرية؟»، وازدردا الأرض، وبادلانا التحديق ولم ينسا بينت شعرة
قال «بابل»:

- أتريد أن يكون البشر من نعط واحد؟ إنك تعادل من أ-
الجدل. أنت مثقف. إنك تدافع عن أهمية الفرد وكيانه بقدر ..
أدافع أنا أو «بورك».

لماذا لم نكتشف الحرية إلا حديثاً؟ منذ أربعين عاماً خلت لم تكن موضوع حديث لأي إنسان على هذا النحو.
لم يكن ثمة ما يتهددها آنذاك.

حريتنا نحن هي التي لم تكن مهددة، أوه لا، ولكن من ذا الذي كان يحرص على فردية الإنسان الذي كان يعيش في حقول الأرز ومن الذي بفعل ذلك الآن؟ المسؤول السياسي هو الرجل الوحيد الذي يعامله كإنسان. هو الذي يجلس معه في كوخه، ويسأله عن اسمه، وينصت إلى شكواه، ويقضي ساعة من نهاره كل يوم لتعليمه. لا يعني ما الذي يتعلمه، وإنما يكفي أنه يعامله كإنسان، كشخص له قيمته. لا تواصل عملك في الشرق بصيحة البيغاء هذه عن تهديد الروح الفردية، فهنا ستجد نفسك واقفاً إلى جانب الخطأ. إنهم هم الذين يدافعون عن الفرد، أما نحن فإننا ندافع فقط عن المجندي رقم ٢٣٩٨٧، وحدة في الاستراتيجية العالمية.

قال «بابل» بضجر:

أنت لا تعني نصف ما نقول.
ربما ثلاثة أرباع ما أقول، فقد كنت هنا منذ زمن طويل. ومن حسن الحظ أنني كما تعرف غير ملتزم. وإلا لأغريت على القيام بعمل مائة لأن هنا في الشرق، حسن إنني لا أحب «أيزنهاور». إنني أحب هذين الاثنين. فهذه هي بلدهما. كم الساعة الآن؟
ساعتني توقفت.
الثامنة والنصف.

- عشر ساعات ثم نستطيع التحرك.

قال «بابل» وهو يرتعد:

- سيصبح الجو قارس البرودة، لم أكن أتوقع ذلك.

- توجد مياه كثيرة حولنا، لقد أتيت معي ببطانية موجودة في
العربة، إنها تكفي.

- هل الطريق آمن؟

- ما زال الوقت مبكرًا بالنسبة لـ «الفيثنه».

- سأذهب.

- لقد اعتدت على الظلام أكثر منك.

عندما نهضت توقف الجنديان عن الأكل. قلت لهما بالفرنسية:
- إنني عائد حاليًا.

وأدليت بساقي خارج الباب السحري وتحسنت المسلم حم
وجدته ثم نزلت. إنه لأمر غريب أن تعيد لنا المناقشة الثقة في أمرنا.
خصوصًا بالنسبة للموضوعات المجردة. إذ يبدو أننا نعيش أغرب
الملاسات بمقاييس ثابتة. كان الخوف قد زایلني تمامًا. وهبًا لي أمر.
تركزت حجرة عادية سأعود إليها ثانية لأواصل النقاش من جديد، وأ
برج المراقبة هو شارع كاتينات و«الماجستيك» بل إنه حجرة متراصة
في ميدان جوردون.

توقفت دقيقة أسفل البرج أسرح الطرف فيما ورائي. طالعني ضوء
النجوم وغاب ضوء القمر. إن ضوء القمر يذكرني بثلاجات المبردة
والشعاع الواهن لمصباح كهربائي بغير غطاء يعلو لوحًا من الرصاص
أما ضوء النجوم ففيه حيوية وحركة لا نهدا أبدًا. إنه يبدو لي واداد.

١. شخصاً في الغضاء المحبب يحاول أن يبلغك رسالة خيرة. ذلك
 أسماء النجوم ذاتها أسماء أليفة. «فينوس» [الزهرة] هي أي امرأة
 شفهيا. والديان الأصغر والأكبر هما الديان اللذان ألقناهما في ميعة
 طفولة. وأحسب أن كوكبة صليب الجنوب تعثل بالنسبة إلى هؤلاء
 ٢. هم على شاكلة زوجتي ترنيمة محبة أو صلاة بجانب الغراش.
 ٣. انتهي رعدة خاطعة مثل تلك التي أملت بـ«هابيل»، بيد أن الليل كان
 ٤. الأول أن هذا الشريط الضحل من الماء الممتد على الجانبين كان
 ٥. وهذا المدفء قليلاً. نظرت نحو السيارة، وخطر لي للحظة سريعة
 ٦. واقف على قارعة الطريق أنها ليست في مكانها، واهتزت نكتي
 ٧. المك، حتى بعد أن تذكرت أننا نوقفنا عن السير على مبعده ثلاثين
 ٨. ادة. ولم أحتمل السير إلا وقد حنيت كتنفي، إذ أحسست أنني أوهي
 مربعة وأنا على هذه الصورة.

اضطورت إلى أن أفتح حقيبة العربة لأني بالبطانية، لكن صوت
 الفعل والصرير وسط السكون أفرعاني. لم أستطيع أن أكون مشار
 الموضوع الوحيدة بينما كان يجب أن يكون ليلاً هادئاً تماماً يسكن
 إليه الناس. ووضعت البطانية حول كتنفي. وكنت أكثر حذراً وأنا
 أحفض غطاء الحقيبة مما كنت عليه وأنا أرفعه. ما إن أغلقت حتى
 ٩. في وهج شديد في السماء ناحية سايجون. ودعدم صوت انفجار
 ١٠. اب على طول الطريق. وإذا برشاش «برن» تتابع زخاته الحرة بعد
 ١١. الأخرى، ثم صمت قبل أن يتوقف هدير الانفجار. فكرت: «لا بد
 ١٢. أن أحدهم تلقاها». وتناهت إليّ عن بعد شديد صيحات قد تكون
 صيحات ألم أو خوف بل وربما كانت صيحات انتصار. ولست أدري

لماذا تملكتني فكرة واحدة، وهي أنه ثمة هجوم آتٍ من الخلف على طول الطريق الذي اجتزنناه. وانتابني للمحظة إحساس غامض بأن قوات «الفيتمنة» قد تكون في المقدمة وسط الطريق بينما وبيننا سايجون. وبدأ لي وكأننا سرنا لاشعوريًا ناحية الخطر بدلًا من أن نبعد عنه تمامًا مثلما كنت أسير آنذاك متخذًا وجهتي ناحية عائدًا إلى البرج، كنت أسير لأن السير أقل وضوءًا من المجري بينما كان جسمي يريد أن يجري.

وقفت أسفل السلم وناديت على «بايل»: «إنه أنا، «فاولر»». (لم أستطع حتى في هذه اللحظة أن أروض نفسي على استخدام اسمي الأول في حديثي معه)، كان المنظر داخل البرج قد تغير تمامًا. أوعية الأرض دفع بها إلى الخلف على أرضية البرج. وأمسك أحد الحارسين ببندقية، واتخذ وضع الارتكاز، وأسند ظهره إلى الجدار وهو يحدج «بايل» بنظرة. وكان «بايل» جاثيًا على ركبتيه، وقد ابتعد قليلًا عن الجدار المقابل، وعيناه مثبتتان على رشاش «الستين» الذي يرقد على الأرض بينه وبين الحارس الثاني. وبدأ كأنه شرع في الزحف ناحيته ثم تردد. وكانت ذراع الحارس الآخر ممدودة ناحية الرشاش. لم يبد على أيٍّ منهما أنه قاتل أو هدد بالقتال. وبدأ عليهما أنهما يلعبان لعبة الأطفال التي يتعين فيها على الطفل أن يخفي حركته، وإلا اضطر أن يبدأ لعبته من جديد. وقلت:

— ما هذا الذي يحدث؟

نظر إليّ الحارسان، وانقض «بايل» على «الستين» وحذبه ناحية من الحجرة.

سألت:

- أهى لعبة تلعبونها؟

قال «بايل»:

- لا أثق في قدرته على استخدام السلاح لو أتوا إلينا.

- هل استخدمته من قبل؟

- لا.

- هذا جميل. ولا أنا. إنني سعيد بأنه محشو، وإن كنا لا نعرف

كيف نحشوه ثانية.

استسلم الحارسان في هدوء لفقد السلاح. وخفض أحدهما

البندقية ووضعها بين فخذه. وتكوم الثاني على نفسه وقبح إلى

حانب الجدار وأغمض عينه كطفل يظن أنه بذلك يخفي نفسه عن

الأنظار وسط الظلام. ربما كان سعيداً لأن المسؤولية قد انزاحت عن

فأله. وانطلق البرق ثانية في مكان ما على بعد، ثلاثة انفجارات بعدها

سكون. وشد الحارس الثاني جفونه ليغمض عينه بقوة.

قال «بايل»:

- إنهما لا يعرفان أننا لا نقدر على استخدام السلاح.

- المفروض أنهما يقفان إلى جانبنا.

- ظننت أنه لم يكن لك جانب معين.

- أنا على البر. وددت لو عرفت قوات «القيتسه» ذلك.

- ما الذي يحدث هناك في الخارج؟

واستشهدت له ثانية بالعجالة العالوفة التي ستشرها في الغد

صحيفة «الشرق الأقصى»: «وقع بالأمس هجوم على أحد مواقع

الحراسة على بعد خمسين كيلومتراً من سايجون. واحتله لبعده
الوقت رجال عصابات «الفيتمه».

- أنتظن أن الحقول أكثر أمناً؟

- إنها مبتلة لدرجة رهيبه.

- لا يبدو عليك الانزعاج.

- خائف لدرجة التجمد، لكن الأمور تجري عادة على نحو أفضل.

مما يتوقع لها. إنهم عادة لا يهاجمون أكثر من ثلاثة مواقع في

الليلة الواحدة. لقد زادت فرص النجاة لنا.

- ما هذا؟

كان صوت سيارة ثقيلة آتية على الطريق في اتجاه سايجون وما

إن قصدت إلى الفتحة لألقي نظرة على الطريق حتى رأيت دبابة ته،

بجوارنا.

قلت.

- دورية الحراسة.

كان مدفع الدبابة يتحرك في برجه حيناً إلى هذا الجانب وحيناً

إلى ذاك. وأردت أن أنادي عليهم، لكن ما الفائدة؟ فليس لديهم على

ظهر الدبابة مكان لائمين من المدنيين لا جدوى منهما. واهتزت

الأرض قليلاً أثناء مرورهم ثم ابتعدوا ونظرت إلى ساعتى، كانت

تشير إلى الثامنة وإحدى وخمسين دقيقة. وانتظرت، وأنا أبذل جهدي

مضياً لأقرأ أرقام الساعة مع ومضة الضوء. كنت كمن يُقدر المساء

على أساس الفارق الزمني بين ضوء البرق وصوت الرعد. مضت

أربع دقائق على نحو التقريب قبل أن يفتح المدفع نيرانه، وخُبل

أني على القور أنني نيت ردًا من مدفع «بازوكا» ثم ساد السكون
أبام مرة أخرى.

قال «بايل»:

- عندما يعودون ثانية سنلوح لهم ليصبحونا معهم إني أتمسكهم.
ودوى صوت انفجار اهتزت منه الأرضية.
قلت:

- إذا عادوا، يبدو أن هذا صوت لغم.

وحين نظرت إلى ساعتى ثانية كانت قد تجاوزت التاسعة والربع.
لم تعد الدبابة. وتوقف إطلاق النار.
وجلس إلى جانب «بايل»، ومددت ساقى.
قلت:

- خير لنا أن نحاول النوم، فليس ثمة ما نستطيع أن نفعله خير
من ذلك.

قال «بايل»:

- لست راضيًا عن حال هذين الحارسين.

- إنهما بخير ما دام «الفينمنه» بعيدين عنهم. ضع رشاش «المستين»
تحت ساقيك للأمان.

وأغمضت عيني، وحاولت أن أتخيل نفسي في مكان غير هذا
المكان، تخيلت نفسي جالسًا داخل مقصورة من مقصورات الدرجة
الرابعة بقطار ألماني مسافر قبل أن يستولي «هتلر» على زمام السلطة.
أبام أن كنت حديثًا أسهر الليل خالي البال وأحلام اليقظة مفعمة بالأمل
ولا نعرف الخوف. كانت تلك الساعة التي تجلس فيها «فونج» معي

تعد لي غليون المساء. وتساءلت ترى أنتتظرنى رسالة الآن؟ أرجو،
يكون ذلك صحيحاً، فأنا أعرف ماذا يمكن أن تحتويه الرسالة. وماذا
لم يصلني شيء بعد فإنني أستطيع أن أحلم بالمستحيل في أحلام بغطر
سألني «بابل»:

- هل أنت نائم؟

- لا.

- ألا ترى من الأفضل أن نرفع السلم؟

- بدأت أفهم لماذا لا يفعلان ذلك، فهو المهرب الوحيد.

- أرجو أن تعود تلك الدبابة.

- لن تعود.

ثم أحاول أن أنظر إلى ساعتى إلا على فترات متباعدة. يبدو
لم تكن فترات طويلة كما يخيّل إليّ: الساعة التاسعة وأربعون دقيقة،
العاشرة وخمسة دقائق. العاشرة وأثنا عشرة دقيقة. العاشرة وأحدى
وثلاثون دقيقة، العاشرة وأحدى وأربعون دقيقة.

سألت «بابل»:

- هل أنت يقظان؟

- نعم.

- نيم تفكر؟

وتردد ثم قال:

- «فونج».

- نعم؟

- كنت أتساءل توما ترى ماذا تعمل؟

لا أستطيع أن أثبتك بهذا. لا بد أنها قطعت بأنني سأقضي ليلتي في نانين، فليست هذه أول مرة. وهي الآن مستلقية على فراشها، وقد أمسكت عود بخور يحترق تطرد به الناموس، وتتصفح صوراً في عدد قديم من مجلة «باري مانش». إنها مثل الفرنسيين شغوفة بحياة العائلة المالكة.
قال بلهفة:

- كم هو رائع أن يعرف المرء ماذا تفعل بالضبط.
ونخيلت عيني كلبه التدين في الظلام. ما كان أحراهم أن يسموه «دو» بدلاً من «آلدن».

- في الحقيقة أنا لا أعرف، وربما كان هذا صحيحاً وليس من الأخير أن تكون غيوراً، ما دمت لا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذا الصدد.

- إنني أكره أحياناً طريقة حديثك يا «توماس»، هل تعرف كيف تبدو لعيني؟ تبدو غضة كأنها زهرة.
- يا للزهرة التعسة. يحيط بها كثير من العشب.
- أين التفت بها؟

- كانت ترقص في ملهى «الجبران موند».
- ترقص؟

قالها مشدوهاً، كأنما ألمته هذه الفكرة.
- إنها حرفة محترمة تمامًا، لا تتزعج.

- أنت تتمتع بقدر كبير من الخبرة يا «توماس».
- بل بقدر كبير من السنين. عندما تكون في سني.

- لم تكن لي فتاة في حياتي، بمعنى الكلمة. ليس لي ما يمكن أن
تسميه خبرة حقيقية.

- قدر كبير من طاقة شعبيكم يُستنفد على هيئة صغير.

- أنا لم أفضي بهذا لإنسان آخر.

- أنت شاب وليس في هذا ما يخجلك.

- هل كان في حياتك عدد كبير من النساء يا «فاولر»؟

- لست أدري ماذا يعني «عدد كبير». إن ما لا يزيد عن أربع

النساء كان لهن بعض الأهمية في حياتي، أو كان لي بعض

الأهمية في حياتهن. أما الأخريات فإنهن يزدن قلباً على

الأربعين، وإني لأعجب لماذا يقدم المرء على هذا. فمفهوم

الصحة والتزامات الفرد الاجتماعية كلاهما خاطئان.

- هل تعتقد أنهما خاطئان بالفعل؟

- أتمنى لو تعود هذه الليالي ثانية. لا رلت عاشقاً يا «بايل»، إنني

قيحة معطلة. آه، وكانت هناك الكبرياء أيضاً. إننا نحتاج إلى وقت

طويل قبل أن يزيلنا شعور الكبرياء. هذا على الرغم من أن الله

يعرف لماذا ينبغي أن نحس بهذا الشعور. عندما نسرح الطرف

من حولنا بحثاً عن هم مرغوب فيهم أيضاً.

- هل تظن أن ثمة خطأ من جانبي يا «توماس»؟

- لا يا «بايل».

- هذا لا يعني أنني لا أحتاج إلى ذلك يا «توماس». مثل أي إنسان

آخر، فلت شاذاً.

- ليس منا من لا يحتاج ذلك بنفس القدر الذي تحدث به. إن

فدرا كبيرا من التوهم الذاتي يحيط بنا. وأعلم يقيناً أنني لست بحاجة إلى أحد خلافاً «فونج». بيد أن هذا شيء يتعلمه المرء مع الزمن. كنت أستطيع أن أقضي عاماً بأكمله لا يغمض لي فيه جفن لو لم تكن إلى جانبي. ولكنها إلى جانبك فعلاً.

قالها بصوت خفيض لا أكاد أسمعه.

- إن المرء يبدأ مختلطاً، ثم ينتهي كجده مخلصاً لامرأة واحدة. - أحسبها سذاجة كبيرة أن تتكلم بهذه الطريقة... لا.

- هذا ليس متضمناً في تقرير «كيزي»^(١).

- ولهذا السبب لا بعد الأمر من السذاجة في شيء.

- تعرف يا «توماس» إنه لجميل جداً أن أكون هنا أتحدث إليك على هذه الصورة... يُخيل إليّ بشكل ما أن ليس ثمة خطر جديد.

- اعتدنا أن نحس بذلك ساعة الهجوم أثناء المعركة. بيد أنهم كانوا يعودون دائماً.

- لو سألك سائل عن أوقع خبراتك الجنسية. فبماذا تجيب؟

كنت أعرف الإجابة عن ذلك: «أستلقي على سرير في ساعة مبكرة من الصباح متطلعاً إلى امرأة مرتدية قميص نومها الأحمر وهي تمشط شعرها».

(١) كتابان شهيران صلاهما في الخمسينيات عن السلوك الجنسي عند البشر، من تأليف «ألبريد كيزي» وآخرين. (الناشر).

- قال لي «جو» إن أوقع هذه الخبرات هي أن يجمعه فرائس ..
صينية وزنجية في وقت واحد.

- كان هذا رأيي أيضًا عندما كنت في العشرين.

- «جو» في الخمسين.

- إنني لأنساءل كم قدروا سنه العقلية في هذه الحرب.

- نرى هل كانت «فونج» هي الفتاة ذات الرداء الأحمر؟

وددت لو أنه لم يسأل هذا السؤال.

- لا، كانت امرأة قبلها. بعد أن تركت زوجتي.

- ماذا حدث؟

- تركتها هي أيضًا.

- لماذا؟

- لماذا حقًا؟

- إننا نكون حمقى حين نعشق. كنت أفزع من فقدني لها. حس-

أنني رأيتها تستبدلني بغيري. لست أدري بقينا أكان الأمر علم

هذا النحور بالفعل أم لا. بيد أنني لم أعد أحتمل مزيدًا من الشاء.

واستعجلت النهاية ركضًا. تعافًا مثل جيان يعدو صوب عدو،

ويحوز ميدالية، أردت أن أقهر الموت.

- الموت؟

- لقد كانت نوعًا من الموت. ثم أتيت إلى الشرق.

- وعثرت على «فونج»؟

- نعم.

- لكن ألا تجد نفس الشيء مع «فونج»؟

ليس تمامًا. الأخرى أحببتي، وكنت أخشى أن أفقد الحب. وأنا الآن أخشى فقط أن أفقد «فونج».

«حببت من أمري. لماذا قلت ذلك؟ إنه لم يعد بحاجة إلى تشجيع

مني»

«ولكنها تحبك، أليس كذلك؟

«ليس بهذه الصورة فليس من طبيعتهن الحب. ستكتشف أنت

ذلك. إن تسميتنا لهن بالأطفال ليست إلا عبارة محفوظة،

ولكن ليس فيهن من الطفولة غير شيء واحد. إنهن يحبينك

في مقابل ما تبديه لهن من عطف وأمان وهدايا، ويكرهنك

للطمعة أو للظلم. إنهن لا يعرفن من الحب غير الخطو داخل

حجرة وعشيق الأجنبي. وبالنسبة للرجل المسن يا «بايل» فإنه

شيء آمن للغاية، إذ إنها لن تهجر البيت ما دام البيت تحف

به السعادة.

ولم أكن أقصد إيذاء شعوره. وأدركت فقط أنني أذيتة عندما

قال:

«ربما تؤثر أمنًا أعظم أو عطفًا أكثر.

«ربما.

«ألا تخشى ذلك؟

«ليس بقليل ما كنت أعشاه من الأخرى.

«هل نحبها حقًا؟

«أوه، نعم يا «بايل»، نعم. بيد أنني لم أحب على الطريقة الأخرى

غير مرة واحدة.

وانفجر في قائلًا:

- رغم الأربعين امرأة أو يزيد؟

- إنني على يقين من أن هذا العدد أقل من متوسط «كينزي»

تعرف يا «بايل» أن النساء لا يردن رجالًا عذاري. ولست

على يقين من أننا معشر الرجال نفعل ذلك، ما لم نكن من

نوع مريض.

- لم أقصد أنني لم أعرف المرأة من قبل.

بدلي أن كل محادثاتي مع «بايل» بدأت تأخذ اتجاهات متباينة.

مضحكة. ترى هل المحادثات عن المؤلف بسبب ما يتميز به من

إخلاص؟ لقد تجنبت محادثاته مواطن الحرج دائمًا.

- من الممكن يا «بايل» أن تكون لك مائة امرأة ومع ذلك تظل

عذريًا. إن أكثر رجالكم المقاتلين الذين أعدموا اشتقوا لما أقدموا

عليه من عمليات اغتصاب إبان الحرب كانوا عذاري. ليس لدي

منهم الكثيرون في أوروبا، وإنني لمسرور لذلك، فإنهم يسببون

أضرارًا كثيرة.

- أنا لا أفهمك تمامًا يا «ترماس».

- لا يستحق الأمر شرحًا. على أي حال فقد سميت الموضوع. لقد

بلغت من السن حدًا لم يعد فيه الجنس هو المشكلة الأولى مثل

الشيخوخة والموت. إنني أستيقظ وهاتان المشكلتان هما اللتان

تشغلان ذهني، وليس جسد امرأة. إن كل ما أبتغيه هو ألا أقضي

سني عمري الأخيرة وحيدًا، هذا كل ما يعنيني. فلمست أدري

كيف تمضي صحابة نهاري. وفي أي شيء أفكر. سأجد نفسي

منتهفاً إلى امرأة تملأ حجرتي. حتى وإن كنت لا أعشقها. ولكن ترى لو هجرتني «فونج»، هل سأجد عندي العزيمة لأبحث عن أخرى؟

.. لو كان هذا كل ما تعنيه بالنسبة لك...

.. أقول «كل» يا «بايل»؟ انتظر إلى أن يتملكك الخوف من أن تحيا عشرة أعوام وحيداً بغير رفيق أو امرأة ترعاك في أيامك الأخيرة. فهنا ستجد نفسك مدفوعاً إلى الهرونة في أي اتجاه، حتى وإن كنت ستعدو بعيداً عن تلك الفتاة ذات الرداء الأحمر. سنهروا بحثاً عن امرأة ما، أي امرأة تقضي الحياة معك وإلى جانبك حتى ختامها.

.. إذن لماذا لا نعود إلى زوجتك؟

.. لبس يسيراً على المرأة أن يحيا مع من جرح شعوره.

وانطلقت زخة طويلة من رشاش «سنتين» لا يمكن أن تبعد عنا أكثر من ميل واحد. ربما كان حارس متوتر الأعصاب يطلق النار على ظلال، وربما تكون بداية لهجوم جديد. تمنيت لو كان هجوماً فإن ذلك يزيد من فرص نجاتنا.

.. هل أنت فرع يا «توماس»؟

.. بالطبع، بكل غرائزي. وإن كنت أرى فعلاً أن من الأفضل لي أن أموت هكذا. فلهذا السبب جئت إلى الشرق، إن الموت يلزمك.

نظرت إلى ساعتني، لقد بلغت الحادية عشرة، بقي لنا من الليل ثمان ساعات، يمكن لنا بعدها أن نسترخي. قلت:

- لقد تطرقنا في حديثنا إلى كل شيء تقريباً فيما خلا الله، خبرنا
أن نرجى هذا الحديث للساعات الأخيرة.

- أنت لا تؤمن به، أليس كذلك؟
- لا.

- إن الأمور تفقد معناها عندي من دونه.

- وهي عندي غير ذات معنى به.

- قرأت ذات مرة كتاباً...

لم أعرف أبداً ما هو الكتاب الذي طالعه «بايل». (لا أظن أن
أحد كتب «يورك هاردنج» أو «شكسبير» أو المختارات من الأدب
المعاصر أو «فيولوجيا الزواج». وربما كان «انتصار الحياة»)
تناهى إلينا صوت داخل البرج مباشرة يتحدث معنا. وبدأ لنا
صادر إلينا من الظلال المجاورة للباب، كان الصوت منبعثاً من
مكبر للصوت يقول شيئاً ما بلغة فيتنامية. وقلت: «وقعنا». وأنصت
الحارسان واستدار وجهاهما ناحية الفتحة الخاصة بالبندقية، وفدا
فغرافاهيهما. قال «بايل»:

- ما هذا؟

كان الانتقال صوب فتحة المراقبة أشبه بالانتقال عبر الصوت
نفسه. وألقيت نظرة خاطفة إلى الخارج. لم يقع بصري على شيء.
بل إنني لم أستطع أن أميز الطريق، وعندما نظرت خلفي داخل البرج
أنفقت البندقية مشهورة. لم أعرف يقيناً إن كانت مصوبة ناحيتي أو ناحية
فتحتها في الجدار، بيد أنني حينما تحركت حول الجدار تأرجحت
البندقية واهتزت في حيرة وظلت مصوبة نحوي. واستطرد الصوت

«نفس الشيء مرة ثانية وقعدت وانخفضت معي البندقية. سألني
«إيل»:

«ماذا يقول؟»

«لا أعرف. أظن أنهم عثروا على السيارة ويطلبون من هذين
الشابين أن يسلمانا إليهم. الأفضل أن تلتقط هذا «الستين» قبل
أن يتدبرا أمرهما.»

«سيطلق النار.»

«إنه ليس متأكدًا بعد، عندما يتأكد سيطلق النار على أي حالة.»

حرك «بايل» ساقه وارتفعت معه البندقية. قلت:

«سأتحرك بمحاذاة الجدار. وغافله عندما ترتعش عيناه.»

«ما إن نهضت حتى توقفت الصرير، وقفزت حين أحسست

«السكون، وسمعت «بايل» يقول بحسم:

«أخفض بندقيتك.»

«لم يسمح لي الوقت إلا بأن أتبين ما إذا كان «الستين» مفرغًا

من عبوته. فلم أعبأ بأن أنظر لأتأكد. عندما ألقى الرجل بندقيته.

«خطوت إليها وانقضت، ثم بدأ الصوت من جديد، وأحسست أنه

«ميس الكلام لم يتغير منه أي مقطع. ربما كانوا يستخدمون أسطوانة

«مسجلة. ونساءلت متى يتقضي الإنذار النهائي.»

«ونساءل «بايل»:

«ماذا سيحدث الآن؟»

«كان أشبه بتلجيد يرقب تجربة داخل معمل، وبدأ كأن الأمر لا يعنيه

«شخصيًا.»

- ربما «بازوكا»، وربما قوات من «الفيتمة».

وفحص «بايل» الرشاش. قال:

- يبدو أن ليس ثمة سرفيه. هل لي أن أطلق منه رذخة؟

- لا، دعهم في ترددهم. ربما يفضلون الاستيلاء على البرج د.

إطلاق النار وهذا يعطينا فحة من الوقت. خير لنا أن نغادرها
المكان بأسرع ما يمكن.

- ربما كانوا في انتظارنا تحت.

- أجل.

كان الرجلان يتطلعان إلينا، أكتب «الرجلان»، لكنني أشك أ.

مجموع سني عمرهما يصل إلى الأربعين. سألني «بايل»:

- وهذان؟

ثم أردف قائلاً في صرامة مفاجئة:

- هل أطلق عليهما النار؟

ربما كان يريد أن يجرب رشاشه.

- إنهما لم يفعلوا شيئاً.

- كانا سيّطماناً.

- ولم لا؟ فليس لنا عمل هنا، وهذه بلدتهم.

وأفرغت البندقية من طلقاتها ووضعتها على الأرضية، ثم قال:

- يقيناً إنك لن تتركها.

- إنني عجوز لا أقوى على القنّو حاملاً البندقية. ثم إن هذه لـ

حربي. بالله عليك.

لم تكن حربي، لكنني كنت أتعنى أن يعرف هؤلاء الآخرون

الذين يطويهم الظلام رأيت هذا أيضًا. ونفخت في المصباح الزيتي
«لطفاته. مددت سائقي فوق الباب أتحنس السلم. وسمعت الحارسين
«همسان لبعضهما كأنهما عازقان ينغمان بلفتهما التي تشبه الغناء.
«لست له بايل»:

- اتخذ طريقًا مستقيمًا. واتجه ناحية حقول الأرز. تذكر أنها
مغمورة بالمياه وإن كنت لا أعرف عمقها، هل أنت متأكد؟
- نعم.

- شكرًا على الصحبة.

- من دواعي سروري دائمًا.

سمعت الحارسين يتحركان خلفنا. وتساءلت إن كانا يحملان
سكينًا. كان مكبر الصوت يتحدث بطريقة قاطعة كأنه يعطي فرصة
أخيرة. وتحرك شيء ما بهدوء تحتنا في الظلام. ولكن ربما كان فأرًا.
ونرددت. وهمت: «أتمنى بحق الله لو كان معي شراب».

- هيا بنا.

كان ثمة شيء يصعد درج السلم. ثم أسمع شيئًا، ولكن السلم
اهتز تحت قدمي. وسألني «بايل»:
- ماذا أوقفك؟

لست أدري لماذا تصورت هذا الاقتراب الخفي الصامت كأنه
شيء ما، إن الإنسان هو وحده الذي يستطيع أن يتسلق سلمًا،
ورغم ذلك فلم أكن أتصوره إنسانًا على صورتي، فقد بدا لي حيوانًا
بتوغل في هدوء شديد، وبالقسوة المعهودة لدى الأنواع الأخرى
من المخلوقات. اهتز السلم مرة بعد أخرى. توهمت أنني أرى عينيه

يبكي. جاءني الصوت من ناحية البرج، أو ما كان برجًا. لم يكن يشبه صوت رجل يبكي، كان أشبه بطفل أفرعه الظلام، ولكنه يخشى أن يصرخ. خمنت أنه أحد الصييين بالضرورة، ربما لقي زميله حنقه وتمسيت ألا يقطع «القيتمته» رقبته. لا ينبغي لأحد أن يخوض حرا بالآطفال، وتذكرت صورة جثة طفل تكور حول نفسه داخل حفرة. أغمضت عيني، ساعدني هذا على طرد الألم أيضًا، انتظرت. سمعت صوتًا ينادي بما لم أفهمه. وشعرت أنني أستطيع النوم وسط الظلام والوحدة وغياب الألم.

ثم سمعت «بايل» يهمس:

«توماس». «توماس».

لقد تعلم سريعًا اقتفاء الأثر. فأنا لم أسمعوه وهو يعود إلي، همست - ابتعد.

لقد عثر عليّ واستلقى على الأرض بجاني.

- لماذا لم تأتي؟ هل أصبت؟

- ساقى. أظنها كسرت.

- رصاصة؟

- لا، لا. كتلة من الخشب، أو الحجر، شيء ما من البرج. إنها لا تنزف.

- حاول أن تقاوم.

- ابتعد يا «بايل» فأنا لا أريد، إنها تؤلمني كثيرًا.

- أي ساقيك؟

- اليسرى.

وزحف إلى جانبي، ورفع ذراعي إلى كتفه. وأردت أن أنتحب
لـ الصبي الذي بداخل البرج، ثم أحسست بالغضب. ولكنه كان
سراً على المرء أن يكشف عن غضبه في مهمة.
- لعنك الله يا «بابل»، اتركني وحدي، أريد أن أبقى هنا.
- لا تستطيع.

وحاول أن يرفعني ليحمل نصفي على كتفه. كان الألم فوق ما
أطيع.

- لا تكن بطلاً علينا، إنني لا أريد أن أذهب.

- لا بد من معاونتك وإلا قُبض علينا.

- أنت...

- اسكت وإلا سمعونا.

كنت أصرخ حنقاً، ولم أستطع أن أجد كلمة أعنف من هذه.
وحاملت عليه لأقف. وتركت ساقَي اليسرى مدلاة، كنا أُنبيه
بأحمقين يناريان في سباق عُدُو بثلاثة أرجل. كنا على وشك أن
نعدل عن غرضنا لولا أنه في اللحظة التي بدأنا فيها المسير بدأ رشاش
«برن» يطلق قذائف سريعة في مكان ما من الطريق صوب البرج
الثاني. ربما كانت إحدى دوريات الحراسة تقوم بعملية اقتحام. أو
ربما كانوا ينجزون هدفهم بتدمير ثلاثة أبراج. وقد غطى هذا الدوي
العالي على الضوضاء التي انبعثت منا أثناء هروبننا البطيء الأرض.
لست موقناً من أنني كنت متمالكاً وعمي طوال الوقت، وأحسب
أنني ألقيت بكل ثقلِي - تقريباً - على «بابل» مسافة العشرين ياردة
الآخيرة. قال «بابل»:

تحميلقان إلى أعلى، وفجأة أحسست أنني لم أعد أحتمل الموقف أكثر من ذلك وقفزت. لم يكن ثمة شيء على الإطلاق سوى الأرض الرخوة التي أمسكت بكعبي ولوته كما تلويه أي يد. وسمعت «بابل» نازلًا درج السلم. وأيقنت أنني كنت أحقق هلوًا عجز عن أن يتسبب حقيقة ارتجاعه، وقد كنت أو من بأنني إنسان قوي الشكيمة لا تسب على الأوهام وغير ذلك من صفات يتحلى بها المراسل والمراف الصادق. وقفت على قدمي ثم أوشكت على التهاوي ثانية من الأثم بدأت المسير ناحية الحقل أجرُّ إحدى قدمي ورائي وأسمع خط «بابل» يسير خلفي. ثم انطلقت قذيفة من مدفع «بازوكا» صوّج البرج وألغيت نفسي مكفئًا على وجهي ثانية.

(٤)

قال «بابل»:

- هل أصبت؟

- شيء ما خبط ساقي. ليس ثمة خطورة.

استحثني «بابل» قائلاً:

- هيا نواصل المسير.

كنت أتبته بصعوبة، فقد كان يبدو وكأنما يغطيه غبار أبيض باءم ثم اختفى وكأنه لم يكن سوى صورة على الشاشة وقد أطفئت فجاء مصابيح آلة العرض، لم يكن هناك سوى الصوت. اعتدلت في حد.

١٠٠. بهد متوكتاً على ركبتني السليمة. وحاولت أن أنهض دون أن أتحمّل
 على كعبي المصائب، ثم نهايت ثانية وقد تقطعت أنفاسي من الألم،
 لم يكن كعبي، فقد حدث شيء ما لساقبي اليسرى. لم أنزعج فقد ذهب
 الألم بالقلق. ورفدت جامداً على الأرض أملاً في ألا يعاودني الألم
 أبداً. وكتمت أنفاسي كما يفعل من يعاني من ألم بالأسنان. ولم أفكر
 في قوات «الفتنة» التي سنأتي من فورها للتغيب في أنقاض البرج.
 امجرت فديفة ثانية على البرج. إنهم يريدون الاطمئنان الكامل قبل
 أن يتقدموا. وفكرت بينما يزألني الألم: يا لها من مبالغ باهظة تلك
 أن نتكلفها لقتل حفنة قليلة من الأدميين. بوسعك أن تقتل الخيول
 من أرخص من ذلك بكثير. لم أكن متعالمًا لكامل وعيي فقد شرد
 مكبري، وتحيلت أنني ضللت طريقي داخل مذبح للخيول الطاعة.
 فإن هذا هو مصدر قرعي أثناء طفولتي في المدينة الصغيرة التي ولدت
 بها. فقد كان يترأى لنا دائماً أننا نسمع الخيول تصهل فرعاً والصوت
 الهائج لقائلها الذي لا يعرف معنى الألم.

مضى بعض الوقت قبل أن يعاودني الألم، كنت راقداً بلا حراك،
 وكظمت أنفاسي متوهماً أن لذلك جدواه. وتساءلت وأنا متبه لما
 أفكر فيه إذا كان من الأفضل أن أزحف ناحية الحقول، إذ قد لا تجد
 قوات «الفتنة» متسعاً من الوقت للبحث في كل مكان بعيد. ومن
 المحتمل أن نخرج الآن دورية حراسة أخرى تحاول أن تلحق برجال
 الدبابة الأولى. بيد أنني كنت أخشى الألم أكثر من خشيتي دوريات
 الجنود، فرقدت جامداً. ولم يكن ثمة صوت في أي مكان ينم عن
 وجود «هايل». لا بد أنه وصل إلى منطقة الحقول. ثم سمعت شخصاً

- كن حذرًا هنا، إننا ستوغل إلى الداخل.

سمعنا حفيف الأرز الجاف من حولنا والطمي يخرص ويعلو.
توقف «بابل» عن المسير عندما وصل ارتفاع الماء إلى خصرها
كان يلهث وقد عاق شيء ما تنفسه حتى خرج منه صوت يشبه صوت
ذكر الضفدع. قلت:

- إنني آسف.

- ما كان لي أن أتركك.

كان أول ما أحسست به أن الألم قد زایلني، فقد أمسك الماء.
والطمي يساقي في رقة وثبات كأنهما ضمادة. ولكن سرعان ما بدأت
أسناننا تصطلك من البرد. فكرت إن كنا قد تجاوزنا منتصف الليل
فقد نضطر إلى أن نقضي ست ساعات على هذا الوضع إذا لم يهت
إلينا جنود «القبعة». قال «بابل»:

- هل لك أن تخفف من حملك قليلًا، للحظة واحدة فقط؟

عاودني هياجي السخيف، ولم يكن ثمة مبرر لي غير الألم. إنني
لم أسأله نجذتي أو أن يرجو موتي بهذه الطريقة المريعة. تذكرت
بنوع من التحنين المرضي فراشي على الأرض القاسية الجافة. وقف
كما يقف طائر الكركي على ساق واحدة أحاول أن أعفي «بابل» من
ثقلتي. وعندما تحركت اهتزت أعواد الأرز وتكسرت وطفقتت. قلت
- أنقذت حيائي هناك لكي أموت هنا، كنت أؤثر أرضًا جافة.

وتنحني «بابل» ليحجب إجابته المعهودة. قال وكأنه يخاطب إساءة:
معتلاً:

- من الخير أن نكف عن الحديث فعليًا أن ندخر قواتنا.

- من بحق الشيطان سألك أن تنقذ حياتي؟ لقد أتيت إلى الشرق
للألفى مصري. إن هذا يشبه سفاهتك الملعونة.
وترنحت وسط الطمي، ورفع «بابل» ذراعي حول كتفه. قال:
- حاول أن تريحها.
- لقد شاهدت أفلاماً عن الحروب، نحن لسنا اثنين من البحارة
المحاربين ولن نحصل على ميدالية حربية.
- هس.

تناهى إلى سمعنا وقع أقدام تخطو ناحية حافة الحقل. وتوقف
شاش «برن» عن إطلاق نيرانه عند الطريق. ولم يقطع السكون غير
«فع الأقدام وحفيف الأرز الواهن ونحن نتنفس. ثم توقفت الأقدام
من الخطو. كانت تبعد عنا بمسافة قصيرة جداً. واحت يد «بابل»
نضغط على جانبي السليم في بطنه وتدفعني إلى أسفل. وغصنا معاً
وسط الطمي وتلاصقنا حتى نخفف من اضطراب عيدان الأرز إلى
أقل قدر ممكن. وارتكزت على ركبة واحدة أحاول جاهداً أن أشد
رأسي إلى الخلف، ولم يبق غير فمي يطل خارج الماء. وعاولد الأكم
ساقى. وفكرت: «سأغرق لو أغمي عليّ هنا». كنت دائماً أكره الغرق
وأخشى التفكير فيه. لماذا لا يستطيع المرء أن يختار لنفسه مئة معينة؟
والآن سكنت كل الأصوات، ربما كانوا يقفون على بعد عشرين قدماً
في انتظار سماع حفيف الأرز أو صوت سعال أو عطاس. فكرت:
«أه يا إلهي هأنذا على وشك أن أعطس». لو أنه تركني وحدي لكنت
مسؤولاً عن حياتي وحدي من دون حياته، وهو يريد الحياة. وضغطت
بأصابع يدي الطليقة على شفتي العليا حسب الحيلة التي تعلمناها

أيام الطفولة ونحن نلعب «الاستغماية» لأسكت العطاس. ولنا
ظل يلح عليّ يريد أن ينفجر، وما هم الآخرون ينتظرون في صد
وسط الظلام لسماع صوت عطاس. ها هو ذا يراودني وعلى هذا
الانطلاق، على وشك الانطلاق، انطلق...

ولكن في نفس الثانية التي انطلق فيها صوت العطاس فتح حـ،
«القيتمنة» رشاشاتهم «السن» ورسوموا بها خطأ من النيران و...
الأرز. ابتلعت الطلقات صوت العطاس بدويها الحاد وهي تنف
المكان كأنها مثقاب يثقب لوحًا من الصلب. وأخذت نفسي
غصت في الماء، هكذا وبطريقة غريزية يتجنب المرء ما بعده،
يتدلل على الموت كامرأة تريد من عشيقها أن ينالها اغتصابًا. مال
عيدان الأرز بقوة فوق رؤوسنا ومررت العاصفة. رفعتنا قامتينا في نف
اللحظة تنسم الهواء وسمعنا وقع الأقدام تخطو بعيدًا ناحية البرم
قال «بابل»:

- لقد حققنا ما نريد.

بيد أنني رغم ما كنت أعانيه من ألم نساءلت قري ما الذي حققنا؟
أما عن نفسي فليس لي غير الشيخوخة، ومنصب محرر، والنوح،
أما عنه هو فإنني أعرف الآن أن كلامه كان سابقًا لأوانه. ها نحن
استقر بنا المقام وسط هذا البرد القارس ننتظر ما يجد. وعلى
الطريق المؤدي إلى تانين ألفت نازًا عالية قد دبت فيها الحياة ده
واحدة، كانت تضطرم في بهجة كأنها تحتفي بشي.

قلت:

- إنها سيارتي.

قال «بايل»:

- إنه عمل مخجل يا «توماس». أكره أن أرى شيئاً يضيع هباء.
- لا بد أنه كان في الخزان قدر كافٍ من الوقود ليشعل مثل هذه النار. هل أنت مقرور مثلي يا «بايل»؟
- إلى أقصى درجة.

- ماذا لو خرجنا واستلقينا على قارعة الطريق؟
- دعنا ننتظر نصف ساعة أخرى.
- إن ثغلي كله عليك.

- أقدر على الاحتمال، فأنا شاب.
قال عبارته هذه على سبيل المزاح ولكنها لسعني ببرودة كبرودة طمي. كنت قد عزمت على أن أعذر عن الطريقة التي أفصح بها «هي» عن نفسه، ولكن ها هو يفصح عن نفسه مرة أخرى.
- أنت شاب بكل معنى الكلمة، ونستطيع أن نحتمل الانتظار.
اليس كذلك؟

- أنا لا أفهمك يا «توماس».

كنا قد أمضينا ما يقرب من سبع ليالٍ معاً، ولكنه لا يزال لا يفهم
هي أكثر مما يفهمه عن اللغة الفرنسية. قلت:
- أحسنت صنعاً أن حافظت على حياتي.
- ما كنت لأستطيع أن أواجه «فونج».
طرح الاسم كأنه عطاء يقدمه صاحب بنك. وتلففته.
- إذن فقد كان هذا من أجلها؟
بدت غيرتي أكثر مدعاة للسخرية والمهانة. وذلك لأنني أفصححت

عنها بهمسات خافتة للغاية فقدت قوتها التعبيرية. والغبرة أشبه بالأداء المسرحي.

- هل تعتقد أنك ستأسرها بأعمالك البطولية هذه؟ ما أعظم خطأك
لو قدر لي أن ألقى مصرعي لكان بوسعك أن تفوز بها.
- لم أقصد ذلك. إن كل ما أعنيه أن العاشق يطمع دائماً أن يتصرف
بشرف.

فكرت أن هذا صحيح، لكن ليس بهذه البراعة التي يعينها. فالعاشق
يريد أن يرى نفسه على نفس الصورة التي يراه بها شخص آخر، فيكون
عاشقاً للصورة زائفة ومفخمة عن نفسه. إننا في الحب نقصر عن بلوغ
المجد، والعمل المقدم لا يعدو أن يكون دوراً تؤديه أمام اثنين هما
كل المتفرجين. ربما لم أعد محباً لكنني لا زلت أتذكر.

قلت:

- لو كنت أنت الذي في مكاني لتركتك.

- لا ما كنت لتفعل هذا يا «توماس».

ثم أردف قائلاً باعتداد لا يُحتمل:

- أنا أعرفك خيراً من معرفتك بنفسك.

وحاولت في غضب أن أبتعد عنه وأحمل عنه ثقلي، بيد أن الآلة
عاودني وهو يهدر كقطار شق طريقه في نفق ما فتحاملت عليه بكل
ثقلي أكثر من ذي قبل، قبل أن أغوص في الماء. وأحاطني بذراعه
وانشطني. ثم بدأ يسير بي بوصة بعد بوصة ليصل إلى السد الترابي
للحقل ثم إلى قارعة الطريق. ما إن حملني إلى هناك حتى أنزلني
ممدداً في الطمي الضحل. وعندما انحسر عني الألم، وفتحت عيني،

«اطلقت أنفاسي، لم تطالعني سوى الشيفرة الدقيقة لمجموعات
«بحوم، شيفرة أجنبية استحال عليّ قراءتها، فلم تكن تلك النجوم
«في أفئتها في وطني. وكان وجهه يحوم فوقه ويطمس معالمها.
- سأخرج إلى الطريق يا «توماس» لأبحث عن إحدى دوريات
الحراسة.

- لا تكن أبلاء، سيطلقون عليك النار قبل أن يعرفوا من أنت. هذا
إذا لم تقع في أيدي قوات «الفيتنة».
- هذه هي الفرصة الوحيدة، إنك لا تستطيع أن ترقد في الماء
ست ساعات.

- إذن ضعني على الطريق.

ثم سألقي في رية:

- ألا يفيدك أن أترك لك رشاش «الستين»؟

- لا بكل تأكيد، إذا عزمت على أن تكون بطلاً فليس أمامك على
الأقل إلا أن تشي الهويش خلال الأرز.

- سنمر بي الدورية قبل أن أتمكن من التلويح لها.

- إنك لا تتكلم الفرنسية.

- سأصرخ قائلاً بالفرنسية: «أنا فرنسي». لا تنزعج يا «توماس».
سأكون حذرًا للغاية.

وقبل أن أتمكن من الرد كان قد تجاوز المدى الذي تصله
عمساتي. كان يتحرك بهدوء حسبما تعلم وعلى فترات متقطعة.
«استطعت أن أراه على ضوء العربة المشتعلة. ولكن لم تنطلق طلقة
واحدة. وسرعان ما تجاوز المنطقة التي تضئها ألسنة اللهب وعلى

المغور ابتلع السكون صوت وقع الأقدام. آه. فقد كان حريصاً مثله
كان وهو يجذف بقاربه إلى فأت ديسم، إنه حرص بطل من أبطال
قصص المغامرات التي يقرأها الصبية، وهو فخور بحرصه نأ،
كشاف لا يعي ما في مغامرته من سخف وعدم جدوى.

أنصت وأنا مستلقي إلى الطلقات التي لا أدري إن كانت من فواء
«الفيتنة» أو لإحدى دوريات الحرس. ولم يأت أحد، وربما تنقصر
ساعة أو ما يزيد قبل أن يصل إلى أحد الأبراج إذا ما قدر له أن يصل.
وأدبرت رأسي حتى أرى ما تبقى من برجنا؛ كرم من الطين والياء،
والعوارض، بدت لي وكأنها تهبط تدريجياً مع هبوط السنة الله.
المنبعثة من السيارة. عاودني الاطمئنان بعد أن زلزلني الوجود،
أشبه بنوع من الهدنة لأعصابي. أحسست برغبة في الغناء. وأحب.

يمدئ الغرابة في أن رجالاً يعملون في مهنتي لا يخرجون من ١٠
هذا الليل إلا بعمودين من الأنباء. إنها لا تعدو أن تكون ليله.
الليالي المألوفة وأنا الشيء الغريب فيها. ثم تناهى إلى سمع
بكاء واهن يشن من جديد من بين ما تبقى من البرج. لا بد أن أأ،
الحارسين ما زال على قيد الحياة. فكرت: «يا للشيطان البائس»
لم تتوقف عند موقف حراسته ربما كان قد سلم نفسه أو ربما أأ،
بالفرار مع أول نداء يصدر إليه من مكبر الصوت. ولكننا كنا هنا.
رجلان أبيضان ورشاش «الستين» في أيدينا فلم يجسرا على الحر،
وعندما نركناهما كان الوقت متأخراً جداً. كنت أنا المسؤول.
هذا الصوت الذي يشن في عتمة الليل. كنت أفخر بتمايزي عن
ما عداي، وبأن لا علاقة تربطني بهذه الحرب، إلا إن تلك الجرة،

ما نكثت بسبي كما لو أنني استخدمت رشاش «الستين» وهو ما
اد «بابل» أن يقدم عليه.

جاهدت لأرتقي السد الترابي عند حافة الطريق. وددت لو ألحق
• فقد كان ذلك التصرف الوحيد الذي أستطيعه لأشاركه آلامه.
«إن العي الذاتي شدني إلى الوراء. لم أعد أسمع. رقدت جامداً
• حراك. ولم أسمع شيئاً سوى العي يدق كأنه قلب مروع، وكظمت
• ماسي، ودعوت الرب الذي لا أؤمن به: «دعني أمت أو يغمي عليّ.
• مي أمت أو يغمي عليّ». وأحسب أنني ذهبت في غيبوبة ساعته
• أم أعد أعني شيئاً ما إلى أن رأيت فيما يرى النائم أن جفوني قد
• حدت والنصفت ببعضها، وأن شخصاً ما يحاول أن يولج بينهما
• ميلاً يفصلهما عن بعضهما. وأردت أن أحذره من أن يصيب إنسان
• أمين نحتهما بضرر. ولكنني عجزت عن الكلام، وأحسست بوخزة
• لا زميل وهو يفصل بينهما، وإذا بشعلة تضئ أمام وجهي.
قال «بابل»:

• لقد نجحنا يا «توماس».

هذا هو ما تعيه ذاكرتي. وإن كنت لا أذكر ما الذي حدث به «بابل»
الأخرين فيما بعد؛ لوحت بيدي في الاتجاه الخاطئ وقلت لهم إن
ثمة رجلاً في البرج عليهم أن يروه. على أي حال فقد عجزت عن أن
أبدي ما أبداه «بابل» من زعم اتصاف فيه وراء عاطفته. أنا أعرف نفسي
• وأعرف عمق أناثيتي. إنني لا يمكنني أن أستريح (ورغبني الأساسية
• هي أن أستريح) إذا ما كان ثمة شخص آخر يعاني ألماً، سواء أكان
الماً مرئياً أم مسموعاً أم ملموساً. هذا ما قد يخطئه الساذج أحياناً

فبدعوه إيثارًا. بينما كل ما أفعله أنا هو أن أضحى بخير قليل ،
في هذه الحالة أن أرجى العناية بإصابتي، ابتغاء خير أسمى بد
أن أنعم بهدوء المخاطر إذا ما شئت أن أفكر في نفسي.
عادوا إليّ يخبرونني أن الصبي قد لقي حتفه، وكنت مغتبطًا،
كنت لأعاني مزيدًا من الألم بعد حقنة المورفين التي عمّقت من

الفصل الثالث

(١)

سعدت الدرج على مهل قاصداً شقتي في شارع كاتينات، متوقفاً
لاستريح عند كل منبسط أصادفه. كانت النسوة المعجّز بثرثرن كما
اعتدن وقد جلسن القرفصاء على الأرض خارج دورة المياه الخاصة
التيبول، ارتسمت على وجوههن خطوط مصائرهن كما ترسم مشيلاتها
في كفوف الآخرين. كان الصمت يلغني أثناء مروري بهن. ونساء لو
أنني أعرف لغتهن ماذا كن سيحكين لي عما دار من أحداث في غضون
مفامي في المستشفى العسكري، هناك عند الطريق المؤدي إلى تانين.
لقد فقدت مفاتيحي في مكان ما داخل البرج أو في الحقول. بيد
أنني بعثت رسالة إلى «فونج»، ولا بد أنها تلقتها لو كانت لا تزال
هناك. كلمة «لو» هي معيار عدم اليقين عندي. لم يصلني أي أخبار
مها عندما كنت في المستشفى، لكنها تكتب الفرنسية بصعوبة وأنا
لا أستطيع أن أقرأ الفيتنامية.

طرفت الباب وفتحت لي على الفور. وبذالي كل شيء كما كانا
ونفحصتها عن كذب بينما كانت تسألني عن حالتي. ولعنت سامر
التي ضمدت بجيرة. ودنت ناحيتي بكتفها لأتوكأ عليها كما لم أ.
يمكن للمرأة أن يتوكأ في سلام على مثل هذه البنية الغضة.
قلت:

- إنني سعيد بعودتي إلى البيت.

قالت إنها افتقدتني، وذلك ما كنت أود أن أسمعه منها. كان
دائمًا يقول لي ما يروق لي سماعه مثلما يجيب أحد «الفعله» عام
أسئلة تُلقى عليه باستثناء حالات قليلة. والآن أنا أنتظر إحدى
الحالات. سألتها:

- كيف استمتعت بوقتك؟

- أوه، زرت أختي مرارًا. لقد حصلت على وظيفة مع الأمريكي.

- حصلت بالفعل؟ هل ساعدها «بايل» في ذلك؟

- ليس «بايل» الذي ساعدها وإنما «جو».

- من هو «جو»؟

- إنك تعرفه، الملحق الاقتصادي.

- أوه «جو»، أعرفه بالتأكيد.

كان واحدًا من أولئك الذين يساهم المرء «دائمًا» ولا زلت - ر
يومنا هذا أعجز عن وصفه، فيما عدا سمته وجنتيه اللتين
بحلافتهما حلقة أنيقة وضحكة العريضة. كان يغيب عني كل
يتعلق بشخصيته فيما خلا أن اسمه «جو». ثم رجال تظل أسماء
دائمًا مختزلة.

ماونتنى «فونج» كي أتمدّد على السرير. سألتها:

هل شاهدت أي أفلام؟

نعم فيلم مضحك للغاية تعرضه سينما «كاثينات».

وشرعت على الفور تقص عليّ موضوع الفيلم بكل تفاصيله بينما

١ - أبحث بعيني داخل الحجر عن مطروف أبيض قد يكون بريقة.

٢ - مدت لم أسألها فلانتي أميل إلى الاعتقاد بأنها نيت أن تخبرني به،

٣ - مما يكون موضوعًا هناك على العائدة بجانب الآلة الكاتبة أو فوق

٤ - رانة الملابس، وربما اتخذت له مكانًا آمنًا داخل درج الدولاب

٥ - لتحفظ بمجموعة إشارات.

٦ - إنه مأمور البريد - أظن أنه كان مأمور البريد - ولكن ربما كان

العمدة تتبعهم حتى البيت، واستعار سلمًا من الخباز، وتسلق

داخل نافذة «كورين». ولكنها كما ترى كانت قد دخلت الغرفة

المجاورة مع «فرانسا». إلا إنه لم يسمع مدام «بومبير» أثناء

قدومها. ودخلت ورأته عند أعلى السلم. وظنت...

- من هي مدام «بومبير»؟

سألتها وأنا أدير رأسي لألقي نظرة على حوض الغسيل، حيث

لانت تضع أحيانًا وريقات وسط السوائل المطهرة، لتذكرها بما تريد.

- لقد قلت لك، هي أم «كوربتين»، وكانت تبحث عن زوج لأنها

أرملة...

جلست على السرير، ومدت يدها داخل قميصي.

ونابت:

- كان فيلمًا مضحكًا للغاية.

- قبليني يا «فونج».

لم تكن لتدلل أبداً، ففعلت على الفور ما طلبته منها. ثم اسنط،
في روايتها لقصة الفيلم. ولو سألتها أن تعارس الحب للبت طار
مباشرة على هذا النحو، إذ سرعان ما تتجرد من سروالها من...
تردد. ثم تمسك بعد ذلك بخيط الحديث عن قصة مدام «بو...»
والمآزق التي وقع فيها مأمور البريد.

- هل وصلتي برقبة؟

- أجل.

- ولماذا لم تعطيها لي؟

- لا زالت أمامك فسحة طويلة من الوقت حتى تعود للعمل، به
أن تستلقي وتريح.

- قد لا تكون خاصة بالعمل.

أعطيتني البرقية ولا حظت أنها فتحت، كُتب فيها: «مطلوب أربعة»
كلمة عن أثر رحيل «دو لائر» على الموقف السياسي والعسكري،
وقلت:

- أجل. إنه عمل. كيف عرفت؟ لماذا فتحتها؟

- ظننت أنها من زوجتك، وتمنيت أن أجد بها أخباراً سارة.

- من ترجم لك؟

- أخذتها إلى أختي.

- لو كانت أخباراً سيئة هل كنت ستتركيني يا «فونج»؟

ودلكت يدها على صدري لتطمئني من دون أن تتحقق من...
ما أبتغيه الآن هو بضع كلمات حتى وإن كانت غير صادقة.

هل لك في غليون؟ ثمة خطاب لك. أحب أنه منها.

هل فتحته؟

أنا لا أفتح خطاباتك. التلغرافات متاحة للجميع. يقرأها
الكتبة.

ذات هذا المحطوف موضوعاً مع إشاراتهما. أخرجته برقة ووضعته
في السريـر. تعرفت على الخط. «لو كان ما به أخباراً سيئة ماذا
...؟» كنت على يقين من أنها لن تكون شيئاً آخر سوى أخبار
البرقية قد تعني نوبة سخاء مفاجئة. أما الرسالة فقد لا تعني
شيء. التوضيح والتبرير. وهكذا قطعت سؤالي، إذ ليس من الأمانة
أن أطلب وعداً ليس بمقدوري أن أفي به.

سأنتي «فونج»:

- مـم تخشى؟

كنت أفكر في أنني أخشى الوحدة ونادي الصحافة والحجرة التي
استخدمها للنوم والاستقبال، وأخشى «بايل».

قلت لها:

- أعدي لي براندي بالصودا.

وألقيت نظرة إلى استهلال الخطاب: «عزيزي «توماس»»، وختامه:

«هيلين» المحبة لك». وانتظرت البراندي.

- هل هو من عندها؟

- أجل.

وقبل أن أطلعه بدأت أنساءل ما إذا كنت في النهاية سأكذب على

«فونج» أم أصدقها القول.

عزيزي «نرماس»:

لم أدهش لخطابك، ولا لمعرفتي بأنك لست وحدك.
فلست بالرجل الذي يظل وحيداً فترة طويلة من الزمن،
أأنت كذلك؟ إنك تلتقط النساء مثلما يلتقط معطفك
الغبار. ربما كنت أمتشعر نهائياً أكثر مع حائكك لو لم
أحسن أنك ستجد العزاء لك ميسوراً للقاية بعد عودتك
إلى لندن. لا أحبك مستدقني، ولكن ما دعاني إلى
الثريث، وصغني من أن أبرق لك بكلمة وفض بسيطة،
لبس إلا تفكيري في الفتاة المسكينة. إننا معشر النساء
نعيل إلى التورط أكثر منكم.

شربت جرعة من البراندي. لم أكن مدركاً بوضوح إلى أي مدى تعاد
الجروح الزوجية ناكثة على مدى السنين. هأنذا بنوع من الاستهانة،
وأنا لا أنتقي ألفاظي بمهارة، أنكأ جراحها لتزف من جديد. ومن
الذي يلومها لأنها تحاول أن تبحث عن جراحي العلتمة لندمها
أيضاً. إننا نؤلم إذا ما ابتأسنا.

سألتني «فونج»:

— أخبار سيئة؟

— قاسية نوعاً. ولكن لها الحق. وواصلت قراءتي:

كنت أومن دائماً أنك تحب «آن» أكثر من سواها من
النساء، إلى أن حزمت امتعتك ورحلت. وها أنت الآن
على ما يبدو تدبر لتهجر امرأة أخرى لأنني أمتشف من
خطابك أنك لا تتوقع حقيقة إجابة «مرضية»، لقد
بذلت كل ما في وسعي، أليس هذا ما تفكر فيه؟ ماذا
أنت فاعل لو أبرقت لك بكلمة «نعم»، هل ستزوجها

حقاً؟ (إنني مضطرة أن أكتب عنها بضمير العائب، إذ لم
 نخبرني ما اسمها) ربما ستفعل ذلك. في تقديرٍ، مثل
 ما هو في تقدير كل بنات جسي، إنك تكبر في السن،
 ولا نود أن تحيا وحيداً. وأنا نفسي أحس في بعض
 الأحيان بأنني وحيدة تماماً. وأستطيع أن أستشج أن
 «آن» عثرت على رفيق آخر. بيد أنك تركتها في الوقت
 المناسب.

ما هي ذي عرفت على نحو محدد، وتنكأ الجرح الذي التأم. شربت
 نايبة. رسالة دامية، كانت هي العبارة التي طافت بهلندي.

قالت «فونج»:

- دعني أعد لك غليوناً.

- أي شيء، أي شيء.

هذا أحد الأسباب التي تدعوني إلى أن أقول «لا». دعنا
 من الحديث عن السبب الديني، ذلك لأنك لم تفهمه أبداً
 ولم تؤمن به. إن الزواج لا يمنعك من أن تهجر امرأة،
 أليس كذلك؟ إنه فقط يرجع العملية. وقد يكون في هذه
 الحالة على أكثر تقدير عملاً غير نزيه بالنسبة للفئة إذا
 ما كنت قد عشت معها فترة من الزمن تعادل الفترة التي
 عشنا معي. متعود بها إلى إنجلترا حيث نحد أنفسنا
 ضائعة وغريبة. وعندما تهجرها فإلى أي حد ستشعر
 أنها مشردة لدرجة رهبة؟ لا أحسبها تستعمل حتى
 السكين والشوكة، أليس كذلك؟ قد أكون فظة لأنني
 أفكر في مصلحتها أكثر مما أفكر في مصلحتك أنت.
 لكنني يا عزيزي «نوماس» أهتم حقاً بمصلحتك أيضاً.

أحسست بالمرض قد ألم بجسدي. لقد مضى وقت طويل منذ
رسالة تلفيتها من زوجتي. لقد أكرهتها على كتابة هذه الرسالة...
وهأنذا أحس بآلمها في كل سطر من سطورها، إن آلامها تدعوا
بآلامي، لقد عدنا إلى عادتنا القديمة، أن يوجع كل منا الآخر...
كان ميسورًا للمرء أن يحب دون إيذاء، الوفاء وحده لا يكفي...
كنت وقتًا لآن، ومع ذلك فقد آذيتها. وتكمن الإساءة في عدم
التملك. إنما من ضالة الشأن فكريًا وجسديًا بحيث لا نقوى على
تملك إنسانًا آخر دون أن نحس بالكبرياء، أو أن يملكنا إنسان...
أن نحس بالخنوع. ولقد أثنج صدري بشكل ما أن زوجتي نص...
لي ثانية، إذ كنت قد نسيت آلامها لفترة طويلة من الزمان. وهذا
النوع الوحيد من التعريض الذي أستطيع أن أقدمه لها. والساذج...
يتورط، ولسوء الحظ، في أي صراع. إني دائمًا وحيدًا توجهت...
صوتًا ما يش من داخل البيرج.

أشعلت «فونيج» مصباح الأفيون. قالت:

- هل تسمح لك بأن تتزوج بي؟

- لم أعرف بعد.

- ألا تقول؟

- إذا كانت تقول فإنها تقول على مهل شديد.

فكرت: «إلى أي مدى ستمخ بنفسك إذا ما كنت طليقًا وإذا...
ظلمت المخبر الصحفي ولست محررًا مسؤولًا. وما الأعمال البخر...
التي سترتكبها وراء الكواليس. إن النوع الآخر من الحروب أكثر بر...
من هذا، إن المرء يحدث أضرارًا أقل إذا استخدم أحد مدافع «الهارون»

لو أنني خالفت ما أقنع به في أعماق نفسي وقلت لك: «نعم»، فهل سيكون ذلك في صالحك أنت؟ تقول إنك استدعيت إلى إنجلترا، وأستطيع أن أدرك بوضوح مدى كراهيتك لهذا أو ما ستفعله لتخفف من وقعه على نفسك. إنتي أخالك تعقد زواجك بعد أن أفرطت في الشراب. لقد حاولنا في المرة الأولى وكنا صادقين في محاولتنا - من جانبك وكذلك من جانبي - والمرة لا يكون على نفس القدر من الصلابة في محاولتنا الثانية. تقول إنك لو فقدت هذه الفتاة فستكون نهاية حياتك. وقد سبق لك ذات مرة أن وجهت نفس العبارة لي، ووسمي أن أعرض عليك الخطاب. فلا زلت أحنظ به. أحسب أنك كتبها بنفس الأسلوب لـ «آن». نقول إننا حاولنا أن يصدق كل منا القول للأخر. بيد أن صدقك يا «توماس» صدق عابر دائمًا. ما جدوى النقاش معك أو أن أحاول أن أهدبك إلى العقل؟ أيسر علي أن أنصرف طبقًا لما يميله علي إيماني - كما نتصور أنت بطريقة غير معقولة - وأكتب لك ببساطة: أنا لا أؤمن بالطلاق، فذهبي بحرمه، وهكذا فإن إجابتي يا «توماس» هي: لا، لا.

كانت لا تزال هناك نصف صفحة لم أقرأها تسبق عبارة «هبلين» المحبة لك». أظنها كانت تتضمن أخبارًا عن الطقس وخالة عجوز أحبها.

لم يكن لدي سبب للشكوى، وكانت هذه هي الإجابة التي توقعتها، وهي تتضمن قلبيًا كبيرًا من الحقيقة. كل ما نعتيه ألا تكون قد سردت

لنفسها كل ما دار من أحداث ترتيب وقوعها بمثل هذا الإطناب.
ما دامت الأفكار قد ألفتها مثلما ألفتني.

- هل تقول لا؟

قلت دون أي تردد رغم ما في ذلك من مشقة:

- إنها لم تندير أمرها بعد. لا زال ثمة أمل.

ضحكت «فونج»:

- تقول «أمل» بمثل هذا الوجه الكظيم.

أفقت عند قدمي ككلب وفي أمام قبر أحد الصليبيين، تعدل لي
الأقبون، وتساءلت ماذا عملي أقول لـ «بابل». بعد أن فرغت من
تدخين أربعة غلايين أحسست أنني أكثر استعداداً للعلاقة المستقبل
قلت لها إن الأمل شيء، خير، فزوجتي تستشير محامياً، وإنني أفتط
منذ اليوم بريقة الخلاص.

- إنها لا نهم كثيراً. فإنك تستطيع أن تتخذ قراراً.

قالت عبارتها هذه، وخُبل إلي أنني أسمع صوت أختها يتكلم
على لسانها.

- ليست لدي أي مدخرات. ولا أستطيع أن أزيد على «بابل».

- لا تبتس، قد يحدث شيء ما. فهناك دائماً طرق للخلاص. تقول

أختي إن بوسعك صرف بوليصة التأمين على الحياة.

وسرحت بفكري، كم هي واقعية إذ لا تقلل من قيمة النقود. ولا

نحاول أن تلجأ إلى الحدث المبهرج عن الحب وما يصنعه من
معجزات.

وفكرت كم من السنين ينبغي أن يقضيها «بابل» حتى يقهر

هذا القلب الصلد، إذ كان «بايل» رومانتيكيًا. بيد أنه من المؤكد
في نفس الحالة أن الموقف سيتحسن لصالح «بايل»، فإن القسوة
«تلين» مثلما تلين العضلة إذا كف المرء عن استخدامها بعد ألا
يكون له بها حاجة. أما الرجل الثري فيستطيع أن يفوز ببغيته بكلتا
الطريقتين.

وفي ذلك المساء وقبل أن تغلق المحال الموجودة في شارع
ثانينات أبوابها اشترت «فونج» ثلاثة إشارات أخرى حريرية.
فعدت على السرير، وبسطتها أمامي، وهي تصبح لمرأى ألوانها
الزاهية، وتعلأ فراغ الحجرة بصوتها الغنائي. ثم طوحتها برفقة وعناية
، وضعتها مع عشرات أخرى في درجها.

بدت وكأنها تود أن تضع أساسًا لبيت متواضع. أما أنا فوضعت
الأساس المجنون لبني بأن كتبت رسالة في تلك الليلة ذاتها إلى
«بايل»، مستلهمًا ما يعطيه الأفيون للمرء من بصيرة ووضوح
لا مسبيل إلى الركون إليهما، وهذا ما كتبه. (عُثرت على الرسالة
في ذلك اليوم مطوية بين صفحات كتاب «دور الغرب» لـ«يورك
هاردنج». لا بد أنه كان يطالع هذا الكتاب وقت وصول رسالتي
إليه. أو ربما كان يتحملها كمؤشر للكتب ثم لم يقدر له أن
يواصل اطلاعه).

كتبت له: «عزيزي «بايل»، وراودتني نفسي أن أكتب إليه هذه
المرة فقط «ألدين». ذلك أن رسالتي هي في نهاية الأمر
رسالة مذاكرة لها بعض الأهمية، وتختلف قليلًا عن سواها من رسائل
المداينة من حيث إنها تتضمن أكذوبة.

عزيزي «بايل» ،

كنت أتوي أن أكتب إليك من المستشفى لأشكرك على تلك الليلة . لقد أنقذتني من نهاية غير مريحة لحياتي .
وهانذا بدأت أتحرك ثانية متوكلًا على عصا ، وواضح أن
الكسر أصاب مكانًا ملائمًا تمامًا ، وأن السن لم تمتد بعد
إلى عظامي لتصبح هشة . يلزمنا أن نقيم معًا في وقت
ما احتفالاً بهذه المناسبة .

وجمد القلم عند تلك الكلمة ، ثم ما كان مني إلا أن فعلت مثلاً ،
تفعل النملة إذا ما صادفها عائق في طريقها فدرت حول الموضوع ،
متخذًا طريقًا آخر .

لدي مناسبة أخرى للاحتفاء بها . وأعلم أنك سر
بها كذلك ، إذ كنت تقول لي إن مصالحي «فونج» هي
ما يتيحه كلانا . وجدت بعد عودتي رسالة تنظرني من
زوجتي ولقد قبلت بشكل أو بآخر أن تتعصل عني ومن
ثم ، فليس لك أن تضيق بعد الآن بخصوص «فونج» .

لقد كانت عبارة قاسية . بيد أنني لم أدرك ما فيها من قوة إلا بعد أن
أعدت قراءة الرسالة ، ولكن الوقت كان متأخرًا تمامًا لتغييرها . ولم
كان لي أن أمحوها فمن الأفضل أن أمزق الرسالة .
سألت «فونج» :

ـ أي إشارب تفضليه على غيره ؟

ـ أنا أحب الأصفر .

ـ أجل الأصفر . انزلي إلى الفندق وضعي هذه الرسالة في صندوق
البريد .

ألفت نظرة إلى العنوان:

- بومسي أن أخذها إلى المفوضية إذ إن هذا سيوفر عليك طابع البريد.

- أفضل أن تضعها في صندوق البريد.

ثم استلقيت على ظهري، ومع ما يمنحه الأفيون من استرخاء، أت أسرح بفكري. إنها على أقل تقدير لن تركني الآن قبل أن أحل. وربما أفكر غداً، وبعد بضعة غلايين، في طريقة ما للبقاء.

(٢)

الحياة العادية تأخذ مجراها، وفي هذا راحة لكثير من عقول البشر. فلما ثبت أن الإنسان أثناء القارة الجوية يستحيل أن يمتلكه الخوف طوال الوقت، فإنه كذلك تحت قصف المهام الروتينية والمناوشات العرضية وهموم الغير ينسى خوفه الذاتي لساعات متصلة. أفكاري عن أبريل المقبل ومغادرة الهند الصينية والمستقبل الغامض من دون «فونج» أثرت عليها البرقيات اليومية ونشرات الصحافة الفيتنامية ومرضى مساعدي، وهو رجل هندي يُدعى «دومنجيز». (نزحت عائلته من جوا عن طريق بومباي) كان يحضر نيابة عنى المؤتمرات الصحفية الأقل شأنًا، ويعبر أذناً مرهقة تلتقط الدلالات الخفية للثرثرة والإشاعة، واعتاد أن يحمل رسائلي إلى مكتب التلغراف والرقابة. كان يستعين بوجه خاص ببعض التجار الهنود الذين يقطنون في

مناطق الشمال وهافونج ونام دين وهانوي لمزاولة عمله كجها.
مخابرات لصالحى. وأحسب أن معلوماته عن مراكز تجمع كتنا:
«الفيتمه» داخل دلتا تونكين كانت أدق من معلومات القيادة العا:
للقوات الفرنسية.

ونظرًا لأننا لم نكن نستفيد من معلوماتنا إلا بعد أن أصبح أخباء،
ولم نعرض إطلاقًا أي تقارير على المخابرات الفرنسية، فقد حاز نه
وصداقة العديد من عملاء «الفيتمه» الذين كانوا يختبئون في حمر
شولون باييجون، وساعد على ذلك دون أدنى شك حقيقة وضعه
كآسيوي رغم طبيعة اسمه.

كنت شغوفًا بـ«دومنجيز»، فبينما نجد الآخرين يحملون كبرياءه،
على السطح كأنها مرض جلدي تؤذيه اللمسة الخفيفة كانت كبرياءه،
بعيدة الغور، وقد اخترلت فيما أظن إلى أقل قدر ممكن بالذباب.
إلى أي إنسان آخر. كل ما تصادفه منه في انصالاتك اليومية معه،
الرفقة والتواضع والحب المطلق للحقيقة. ربما كان عليك أن تعاش،
معاشرة وثيقة لكي تكتشف الكبرياء. ولعل الحقيقة والتواضع يسرا.
معًا جنبًا إلى جنب لأن أكثر الأكاذيب مصدرها كبرياءنا، ففي «مهمتي»
تلقى كبرياء المخبر الصحفي، حيث الرغبة في تليفين رواية تغضد
رواية الآخرين. كان «دومنجيز» هو الذي علمني ألا أعبا بذلك،
وأرفض كل تلك البرقيات التي ترد إلي من بلادتي تستجوب ع
السبب في أنني لم أعط رواية كذا وكذا، أو لم أذكر ما ورد في نقد
لشخص آخر أعلم أنه مناف للحقيقة.

وعرفت إلى أي حد أنا مدين له بعد أن ألم به العرض، كان يعنبر.

من مجرد معرفة أن سيارتي مليئة بالوقود. ومع ذلك فلم يحدث
 ، أو في مرة واحدة أن تناول، سواء بالكلام أو النظر، على حياتي
 الخاصة. أعتقد أنه كان كاثوليكيًا رومانيًا. بيد أنني لم أجد دليلًا على
 ذلك فيما عدا اسمه ومهبط رأسه. كل ما عرفته عنه من محادثاته أنه
 . بما كان يعد كريسنا أو يسافر لأداء شعائر الحج ونُحس بمخاض
 . لكن عند كهوف «بانو». وجاء مرضه رحمة لي إذ أنقذني من طاحونة
 «مي الذاتي». أصبح لزامًا عليّ الآن أن أتابع المؤتمرات الصحفية
 المضنية، وأن أظل مقيدًا بمائدتي في «الكونتستال» للثرثرة مع أقراني.
 . «أني كنت أقل كفاءة من «دومنجيز» في تبيان الحقيقة من الزيف.
 . «لكن فقد عودت نفسي أن أعود في المساء وأناقش معه كل ما سمعته.
 . حدث ذات مرة أن كان معه أحد أصدقائه الهنود، وقد جلس بجوار
 السرير المعدني في المسكن الذي يقطن «دومنجيز» جانبًا منه، الكائن
 في أحد الشوارع المتواضعة بعيدًا عن بوليفار جاليني. كان يتخذ في
 سرير «جلسة محتدلة»، وقد عقد ساقيه نحته. بحيث لا يدور بخلدك
 أنك تعود مريضًا، وإنما تجلس في ضيافة مہراجا أو قيس. ذات
 مرة اشتدت عليه وطأة الحمى وغطى العرق وجهه بيد أنه لم يفقد
 أبدًا ما يتسم به من وضوح في الفكر. كان وكان مرضه ألمً بجسد
 إنسان آخر غيره. وكانت صاحبة البيت تقف بجانبه ممسكة بعصير
 ليمون طازج، ولكن لم أره مرة يشرب ولو جرعة واحدة. ربما كان
 ذلك يعني أنه يسلم بأن العفش إنما هو عطشه الخاص، وأن الجسد
 الذي يكابد الألم جسده هو.

نعمة يوم واحد هو اليوم الذي أذكره على وجه التخصيص من بين

كل الأيام التي عدته فيها. فقد أفلحت عن أن أسأله عن حاله، خوفاً من أن يبدو سؤاله كأنه نوع من التقرع، وكان هو الذي يسألني دائماً وباهتمام بالغ عن صحتي ويعتذر عن المسلم الذي اضطر إلى ارتدائه. قال لي يومذاك:

- أود منك أن تلتقي بصديق لي. إذ لديه قصة يحسن بك أن تسمعها منه.

- نعم؟

- كتبت لك اسمه لأنني أعرف ما تجده من مشقة في حفظ الأسماء الصينية. وطبعاً يجب ألا نستخدم اسمه. إنه يملك مستودعاً لخرقة الحديد في كاي ميثو.

- أهناك ما يهم في الموضوع؟

- ربما.

- هل لك أن تعطيني فكرة؟

- أفضل أن تسمع منه. فثمة شيء غريب بيد أنني لم أفهمه.

كان العرق يتصبب من وجهه، إلا إنه تركه يسيل، وكأن قطراته شيء حي ومقدس، فقد كان يغلب عليه طابع الهندوس، لم يرتض لنفسه أن يعرض حياة ذبابة للخطر. قال:

- هل تعرف الكثير عن صديقك «بايل»؟

- ليس بالقدر الكافي. إننا نصادف أحداً آخر، هذا كل ما نرى الأمر. لم أراه منذ كنا في تانين.

- ما عجله؟

- البعثة الاقتصادية، بيد أن هذه تخفي وراءها كثيراً من الخطايا

أحسبه معنيًا بشؤون الصناعات المحلية هنا. وأعتقد أن هذا العمل وثيق الصلة بالشؤون والمصالح الأمريكية. وأنا لا أحب أسلوبهم في شغل الفرنسيين بالحرب، بينما يمضون في خفاء في أعمالهم الخاصة.

.. سمعته ذات يوم يتحدث في حفل أقامته المفوضية لبعض الزوار من أعضاء الكونجرس. وقد طلبوا منه أن يقدم تلخيصًا لموقف.

.. كان الله في عون الكونجرس. إنه لم يقضي في البلاد ستة أشهر بعد.

.. كان يحدثهم عن القوى الاستعمارية القديمة، إنجلترا وفرنسا، وكيف أنكما لم تأملا الفوز بثقة الآسيويين. وأن أمريكا قدمت إلى هنا بأيدي نظيفة.

.. هونولولو، هورتوريكو، نيومكسيكو.

.. وسأله أحدهم سرًا تقليديًا عن فرص الحكومة القائمة هنا للمقضاء على «الفيثمنه» في وقت ما، وقال إن قوة ثالثة هي القدرة على ذلك. لا بد أن نعمل دائمًا على إيجاد قوة ثالثة منحررة من الشيوعية ولا تشوبها شائبة الاتجاه الاستعماري، وهو ما سماه «الديمقراطية القومية». ليس عليكم إلا أن نهتدوا إلى زعيم وتؤمنوه من القوى الاستعمارية القديمة.

.. كل هذا تتضمنه مؤلفات «يورك هاردينج»، لقد قرأها قبل أن يغادر بلاده إلى هنا وقد حدثني عنها في أسبوعه الأول ولم يتعلم شيئًا من وقتها.

- ربما اهتدى إلى زعيمه.

- وهل ثمة ما يهم في أمره؟

- لست أدري. أنا لا أعرف ما الذي يفعله. ولكن اذهب ونسأ

إلى صديقي في كاي ميثو.

عدت إلى البيت لأترك مذكرة لـ «فونج» في شارع كانبو.

ثم أخذت طريقي بالسبارة إلى الميناء لأصل إلى هناك مع غر

الشمس. كانت الموائد والمقاعد متراحة على الميناء بجانب الـ

البخارية وأسطول القوارب المادية والمطابخ المتنقلة الصغير

أوقدت نيرانها وتصادت منها حلقات البخار.

وفي بوليفار دو لا سوم استظل الحلاقون بالأشجار وانهمكوا

عملهم. وجلس العرافون القرفصاء وظهورهم مستند إلى الجدران.

وأمامهم حزم من أوراق اللعب المتسخة. في شولون أنت في

مختلف تمامًا. الناس فيما يبدو يفضلون أن يبدأوا عملهم مع نها

النهار بدلًا من أن ينتهوا منه في ذلك الوقت. كالدخول في قلب نمسا

صامتة، الإشارات الصينية الرأسية الطويلة، والأضواء انساطه

والحشود المتزايدة تدفعك إلى المسير في الطرف الفرعية، حد

أصبح كل شيء فجأة أكثر وجوعًا وهدوءًا. قادني أحد هذه الطر

الفرعية إلى الميناء ثانية. وحشود من مراكب «السامبان»، حيث كان

مخازن السلع تشاءب في الظل ولا أحد هناك.

اهتديت إلى المكان بعد لأي وعن طريق الصدفة في الغالب.

ألفت بوابات المستودع مفتوحة. وعلى ضوء مصباح قديم استطع

أن أنبين أكوام المخردة وقد اتخذت أشكالًا غريبة كأنها لوحات

«كاسو». ففني الأماكن التي سقط عليها الضوء رأيت أسرة
 امواض استحمام وأوعية وأغطية سيارات ورقائق معدنية عليها
 «أيات فديجة. اتخذت طريقي نازلاً عبر معر ضيق في مكان حجري
 . اب. ناديت على السيد «شو» دون أن يرد عليّ أحد. وفي نهاية
 «سندود ألفيت سلماً قادني إلى ما خُصّت أنه بيت السيد «شو»
 . و أنني توجهت إلى الباب الخلفي، وعرفت أن «دومنجيز» كانت
 «مررته. وإذا بالنسلم أيضاً قد صُفّت بجانبه بعض الخرزة التي قد
 مسح ذات فائدة يوماً ما في هذا البيت الذي يشبه عش الغراب.
 مدت حجرة فمبحة عند نهاية السلم جمعت أسرة كاملة انكب كل
 «أدها في عمل ما، بجو معسكر يتوقع هجوماً في أي لحظة. تناثرت
 «أح شاي صغيرة هنا وهناك، وكمبات كبيرة من علب الكرتون ملئت
 أشياء متنوعة غير معروفة، وحفائب من «الفبر» مربطة.

كانت هناك امرأة عجوز جالسة فوق سرير عريض، وولدان، وستان،
 «طفل يحبو على الأرض، وثلاث سيدات في متوسط العمر مرتديات
 سترات وسراويل ريفية بنية اللون. في أحد الأركان رأيت شيخين
 «ارنديا معطفين حريريين لونهما أزرق من معاطف كبار الموظفين،
 «بلعبان لعبة «الماجونج». لم يعر أيّ منهما اهتماماً لمقدمي. لعبا
 بسرعة خاطفة، يحددان القطعة بمجرد اللمس، وضواؤهما تشبه
 صوت دحرجة الحصباء على شاطئ بحر بعد انحسار الموج. مثلما
 فعل الشيخان لم يعرني أحد من الباقين أي اهتمام اللهم إلا فطة قفزت
 فوق صندوق من الكرتون. وكلب ضامر أخذ يشمني ثم ولّى عني.
 سألت: «السيد «شو»؟»

هزت سيدتان رأسيهما، وظل الجميع على حالهم سوى تلاء المرأة التي كانت تغسل كوبًا. ثم أفرغت بعض الشاي من إناء دا، لا يزال ساخنًا داخل صندوقه المعطرز بالحريز. جلست على طرف السرير بجوار السيدة العجوز وناولتني فتاة قدح الشاي. وخلت أنف اندمجت وسط هذه الجماعة مع القطعة والكلب اللذين ربما أتيا إل هنا عن طريق الصدفة على نحو ما حدث لي. واجتاز الطفل أرضه الحجرية حبوًا، وشرع يجذب رباط حذائي دون أن يزره أحد، ففي بلاد الشرق لا يزر أحد الأطفال. ألغيت ثلاثة تقاويم تجار، معلقة على الجدران، وقد رسم على كل منها صورة لفتاة مرنة، ستره صنية، ولها وجتان وضاءتان. وثمة امرأة كبيرة، ومن الغرب أنه كان منقوشًا عليها عبارة «قهوة السلام»، ربما أخذت طريقها إلى المستودع عرضًا، وهو ما كنت أشعر به بالنسبة لنفسي.

احتسيت على مهل الشاي الأخضر المر. كنت أنقل الكوب من يد إلى أخرى كلما سمعت حرارته أصابعي. ترى إلى مني سيطول بي المكث هنا. حاولت التحدث إلى الأسرة بالفرنسية وسألت متى يتوقعون مقدم السيد «شو». إلا إن أحدهم لم يجب عليّ، من المحتمل أنهم لم يفهموا حديثي. بعد أن فرغ كوبي ملى ثانية. وواصل كل عمل: امرأة تكوي بعض الثياب، وفتاة تحيك، والولدان متكبان على دروسهما، والمرأة العجوز تتطلع إلى قدميها، هاتين القدمين الضيلتين اللتين عطل نموهما كما هو معروف في الصين القديمة، والكلب يرقب القطعة التي لزمّت مكانها فوق صناديق الكرتون.

وبدأت أدرك مدى المشاق التي يتكبدها «دومنجير» من أجل أن يحيا حياة الكفاف.

ودخل الغرفة وجلس صيني أضواء النحول حتى يُخيّل إليك أنه لا يشغل حيزًا على الإطلاق، كان نحيلًا كورقة تفصل بين أفراس السكويك داخل العلبة. وربما كان الشيء الوحيد الذي له سُمك هو بيجامته المخططة المصنوعة من القاتلة. وسألته:
- السيد «شو»؟

ونظر إليّ نظرة المدمن اللامبالية، وجنتان غائرتان، ومعصما للفعل، وذراعاه فتاة صغيرة. لا بد أن أعوامًا طويلة وغلايين كثيرة هي التي جعلته يتضاءل إلى هذه الدرجة. قلت له:
- قال لي صديقي «دومنجير» إن لديك ما تريد أن تعرضه عليّ.
هل أنت السيد «شو»؟
قال:

- أوه، نعم.

كان هو السيد «شو». ولوّح لي في وقفة لكي أعود وأجلس مكاني. وأكد أقول إن موضوع زيارتي قد تاه في أحد الدهاليز المعبأة بالدخان داخل جمجمته. هل لي في قدح من الشاي؟ زيارتي له أسبخت عليه شرفًا كبيرًا. غل قدحًا آخر وأفرغ ماء الفيل فوق أرضية الحجر ووضّع بين راحتي كأنه جمرة مشتعلة. الامتحان عن طريق الشاي. أبديت ملاحظة عن حجم أسرته.

نظر حواليه وقد ارتسمت عليه معالم دهشة خفيفة كأنه لم يسبق له أن رآها على هذا النحو من قبل. قال:

- أمي وزوجني وأختي وعمي وأخي وأطفالي وأطفال خالتي
تدحرج الولد بعيدًا عن قدمي وقد استلقى على ظهره يرفس
ويصرخ. ونساءت في نفسي تُرى من يتبع هذا الطفل فليس منهم
من هو شاب بالقدر الكافي، أو عجوز بالقدر الكافي، لينجبه.
قلت:

- أخبرني السيد «دومنجيز» بأنه موضوع هام.
- أوه، السيد «دومنجيز». أرجو أن يكون السيد «دومنجيز» بخير؟
- ألمت به حمى.
- هذا هو موسم الأمراض السنوي.
لم أكن مقتنعًا أنه تذكر من هو السيد «دومنجيز». بدأ يعمل. نحن
سترة بيجامته التي سقط منها زراران، بدا جلده المشدود يرن كال
طبلعة من تلك التي تعرفها بلادهم. قلت له:
- يحسن بك أن تعرض نفسك على طبيب.
انضم إلينا واقد جديد لم أسمعه وهو يدخل إلينا. كان شابًا أنيق.
الهندام يرتدي ملابس أوروبية. قال بالإنجليزية:
- للسيد «شو» رثة واحدة.
- آسف جدًا...
- يدخلن مائة وخمسين غليونًا كل يوم.
- هذا عدد كبير.
- يقول الطبيب إن هذا ليس في صالحه، بيد أن السيد «شو» يشد
بسعادة كبيرة وهو يدخلن.
رُمت بصوتي علامة الفهم.

- إذا كان لي أن أقدم نفسي فأنا مدير أعمال السيد «شو».
- اسمي «قاو لير»، أرسلني السيد «دو منجيز». قال لي إن السيد
«شو» لديه ما يريد أن يفضي به إليّ.
- إن ذاكرة السيد «شو» ضعيفة جدًا، هل لك في كوب من الشاي؟
- شكرًا، فقد شربت ثلاثة أكواب.

ورنت هذه الكلمات كأنها سؤال وجواب وردًا في كتاب يُعلم
م كيب الجمل.

أخذ مدير أعمال السيد «شو» الكوب من بين يدي، وناوله لإحدى
الفتيات التي أُلقت ما فيه من بقايا على الأرضية، ثم عادت وملأته
من جديد.

قال:

- إنه ليس شايًا ثقيلًا بما فيه الكفاية.
أخذه وتذوقه بنفسه، ثم أفرغه وغسله بعناية، وملأه ثانية من إيريق
آخر للشاي. سألتني:
- أهذا أفضل؟
- أفضل بكثير.

تنحى السيد «شو» ولكن لم يكن ذلك إلا لكي يصبق كمية كبيرة
من البلغم في مبصرة من الصفيح زُينت بمرسوم لزهرات القرنفل. ظل
الطفل يتدحرج جيئةً وذهابًا بين بقايا الشاي. قفزت القطعة من فوق
أحد الصناديق الكرتون إلى إحدى الحفائب.

قال الرجل الشاب:

- ربما يكون من الأفضل لو تحدثت معي، اسمي السيد «هنج».

- إذا كان لك أن تخبرني...

قال السيد «هنج»:

- سننزل إلى المستودع، فالمكان هناك أكثر هدوءًا.

مددت يدي للسيد «شو» وتركتها لترتاح بين راحتيه، وفي عينية نظرة تنم عن الحيرة. ثم حملني بنظره إلى ما حوله في الغراء المزدحمة، وكأنه يريد لو وجد لي مكانًا ملائمًا فيها.

وانحسرت عنا أصوات الحصباء المتدحرجة ونحن نهبط درج السلم. قال السيد «هنج»:

- كن حذرًا، فالدرجة الأخيرة من السلم ناقصة.

أضياء مصباحًا يدويًا لأهبط على هديه.

عدنا ثانية لنمشي بين هياكل الأسيرة وأحواض الاستحمام، وساء السيد «هنج» مرورًا جانبيًا، وتوقف بعد عشرين خطوة تقريبًا وأسدء مصباحه على أسطوانة حديدية. قال:

- هل ترى تلك؟

- ماذا عنها؟

قلبها وأراني علامتها التجارية: «ديولاكتون».

- ما زلت لا أفهم شيئًا عنها.

- عندي هنا أسطوانتان من ذلك النوع، عثرت عليهما بين بعض

المخلفات من جراج السيد «فان فان موي»، تعرفه؟

- لا، لا أظن ذلك.

- زوجته إحدى قريبات الجنرال «تي».

- لم أفهم بعد ما فيه الكفاية...

- هل تعرف ما هذه؟

سألني السيد «هنج» وهو ينحني ليرفع شيئًا مقعرًا طويلًا أشبه
مذكرفس أخذ يلعب على ضوء مصباحه كأنه من معدن الكروم.
- ربما كان أحد لوازم الحمام؟
- إنه قالب.

كان من الواضح أنه من النوع الذي يجد متعة تثير الملل في تقديم
مأواهاته. وصمت هنيهة ليتبين جهلي ثانية.

- هل تفهم ماذا أعني بكلمة «قالب»؟

- أوه نعم بالتأكيد. ولكن لا زلت لا أفهم.

- هذا القالب مصنوع في الولايات المتحدة الأمريكية. وكلمة
«ديولاكتون» هي علامة تجارية أمريكية. هل بدأت تفهمني؟
- صراحة، لا.

- ثمة شرح في القالب. لهذا القوابه. ولكن ما كان ينبغي أن يلقوا به
ضمن المخلفات، وكذلك الأسطوانة. هذه غلطة. ولقد أتى إلى
هنا مدير أعمال السيد «موي» شخصيًا. ولم أتمكن من العثور
على القالب بيد أنني أعدت له الأسطوانة الأخرى وقلت له إن
هذا هو كل ما عندي. قال لي إنه بحاجة إليها لحفظ بعض المواد
الكيميائية. ولم يسأل بالطبع عن القالب، وإلا لكان هذا مدعاة
سخرية شديدة، بيد أنه قام بعملية بحث دقيقة. بعد ذلك اتصل
السيد «موي» بالمفوضية الأمريكية وسأل عن السيد «بايل».
- يبدو أنك تعمل بالمخابرات.

كنت لا أزال عاجزًا عن تصور ماذا وراء كل هذا.

- طلبت من السيد «شو» أن يتصل بالسيد «دومنجيز».

- تحني أنك تأكدت أن ثمة رابطة ما بين «بايل» والجنرال. ماذا تافهة، فليس في هذا جديد على أي حال، كل إنسان هنا يذهب إلى المخابرات.

ضرب السيد «هنج» بكعبه الأسطوانة الحديدية السوداء. وأحدث صوتاً سرت فبذباته في هيكل السرير. قال:

- أنت إنجليزي يا سيد «فاولر». فأنت محايد. لقد كنت منصفاً بالنسبة لنا جميعاً. تستطيع أن تتعاطف مع البعض منا لو أن أحسن بميل قوي تجاه أي جانب من الجوانب.

- إذا كنت تلمح بأنك شيوعي أو من قوات «الفيتمين» فلا تهـم. ليس في ذلك ما يصدمني. أنا لا أؤمن باتجاه سياسي معين.

- لو حدث أي شيء غير سار هنا في سايجون فإن اللوم سيفع عليّ. نحن. إن لجيتي تود منك أن تكون لك نظرة مبرأة عن الغرض وهذا هو السبب الذي من أجله عرضت عليك هذه وتلك.

- ماذا تعني «ديولاكتون»؟ إنها تعطي معنى يقارب اللبن المكثف. إن لها علاقة باللبن.

أسقط السيد «هنج» ضوء مصباحه داخل الأسطوانة. كان ثمة قلب من المسحوق الأبيض منتزاً على القاع كأنه غبار. قال:

- إنها واحدة من البلاستيك الأمريكي.

- نمت إلى سمعي إشاعة تفيد أن «بايل» كان يستورد البلاستيك لصنع لعب الأطفال.

والنظمت القالب بين يدي وتفحصته. حاولت بفكري أن أستوحي

نكته. لم تكن هذه هي الصورة نفسها التي يكون عليها الشيء. إنها
صورة مقلوبة من مرآة. قال «هنج»:
- ليس من أجل لعب الأطفال.
- إنها تشبه أجزاء من قضيب.
- الشكل غير مألوف.
- لا أستطيع أن أبين الغرض منه.
واستدار السيد «هنج» وقال وهو يحشي عائدًا بين تلال أكوام
المخلفات:

- كل ما أرجوه منك أن تعي ما رأيته. إذ ربما تجد في يوم ما سببًا
يدعوك إلى الكتابة عنه. ولكن يجب عليك ألا تقول إنك رأيته
الأسطوانة هنا.
- ولا القالب؟
- ولا القالب على وجه التحديد.

(٣)

ليس عسيرًا ذلك اللقاء الأول مع شخص - كما يُقال عادة - أنقذ
حياتك. لم أكن قد رأيت «بايل» منذ كنت بالمستشفى العسكري.
إن غيابه وصمته وهما من الأمور التي يسهل تفسيرها، (إذ كان
أكثر مني حساسية للمواقف المحرجة) يثيران ضيقي إلى درجة
غير معقولة. حتى إنني كنت أثناء الليل وقبل أن تؤثر في الحبوب

المنومة بمفعولها المهدئ أنخيله صاعدًا درج السلم يطرُق ما
ويستلقي في سريري. وهكذا أضفت إحساسًا بالذنب إلى الترتيم
الأخر الأكثر شكلية. وأحسب أن ثمة ذنبًا آخر وهو ذنب رسالتي
(تُرى من هم أسلافني القدماء الذين أوروثنوني هذا الضمير الأبله)،
المؤكد أنهم كانوا أبرياء منه وقتما كانوا يعيشون في عالمهم الغاء
على الاغتصاب والقتل).

كنت أنساءل أحيانًا، أيا حسن أن أدعو متقذي إلى العشاء أم أ
أفترج عليه لقاء للشراب في بار «انكونننتال»؟ لقد كانت مشاعر
اجتماعية غير مألوفة، وربما تتوقف على القيمة التي يعطيها الإنسان
لحياته. وجبة أم زجاجة؟ نبذ أم كأسان من الوبسكي؟ لقد أمضيت
هذه المشكلة لعدة أيام. إلى أن حلها «بابل» بنفسه حين جاءني ونادى
عليّ من وراء بابي الموصد. كنت ساعتها - وهي فترة القيلولة بعد
الظهر - نائمًا، وقد أنهكتني الجهد الناتج عن استعمال ساقي صباحًا،
ولم أسمع طرقاته.

«توماس»، «توماس». تداخل النداء مع حلم رأيت فيه أني
أسير في طريق طويل قفر أبحث عن منعطف ولا أجده. وامتد بر
الطريق على استقامته كأنه شريط طويل متجانس. وخُيل إليّ أنه
كان ليتغير لو لم يقتحمه الصوت، بدا أول الأمر كأنه صوت بش
من الألم في أعلى أحد الأبراج ثم استحال إلى صوت يتحدث إلى
شخصيًا: «توماس»، «توماس».

قلت بصوت مدغوم هامس: «إليك عني يا «بابل». لا تقترب مني.
لا أريد من يتقذني».

«توماس»، كان يطرق الباب بيد أن النوم كان يغالبني وأحسنت
 «ما الأيام عادت بي إلى حقل الأرز وتمثل كأنه عدواني. أدركت
 «هأنذا أن الطوق قد توقف، وأن ثمة شخصًا بالخارج يتكلم بصوت
 «بعض ويجيب عليه شخص ما. إن الهمسات لها دلالتها الخطيرة،
 «لا يسعني أن أقول من هم المتحدثون. ونهضت من سريري في
 «درا، وتوكلت على عصاي حتى بلغت باب الحجر المجاورة.
 «ما كنت أتحرك بسرعة كبيرة. وسمعتني من الباب، فساد الصمت
 «المحرج، صمت أشبه بنبات متسلق ينشر خيوطه، خلته ينمو ليمتد
 «عقب الباب وينشر أوراقه داخل الحجر حيث أتخذ مكاني
 «أعما. كان صمتًا لا يروفتني وفرفته بأن فتحت الباب في عنف. وإذا
 «بـ«نيج» واقفة في العمر و«بايل» يضع يديه على كتفيها، دخلت من
 «معهما أنهما ربما افترقا عن قبلة.

قلت:

«آه، ادخلا، ادخلا.

«عجزت عن أن أسمعك صوتي.

«كنت نائمًا في أول الأمر، ثم لم أكن أريد ما يغلقني، ولكن هأنذا

قد أفلقت، ومن ثم فادخلا.

قلت بالفرنسية موجهًا حديثي لـ«فونيج»:

«من أين التقطته؟

قالت:

«هنا في العمر، سمعته يطرق الباب فصعدت الدرج عذرا لأدخله.

قلت لـ«بايل»:

- اجلس، هل لك في بعض القهوة؟
- لا، كما أنني لا أريد الجلوس يا «توماس».
- أما أنا فلا بد لي من الجلوس، فهذه المساق متعبة. هل واصلت رسالتي؟
- نعم، ليثك ما كتبها.
- لماذا؟
- لأنها رزمة من الأكاذيب، كنت أثق فيك يا «توماس».
- لا يجدر بك أن تثق بأي إنسان ما دام بينك وبينه امرأة.
- إذن فأنت لست بحاجة إلى أن تثق بي بعد الآن، سأصعد إلى هنا خفية ونمتا نكون بالخارج، وسأكتب رسائل بالآلة الكاتبة وأضعها في مظاريف. ربما سأشيب عن الطوق يا «توماس» ولكن كانت الدموع تنخلل صوته، وبدأ أصغر مما كان دائماً.
- أما كنت تستطيع أن تغوز بغير الكذب؟
- لا، هذه ازدواجية أوروبية يا «بايل»، علينا أن نتحایل لتدبر ..
- ينقصنا، وربما أكون أحق رغبم ذلك. كيف حددت الأكاذيب؟
- إنها أختها، فهي تعمل الآن عند «جو». رأيتهما الآن تَوَّاه. وهو تعرف أنك استدعيت إلى بلادك.
- قلت وقد أحسست براحة:
- أوه، وما هي «فونج» تعرف ذلك أيضًا.
- والمخطاب الذي بعثت به زوجتك إليك؟ هل تعرف «فورج» شيئاً عن ذلك؟ لقد رأته أختها.
- كيف؟

- جاءت إلى هنا لمقابلة أختها وقتما كنت بالخارج أمس وعرضته
«فونج» عليها. إنك لا تستطيع خداعها، فهي تقرأ الإنجليزية.
- فهمت.

لم يكن ثمة ما يدعوني لأغضب من أي إنسان، فمن الواضح تمامًا
أ. أنا الأثيم. ومن المحتمل أن «فونج» لم تعرض الخطاب إلا من
أب التواضع، لم يكن هذا منها بمثابة علامة تدل على عدم الثقة.
سألت «فونج»:

- هل عرفتِ كل هذا ليلة أمس؟

- أجل.

- لاحظت أنك كنتِ هادئة.

ثم لمعت ذراعها وقلت:

- أي غضب استحوذ عليك، لكنك يا «فونج» لست روحاً غاضبة.
قالت:

- كان عليّ أن أفكر.

تذكرت كيف كانت مسهدة بالليل، وكيف عرفت أنها لم تكن
نائمة من تنفسها غير المنتظم فبسطت لها ذراعي وسألتها بالفرنسية:
«الكابوس»؟ فقد اعتادت أن تعاني من الكوابيس عندما جاءت لأول
مرة إلى شارع كاتينات. بيد أنها بالأمس هزت لي رأسها عندما
استفسرت منها. وأدارت لي ظهرها. وأسندت ساقي إليها، الحركة
الأولى في عملية المضاجعة. لم يستريح انتباهي حتى في ذلك الوقت
أن ثمة خطأ قد حدث.

- ألا يمكنك يا «نوماس» أن تفسر لي، لماذا...

- من المؤكد أن الأمور بات واضحة بما فيه الكفاية، أريد أن أحصلها بها.

- مهما كانت التكاليف بالنسبة لها؟

- بالطبع.

- ليس هذا حبًا.

- ربما ليست هذه طريقتك في الحب يا «بايل».

- وأنا أريد أن أحميها.

- وأنا لا أريد. إنها بغير حاجة إلى حماية. أريدها إلى جاني.

أريدها في فراشي.

- رغما عنها؟

- إنها لن تمكث عن غير إرادتها يا «بايل».

- إنها لا تستطيع أن تحبك بعد هذا.

كانت أفكاره بسيطة إلى هذا الحد. استندرت لأنظر إليها. كان.

قد دخلت حجرة النوم، وإذا بها تسوي ملاءة السرير حيث كتب.

راقداً. ثم أخذت أحد كتبها المصورة من فوق رف، وجلست على

السرير وكان حديثنا لا يعنيها أبداً. وأستطيع أن أقول أي كتاب هذا.

سجل مصور لحياة الملكة. استطعت أن أرى الصورة المقلوبة للعرس

الملكية في طريقها إلى وستمنستر.

قلت له:

- «الحب» كلمة غريبة. نستخدمها لأسباب عاطفية، أو لنخدم

بها رغبة تستبد بنا في امرأة ما. إنك ستضر نفسك يا «بايل».

لم تكن حذراً.

- لولا هذه الساق لتنازلت.

- يحسن بك أن تكون ممتناً لي ولأخت «فونج» بالتأكيد. بوسعك الآن أن تمضي في طريقك دون أي تأنيب ضمير خاصة وأنت ذو ضمير حي للغاية بشكل ماء اللهم إلا إذا استثنينا ما يتعلق بالبلاستيك، أليس كذلك؟

- البلاستيك؟

- أسأل الله أن تكون عارفاً بما تفعله هناك. أوه، أعلم أن دوافعك طيبة، وإنها لكذلك دائماً.

نظر إليّ في حيرة وشك. قلت:

- أأمل أحياناً لو كانت لك بعض الدوافع الشريرة، فإنك بذلك تستطيع أن تفهم الشيء القليل عن البشر، ويصدق هذا بالنسبة لبلدك أيضاً.

- أود أن أهبها حياة وادعة. هذا المكان تفوح منه رائحة كربهة. - إننا نخفف الرائحة بأعواد البخور. أحبك ستقدم إليها ثلاثة وسيارة لاستعمالها الخاص، وتلفزيوناً من أحدث طراز، و... وأطفالاً.

- مواطنون أمريكيون شبان أذكياهم يعتمدون للإدلاء بالشهادة. - وماذا ستقدم لها أنت؟ إنك لم تكن تنوي أن تصحبها معك إلى وطنك.

- لا، فلست قاسياً إلى تلك الدرجة. ما لم أستطع أن أوفر لها تذكرة عودة.

- إذن عليك أن توفر لها حياة هائلة إلى أن ترحل إلى بلادك.

-إنها إنسانة يا «بابل»، وهي قادرة على أن تحسم أمرها.

- على أساس شواهد زائفة، فضلًا عن أنها طفلة.

-إنها ليست طفلة، بل إنها أشد منك مراسًا ولن تدانيها في ذلك

هل تعرف ذلك النوع من الدهان الذي لا تؤثر فيه الخدوش؟

هذه هي «فونج». إنها قادرة على أن تعمّر في الحياة أكثر من

عشرة من أمثالنا. كل ما في الأمر أنها ستصبح امرأة مسنة. فـ

تعاني من آلام الولادة والجوع والبرد والروماتيزم، ولكنها لم

تعاني مثلما تعاني نحن من الأفكار والحجز عن التعبير، لم

تصيبها الخدوش، وإنما ستذوي فقط.

ولكن بينما كنت أقول كلامي هذا وأرقبها وهي تقلب الصفح،

(صورة عائلية مع الأميرة «آن») عرفت مع ذلك أنني كنت أختار

صورة لشخصية معادلة تمامًا لشخصية «بابل». إنني لا أعرف إنسانًا

على خلاف هذه الصورة، ذلك لأن كل ما يسعني أن أقوله هو أنها

كانت فزعة مثلما كنا جميعًا كذلك، وكل ما في الأمر أنها لا تمتلك

مروية التعبير. وتذكرت عامي الأول معها، وما عانيت فيه من ألوار

العذاب وقتما كنت أحاول جاهدًا وبإخلاص أن أفهمها، وقتما كنت

أتمسك إليها أن تبوح لي بأفكارها، حتى أفزعته بغضبي الأخرق من

صمتها. بل إن رغبتني كانت سلاحًا أرجو به إذا ما أشهرت سبني

صوب رحم الضحية أن تفقد السيطرة على نفسها وتتكلم.

قلت لـ «بابل»:

- لقد قلت ما فيه الكفاية، وتعرف كل ما يمكن معرفته. أرجو أن

أن تنصرف.

نادى قائلاً:

- «فونج».

فردت متسائلة:

- السيد «بايل»؟

رفعت عينيها اللتين كانتا تفحصان صورة لقطة «وندسور». وفي هذه اللحظة بدت طريقتها في مراعاة آداب السلوك مدعاة للضحك والاطمئنان.

- لقد خدعك.

- لا أفهم شيئاً.

قلت:

- «أوه، إليك عني. اذهب إلى من تدعوهم «القوة الثالثة» و«يورك هاردنج» و«دور الديمقراطية». إليك عني واللعب بالبلاستيك. لاحقاً كان عليّ أن أقول إنه نفذ كل تعليماتي بحذافيرها.

الجزء الثالث

الفصل الأول

(١)

مضى ما يقرب من أسبوعين على وفاة «بابل» لم أرَ خلالهما «فيجور» ثانية. كنت أسير على طول بوليفار شارنر عندما ناداني صوته من «لو كلوب». وهو المطعم الذي يفضلُه على غيره في تلك الأيام كل أعضاء مكتب الأمن. واعتاد هؤلاء، كنوع من التحدي لمن يتاصبونهم الكراهية، أن يتناولوا غداهم وشرابهم في الطابق الأرضي، بينما يتناول الجمهور العادي طعامه في الأدوار العليا، حيث يكونون بعيدًا عن متناول أي ثائر يحمل قبيلة بدوية. انضمت إليه وطلب لي كأسًا من «الفرموت».

- تلاحظني؟

- إذا كان هذا يروقك.

وأخرجت نردي لألعب اللعبة الطقسية «واحد وثمانون». ومن عجب فإن هذا الرقم ورؤيتي للنرد تعبد إلى ذاكرتي سنّي الحرب في

الهند الصينية، ففي أي مكان في العالم أرى رجلين يلعبان النرد أعود ثانية إلى شوارع هانوي أو سايجون أو بين أنقاض فات ديم، وأرى جنود المظلات أمثله بيرقات الفراشات التي تتخذ من علاماتها الغريبة وقاب لها، يجوبون شواطئ القنوات في دوريات الحراسة، وأسمع صوب مدافع «الهاون» بدوي في كل مكان، وربما أرى طفلًا فارق الحياة.

قال «فيجو» بالفرنسية وهو يلقي ٤ - ٢ - ١: «من دون فازلين»، ودفع تجاهي بأخر عود ثقاب. ولقد كان استخدام المصطلحات الجنسية لهذه اللعبة أمرًا شائعًا بين كل أعضاء مكتب الأمن. ربما كان «فيجو» هو الذي ابتدعها، وأخذها عنه ضباطه الصغار الذين لم يصلوا بعد إلى مستوى قراءة «بكال». «ملازم ثان». كل لعبة تخسرها ترفع رتبك درجة، وتداوم على اللعب حتى يصل هذا أو ذاك إلى رتبة نقيب أو عقيد. كسب اللعبة الثانية كذلك وبينما كان بحصتي أعواد الثقاب قال:

- لقد عثرنا على كلب «بابل».

- حقًا؟

- أحسب أنه رفض أن يترك الجثة. على أي حال لقد قطعوا رقبته.

كان غارقًا في الطين على بعد خمسين ياردة. ربما جر جر نفسه إلى هذه المصافة.

- أما زلت مهتمًا بهذا الموضوع؟

- الوزير الأمريكي لا يفتأ يزعمنا به. نحمد الله أننا لا نواجه نفس المشكلة إذا ما لقي أحد الفرنسيين مصرعه. ومع ذلك فإن هذه الحالات ليست نادرة.

ولعبنا مقابل حصة معينة من أعواد الثقاب ثم بدأت اللعبة الحقيقية.
« كانت مجازفة خطيرة حين ألقى «فيجو» بسرعة ٤ - ٢ - ١. نقصت
أعواد ثقابه إلى ثلاثة، وألقيت أنا بأقل عدد ممكن. قال «فيجو»:
«بييت»، ودفع إليّ بعودين آخرين من أعواد الثقاب. وبعد أن تخلص
من آخر عود كان معه قال: «نقيب»، وناديت الجرسون ليُقدم لنا
المشروبات. سألته:

« ألم يغلبك أحد؟

« ليس كثيرًا، هل تريد أن تأخذ بشارك؟

« في وقت آخر. إنك لمقامر يارع يا «فيجو». هل تلعب أي لعبة
أخرى من لعب الاحتمالات؟

« ابتسم في بؤس، ولسبب ما فكرت في تلك الزوجة الشقراء التي
تعيش معه، ويُقال إنها تخونه مع صغار ضباطه. قال:
« أوه، حسنًا. هناك دائمًا من هو الأكبر من الكل.
« الأكبر؟

« واقتبس العبارة التالية:

« «لنرى الربيع والخسارة عند رهائنا على وجود الله، ولنحاول
أن نقيّم كلا الاحتمالين. إذا ما ربحنا، فقد ربحنا كل شيء،
وإذا ما خسرنا، لم نخسر شيئًا».

« ورددت عليه بعبارة مقتبسة من «بسكال»، وهي الفقرة الوحيدة
التي أذكرها:

« «إن كلاً ممن يختار أي الاحتمالين سيان في الخطأ، والمنهج
الصحيح هو ألا تراهن أبداً».

- «نعم. ولكن لابد من أن تراهن. لا خيار في ذلك. أنت مضطر»
 إنك لا تتحيز لمبادئك يا «فاولر»، فأنت متورط، مثلنا جميعاً
 - ليس بالنسبة للدين.
 - لم أكن أتحدث عن الدين. كنت في حقيقة الأمر أفكر في كد.
 «بايل»
 - أو.
 - أتذكر ما قلته لي، عن وجود آثار عاتقة بمخالبه وتحليل ما بها
 من قاذورات وما إلى ذلك؟
 - وقلت لي إنك لست «ميجريه» أو «لوكون».
 - إنني لم أقصر في شيء في نهاية الأمر، فقد اعتاد «بايل» أن
 يصحب كلبه كلما خرج. أليس كذلك؟
 - أظن ذلك.
 - أكان الكلب قُبُلاً إلى حد ألا يتركه وحده هائماً؟
 - لن يكون آمناً تماماً، إذ إنهم في هذا البلد يأكلون الكلاب الصبيح
 المعروفة باسم «شاو». أليس كذلك؟
 ثم ألقى يضع النرد في جيبه.
 - نردي يا «فيجو».
 - أوه، آسف. حسبت...
 - لماذا قلت إنني «متورط»؟
 - متى يا «فاولر» رأيت كلب «بايل» آخر مرة؟
 - الله أعلم، فأنا لا أحفظ بسجل عهدة عن الكلاب.
 - ما هو الموعد المحدد لمودتك إلى بلادك؟

- لا أعرف على وجه التحديد.
- إنني لا أحب أبدًا أن أعطي معلومات لرجال البوليس، فهذا يوفّر عليهم التعب.
- أود أن أزورك الليلة وأتحدث إليك. في العاشرة؟ إذا كنت وحدك؟
- سأبعث به «فونج» إلى السينما.
- هل عادت المياه بينكما إلى مجاريها ثانية؟
- نعم.
- غريبة. كان عندي انطباع أنك - حسنًا - غير سعيد.
- ثق يا «فيجو» أن ثمة أسبابًا كثيرة وممكنة لذلك.
- ثم أردفت قائلاً بجفاء:
- وأنت أدري بذلك.
- أنا؟
- أنت نفسك لست بالرجل السعيد تمامًا.
- أوه، ليس عندي ما أشكو منه. «البيت الخرب ليس بيتًا شقيًا».
- ما هذا؟
- «بسكال» مرة أخرى، إنه جذال الفخر بالتماسة، «إن الشجرة ليست تعيسة».
- ما الذي دعاك يا «فيجو» لكي تعمل كرجل بوليس؟
- ثمة عدد من العوامل. الحاجة إلى الرزق، والفضول لمعرفة أسرار الناس، وحتى حبي للروائي «جايوريو».
- ربما كان الأجدر بك أن تكون قسيسًا.

- لم أقرأ للمؤلفين الذين يعبرون عن هذا الاتجاه، في تلك الأيام
 - أما زلت تشك في أن ثمة علاقة لي بالموضوع؟
 نهض وشرب الشمالة الباقية في كأس «الفرموت».
 - أود أن أتحدث إليك، هذا كل ما في الموضوع.
 اعتقد أنه بعد أن استدار وانصرف نظر إليّ نظرة حنان، وكأنه ينظر
 إلى سجين قبض هو عليه وقد حكم عليه بالإعدام.

(٢)

لقد لقيت جزائي. وكان «بابل» إثر مغادرته لشقني قد حكم عليّ
 بأن أعيش أسابيع طويلة نهياً للوساوس. كنت كلما عدت إلى البيت
 لازمني إحساس بكارثة تنتظرنني، فكنت حيناً أتوقع أنني لن أجد
 «فونج» هناك، وعندها يصبح من المستحيل عليّ أن أجلس إلى أي
 عمل هادئ البال حتى تعود ثانية، كنت لا أفتأ أتساءل في نفسي:
 أستعود أبداً؟ وربما سألتها أين كانت؟ (محاولاً إزالة القلق والشك
 من صروتي). وقد تجيب عليّ أحياناً قائلة السوق أو المدكاكين، وتقدم
 لي شاهداً على صدق ما نقول. (بل إن استعدادها لتؤكد لي صدق
 روايتها بدا لي آنذاك كأنه شيء غير طبيعي). وحيناً آخر تقول السبب،
 وأجد معها كعب التذكرة دليلاً على ما نقول، وحيناً أختها، وهنا أعتقد
 أنها التفت بـ«بابل» عندها. وألقيت نفسي في تلك الأيام أمارس
 معها الحب بطريقة بربرية وكأنني أكرهها، بيد أن ما كنت أكرهه هو

المستقبل، الوحدة، أن أرفد على فراشي واحتضن الوحدة بين ذراعي
إذا ما جن الليل، إنها لم تتغير. تظهرو لي طعامي وتعد لي غلاييني
تسلمني جسدها في رقة وعذوبة لأنهل منه متعتي (بيد أنها لم تعد
متعة). وكما كنت في أول أيامي معها أنشد قراءة أفكارها ولكنها
دانت خافية عني بعيداً في لغة أعجز عن التحدث بها، لم أشأ أن
أسألها فأنا لا أريد منها أن تكذب عليّ (إذ ما دامت لم تنطق بكذبة
صريحة فإني أستطيع أن أنظر باناً ما زلنا كما كنا دائماً تربطنا
بعضنا نفس العلاقة) وفجأة كنت أحس أن ما يعتدل في نفسي من
هم يريد أن يفصح عن نفسه فأقول:

- متى رأيت مبابيل آخر مرة؟

ترددت، أم ترى كان هذا لأنها حقيقة تعود بفكرها إلى الوراء؟
- وقتما جاء إلى هنا.

وشرعت - بطريقة لاشعورية في الغالب - أخط من قدر كل ما هو
أمريكي وقاض حديثي بالكلام عن فقر الأدب الأمريكي وفضائح
السياسة الأمريكية وبهيمة الأطفال الأمريكيين. حتى خيل إليّ أن
الذي أخذها مني لبس فرداً بل أمة بأسرها. فلا شيء مما يمكن
أن نفعله أمريكا بعد صحيحاً. أصبحت ملولاً بخصوص ما يتعلق
بموضوع «أمريكا»، حتى أصدقائي الفرنسيين معن هم على استعداد
تام لكي يشاركوني كراهيتي. وبدا وكأنني خدعت، وإن كان المرء
لا يُخدع من عدو.

وفي هذه الفترة بعينها وقعت حادثة الدراجات المتفجرة. بينما
كنت عائداً من بار «الأميرال» إلى شقة خاوية (ترى هل كانت في

السينا أم مع أختها؟)، وجدت مذكرة قد دُفع بها تحت عقب الباب.
 كانت من «دومنجيز»، يحتد فيها من مرضه الذي ما زال يلازمه،
 ويطلب مني أن أنتظر خارج المستودع الكبير عند ناصية بوليه،
 شارنر في حوالي الساعة العاشرة والنصف من صباح الغد. قال إنه
 كتب هذا بناء على طلب السيد «شو». بيد أنني ارتبت في هذا طأ
 مني أن السيد «هنج» هو الذي قد يطلب حضوري على الأرجح.
 المسألة كلها، كما انقضح فيما بعد، لم تكن تستحق أكثر من
 فقرة واحدة، وفترة نقال على سبيل التفكه، إذ لم تكن لها أي علاء
 بالحرب النكسية الوخيمة الناشئة في الشمال، وتلك القنوات الصاء،
 في فات ديم التي غُصت بالجثث الرمادية وانقضى عليها بضء
 أيام، وقصف مدافع «الهاون» والوميض الأبيض المنبعث من فناء
 «النابالم». ووقفت منتظراً قرابة ربع ساعة إلى جانب كشك لبيع
 الزهور حيث جاءت عربة نقل لجنود البوليس من ناحية مركز فباء
 مكتب الأمن في شارع كاتينات، وإذا بصوت الفرامل يثر والعجلات
 المطاط تعول، وترجل الجنود وركضوا ناحية المستودع وكأنهم
 يطاردون حشداً من الغوغاء، ولم يكن ثمة غوغاء، كل ما هنالك
 حظيرة للدراجات. وهي في سابجون كياج يحيط بكل مبنى فيها
 لا نجد مدينة جامعية في الغرب تضم مثل هذا العدد الضخم من
 أصحاب الدراجات. وقبل أن يعفني الوقت لأضبط آلة التصوير
 التي معي كان قد تم الحدث الهزلي الغامض. واقتحم رجال البوليس
 حظيرة الدراجات وخرجوا بثلاث دراجات محمولة فوق رؤوسهم
 وألقوا بها في نافورة الزينة. وقبل أن أتمكن من اعتراض سبيل أحد

. حال البوليس كانوا جميعًا قد استقلوا سيارة النقل وانطلقت بهم
مسرعة في بوليفار بونار.

وسمعت صوتًا يقول: «دراجة العمليات».

كان صوت السيد «هنج». سألته:

«ما هذا؟ تدريب عملي؟ على ماذا؟»

قال السيد «هنج»:

«انتظر بعض الوقت».

بدأ بعض السابلة يدنون من النافورة حيث تطل منها إحدى
العجلات كأنها شمنندورة تحذر من الإبحار قرب الحطام الغارق.
«انجاز أحد رجال الشرطة الطريق وهو يصبح ويلوح بيديه. قلت:
«ها نلقي نظرة».

«ليس من المستحسن ذلك».

نظر إلى ساعته. كان عفرى الساعة يشير ان إلى الحادية عشرة
والدقيقة الرابعة. قلت:

«أنت متعجل».

«كل تأخير وراءه فائدة دائمًا».

وفي هذه اللحظة انفجرت النافورة وغطت الرصيف. واصطدمت
قطعة من حجارة الزخارف بإحدى النوافذ، وتساقط الزجاج مثل الماء
في شكل رذاذ مطيع. ونفضنا عن ملابسنا قطرات الماء والزجاج.
وكانت إحدى العجلات تطن وهي تدور كخذروف على قارعة
الطريق، ثم أخذت تتأرجع إلى أن همدت. قال السيد «هنج»:
«كان يجب أن يقع هذا في الحادية عشرة تمامًا».

- ما هذا بالله عليك...؟

- حسبت أنك ستجد متعة في ذلك، أمل أن تكون قد استمتعت بالفعل.

- هل لك أن تأتي معي وتشرب؟

- لا. آسف. يجب أن أعود إلى السيد «شو». ولكن اسمح لي أن أطلعك على شيء قبل أن أنصرف.

وقادني إلى موقف الدراجات وفك دراجته.
- أmeen النظر.

- من نوع «رالي».

- لا. انظر إلى المنفاخ. هل يذكرك بشيء؟

ابتسم لي مشجعاً بسبب تحيري وانطلق. استدار ناحيتي ولزم لي بيده وهو يدرج بدراجته في طريقه إلى حي شولون ومسند الخردة. في مكتب الأمن حيث ذهبت للاستعلام أدركت حفيظة ما يعنيه، القالب الذي رأيته في مسنوده يأخذ شكل قطاع نعصر لمنفاخ الدراجة، وثبت لي ذلك اليوم أن منفاخ كل دراجة في سايجور إنما هو، رغم مظهره البريء، قنبلة من البلاستيك تنفجر مع دقات الساعة حين تعلن الحادية عشرة. ويحدث هذا في كل مكان فيما عدا الأماكن التي يصل إليها اليوليس قبل حدوث الانفجارات. ويتم ذلك بناء على استخبارات ترد إليه في ظني من السيد «هنج». كان الأمر في مجموعته غير ذي بال، عشرة انفجارات وإصابة ستة أشخاص إصابات طفيفة، أما عدد الدراجات فذلك شيء في علم الله. أدرك أقراني أن الأمر لا يستحق الكتابة عنه إلا على سبيل المسخرية، فجا

«مراسل الشرق الأقصى» الذي سمي هذا الموضوع «عملًا من «مال العنف». وكانت عبارة «الدراجات المتفجرة» عنوانًا ممتازًا. «الجميع باليوم على الشيوعيين. وكنت أنا الوحيد من بينهم الذي كتب أن المتفجرات استعراض لصالح الجنرال «ني»، ثم عُذِلَ: «لا مفي في مكتب الرقابة، ذلك لأن الحديث عن الجنرال ليس أخبارًا، لا يحل أن تشغل مكانًا في الصحيفة للحديث عنه. بحث رسالة اعتذار إلى السيد «هنج» عن طريق «دومنجيز»، لقد بذلت كل ما في سعي. أرسل إلي السيد «هنج» ردًا شغافًا مهذبًا. وبدا لي أنك... أو لجنته الفيتنامية - كان حساسًا مفرطًا في حساسيته. فلم يأخذ إسان الأمر مأخذ الجد ضد الشيوعيين. بل إنها في الحقيقة أكسبتهم سمعة طيبة لما فيها من طابع فكاهي، وهو ما لا يتأني بأي طريقة. وأصبح السؤال الذي يتردد على ألسنة الناس في المحافل هو: «ماذا سيفتن عنه تفكيرهم فيما بعد؟». وكانت كل هذه القصة المضحكة ترمز لها عندي عجلة الدراجة التي كانت تدور حول نفسها في نشوة مثل الخدروف وسط الشارع، ولم أحاول قط أن أبوح بشيء لـ «بايل» عما سمعته عن علاقته بالجنرال. لئلا يلعب بالبلاستيك بسلامة طوية. فربما يشغله ذلك عن «فونج». وأيًا كان الأمر فقد حدث ذات مساء أن وجدت نفسي بجوار جراج السيد «موي» فتوجهت لزيارته إذ لم يكن عندي ما هو أهم.

كان مكانًا صغيرًا غير منسق لا يختلف عن مستودع الخردة نفسه الكائن في بوليفار دو لا سوم. وكانت ثمة سيارة مرفوعة على ونش في منتصف الأرضية وقد رفع عنها غطاؤها، وفُتِرَتْ فاهًا كأنها

خلق حيوان من حيوانات ما قبل التاريخ في متحف من مناخ الأقاليم لا يزوره أحد. لا أعتقد أن ثمة من يذكر أنه موجود هناك كانت الأرضية مفروشة بقصاصات الحديد والصناديق القديمة، فالفيتناميون لا يميلون إلى تبديد أي شيء، وهم لا يفترون في هذا عن الطباخ الصيني الذي يقسم البطة إلى سبعة أجزاء، ولا يفرط في شيء منها حتى وإن كان ظفراً، وتساءلت في نفسي ترى لماذا حاراً. أحدهم بطريقة مسرفة أن يبدد الأسطوانة الجوفاء والقلب الثالث؟ ربما كان أحد المبروقات التي سرقها موظف ابتغاء الحصول على قروش معدودات، وربما رشا السيد «هنج» العبقري شخصاً ما. لم يقع نظري على أحد بجوار الجراج، ومن ثم دخلت. دار بخلدو أنهم ربما يناون بأنفسهم بعيداً لفترة ما لئلا يستدعيهم البوليس. ومن المحتمل أن تكون ثمة رابطة ما بين السيد «هنج» ومكتب الأمر ولكن حتى في هذه الحالة ليس من المحتمل أن يتخذ معهم البوليس تدابير إذا كان يرى من الأفضل - حسب وجهة نظره - أن يعتقد الناس أن المتفجرات ما هي إلا تدابير شيوعية.

لم يكن ثمة ما تقع عليه العين فيما خلا السيارات والمخلفات المتناثرة فوق الأرضية الخرسانية. وكان غيراً عليّ أن أنصور كيف أمكن تصنيع المتفجرات عند السيد «موي». وكان خافياً عليّ تماماً كيف يتسنى تحويل الغبار الأبيض الذي رأيته بداخل الأسطوانة إلى بلاستيك. بيد أنه من المؤكد أنها عملية بالغة التعقيد بحيث لا يمكن تنفيذها هنا، حيث بدت على مضغتي البترول اللتين في الشارع آثار الإهمال. وقفت عند المدخل والقيت نظرة إلى الشارع، وقد امتطل

«حلافون تحت الأشجار في منتصفه وانهمكوا في عملهم، بينما
: مُرت قطعة من مرآة على جذع شجرة وهي تعكس وميض الشمس.
». ت بي فناة تعمير ركضًا تحت قبعتها المرخوة حاملة سلتين معلقتين
على قائمة خشبية. جلست العرافة القرفصاء مسندة ظهرها إلى جدار
«سيمون فريير»، وقد اهدت إلى زيون، رجل عجوز ذي لحية صغيرة
شبه لحية «هوشي منه» يرقب في اسكافة تغنيط ومزج أوراق اللعب
البالية. ترى ما المستقبل المتظر الذي تكشف عنه وتقدر قيمته بقرش
، احدا؟ إنك في بوليفار دو لا سوم تحيا حياة مكشوفة على الملأ،
«أي إنسان هنا يعرف كل شيء عن السيد «هوي»، بيد أن البوليس
لا يملك المفتاح الذي يفض به مكنون نفقتهم. كان هذا هو مستوى
الحياة في مكان كل شيء فيه معروف، بيد أنك لا تملك القدرة على
أن تخطو إلى أغوار هذا المسنوي كخطوك في الطريق. وعادت بي
الذكرى إلى النسوة العجائز اللاتي كن يجلسن ويشترثن عند منبسط
الدرج حيث أقيم قرب دورة المياه المشتركة كن يسمعن كل شيء
أيضًا، ولكن لم أكن أعرف شيئًا مما يعرفه.

وانخذت طريقي عائداً داخل الجراج، ودخلت حجرة مكتب
صغيرة في المؤخرة. ألفت هناك التقويم التجاري الصيني المؤلف،
ومكتبًا تآثرت فوفه أشياء عديدة: قوائم أسعار وزجاجة صمغ وماكبنة
حاسبة وإبريق شاي وبعض دبايس الورق وثلاثة أقذاح ومجموعة
من أفلام الرصاص الجديدة (غير المبرية)، وتسبب ما وضعت بين
هذه الأشياء صورة كارت بوستال لبرج «إيفل» غير ممهورة بأي كتابة.
قد يكون في صمغ «يورك هاردنج» أن يصوغ حديثه عن القوة الثالثة

في قالب تجريدات بيانية، بيد أن هذا هو ما انحدرت إليه تجربته.
تلك كانت المسألة. وكان ثمة باب في الجدار الخلفي وكان موصلاً.
بيد أن المفتاح كان بين أقلام الرصاص فوق المكتب. فتحت الباب
ودلفت إلى الداخل.

ألقيت نفسي داخل عنبر صغير في حجم الجراج. كان بداخله
ماكينة واحدة بدت لي لأول وهلة أشبه بغفص من قضبان وأسلاك أذاً.
بعدد لا يحصر له من القضبان لمُحس بداخله طائر كبير بلا جناح.
أوحى بأنه شُد بخرق بالية، ولكن من المحتمل أن هذه الخرق كان
تستخدم لأغراض التنظيف عندما كان السيد «موي» ومساعداه
منصرفين عن عملهم. وجدت اسم الصانع، شخص ما في مدونة
ليون ورقم براءة الاختراع. ترى أي اختراع هذا؟ وأدركت مفتاح الباب.
الكهربائي قدبت الحياة في الماكينة القديمة. القضبان تؤدي غرضاً ما
كانت الآلة العجيبة أشبه برجل عجوز يستجمع آخر ما تبقى لديه من
قواه الحيوية ويهبط بقبضته ليسحق ثم يهبط بها ثانية، كان هذا الشيء
لا يزال يُوصف بأنه مكبس رغم أن طراز تشغيله يرجع بالضرورة إلى
نفس الحفنة التاريخية التي ترجع إليها حلبة ألعاب الخيالة. ولكن
أحسب أن هذا المكبس لا يزال يستعمل بالفعل في هذا البلد الذي
لا يضيع فيه شيء أبدًا، بل ينتظر اليوم الذي يتم فيه كل شيء الغرض
الذي صنع من أجله. (وتذكرت فيلماً عتيقاً شهدت عرضه في أحد
الشوارع الخلفية في نام دين، وهو فيلم «السطو على القطار العظيم».
ذلك القطار الذي أحدث هزة عنيفة وهو يشق طريقه على الشان.
وقد رجده الناس مشيراً للتسلية).

فحصت المكبس عن كتب مدققاً فيه النظر، كانت ثمة آثار
 'محقوق أبيض'. ودار بخلدي أنه «ديولاكتون»، ذلك الشيء، الشيء
 «البن»، ولم تكن ثمة علامة تشير إلى وجود أسطوانة أو قالب. وقفلت
 اجعاً إلى حجرة المكتب ومنها إلى الجراج. وأحسست برغبة في
 أن أربط على مزبل الوحل بالسيارة القديمة، ربما كان أمامها وقت
 طويل للانتظار، ولكنها أيضاً ذات يوم... من المحتمل أن السيد
 «موي» ومساعديه ذهبوا إلى مكان ما في هذه الأثناء بين حقول الأرز
 في الطريق المؤدي إلى الجبل المقدس حيث توجد هيئة القيادة العليا
 'الجنرال' «تي». وأخيراً عندما رفعت عقيرتي متنادياً: «مسيو «موي»»،
 نخلت نفسي وكأنني نأيت بعيداً عن الجراج والشارع والحلافين
 وعدت إلى هناك بين الحقول، حيث اتخذت لنفسي ملاذاً على الطريق
 المؤدي إلى تانين. «مسيو «موي»»، واستطعت أن أنين رجلاً يدير
 رأسه بين عيدان الأرز.

فعلت راجعاً إلى البيت سيراً على الأقدام، وهناك فوق منبسط
 الدرج انطلقت النسوة العجائز في تغريدن الذي لا أفهم منه شيئاً
 أكثر مما أفهم من شقشقة الطيور. لم تكن «فونج» بالداخل. لم أجد
 غير مذكرة تقول إنها مع أختها. واستلقيت على السرير فما زال
 التعب يحل بي سريعاً، واستسلمت للنوم. عندما صحت من
 نومي رأيت عقيرتي المنبه يشران إلى الواحدة وخمس وعشرين
 دقيقة. وأدريت رأسي متوقفاً أن أرى «فونج» ناتمة بجواري، ولكن
 الوسادة كانت خالية من كل أثر. لا بد أنها غيرت ملء السرير
 في ذلك اليوم، ففيها أثر من بروقة الغسيل. نهضت من فراشي

وفنحت الدرج الذي تحتفظ فيه بإيثاريتها وكان خاوياً. فصار
رف الكتب، لقد اختفى منه أيضاً كتاب حياة الأسرة المائكة من
صوره. ها هي أخذت صداقها معها.

في لحظة الصدمة يخف وقع الألم. لقد بدأ ألمي حوالي الساعة
صباحاً عندما بدأت أخطط لحياتي التي بقي عليّ أن أحيها بشيء
ماء، وأستعيد بعض ذكرياتي لأحاول أن أمحوها بصورة ما. كما
ذكرتني المهانة هي أشقاها. وحاولت أن أستعيد ذكرياتي الشيء
كنت متعسفاً على ذلك، فقد سبق لي أن عشت مثل هذه الحياة.
قبل، وأعرف أنني أملك القدرة على عمل ما تقتضيه الضرورة...
أنني أصبحت الآن رجلاً مستأناً، وأحسست أنني لا أملك من الم...
ما يعينني على أن أعيد البناء من جديد.

(٣)

قصدت المفوضية الأمريكية وسألت عن «بابل». كان التزاماً أن أملا
بعض البيانات في ورقة هناك عند الباب وأعطيها لأحد جنود الشرطة
العسكرية. قال لي:

- لم توضح الغرض من الزيارة.

- سيعرف هو.

- إذن فقد أتيت بناء على موعد.

- لك أن تفهم الأمر على هذا النحو إذا أحببت.

أحسب أن أسئلتني تبدو لك غريبة، ولكن يتعين علينا أن نكون حذرين غاية الحذر. فثمة أنماط غريبة تأتي إلى هنا. هذا ما سمعت عنه.

نقل العلكة التي يعضنها إلى الجانب الآخر من فمه ودخل «معد». انتظرت. لم تكن لدي أي فكرة عما سأقوله له «بابل»، فقد «ان هذا مشهدًا جديدًا عليّ تمامًا. عاد الشرطي وقال متبرمًا: - أظن أن بوسعك أن تصعد إلى حجرة 12A بالطابق الأول. ما إن دخلت إلى الحجرة حتى تبينت أن «بابل» غير موجود. ١. ألفيت «جو» جالسًا خلف مكتبه، الملحق الاقتصادي، لا زلت عاجزًا عن تذكر كنيته. ورفقتني أخت «فونج» من خلف «نضدة عليها آلة كتابة. أهو الانتصار ما أقرره في عينيها العسليتين لمطلعتين؟

ناداني «جو» باهتياج:

- ادخل يا «توم». ادخل إنني سعيد لرؤياك. كيف حال ساقك؟ نادرًا ما تتكرم علينا بزيارتك لقلة ما لدينا من معلومات. هات لك كرسياً. حدثني عن رأيك فيما يتعلق بالهجوم الجديد. رأيت «جرانجر» ليلة أمس في «الكورتنال». سيسافر إلى الشمال ثانية. إنه ولد متلهف. حشما تكن الأخبار يكن «جرانجر». هل لك في سيجارة؟ خذ راحتك. أتعرف الأنسة «هي»؟ لا تستطيع أن تذكر كل هذه الأسماء، إنها مائة شاقة للغاية على إنسان في مثل سني. أدعوها «هاي» ويرونها ذلك. لا شيء عن هذا الاتجاه الاستعماري العفن. ترى ما هو حديث الناس يا «توم»؟ يقينًا

إنكم أيها الأصدقاء قادرون على استراق السمع جيدًا !

لما سمعت عن سافك. حدثني «آلين»...

- أين «بايل»؟

- أو، «آلين» لم يحضر إلى المكتب هذا الصباح. أحد.

بالبيت. إن كثيرًا من أعماله يؤديها في البيت.

- أنا أعرف ما الذي يؤديه في البيت.

- إنه ولد بارع. آه، ما الذي قلته؟

- على أي حال فأنا أعرف أحد الأعمال التي يؤديها في البيت.

- لا أستطيع أن أتابعك يا «توم»، «جو» يطبخ الفهم، إنه.

كنت كذلك دائمًا وهكذا سأكون دومًا.

- إنه يضاجع فتاتي، أخت الأنسة التي تعمل على الآلة الخد،

عندك.

- لا أدرك ما تعنيه.

- سلها. لقد دبرت ذلك. أخذ «بايل» فتاتي.

- انفضر إلي يا «فاولر». حسبتك أتيت إلى هنا لعمل من الأعمال.

تعرف أننا لا نقبل مهارات هنا في المكتب.

- جئت إلى هنا لمقابلة «بايل» ولكنني أظنه مختبئًا.

- أنت آخر إنسان يصح له أن ييدي مثل هذه الملاحظة خاصة.

كل ما أسداه إليك «بايل».

- أو، نعم، نعم، بالطبع. لقد أنقذ حياتي، أليس كذلك! بيد أبي.

لم أماله ذلك.

- لقد عرض نفسه لمخاطر جسيمة إذ أصيب هذا الولد في أمعائه.

لا نعنبنى أمعاؤه في شيء، فثمة أجزاء أخرى في بدنه أكثر سلامة.

لا يحسن بنا الآن يا «فاولر» أن نبدى مثل هذه التعريضات في حضور سيده معنا بالحجرة.

- أنا والسيدة نعرف بعضنا خبر معرفة، لقد فشلت في الحصول على ما تبتغيه مني من عمولة، ولكنها وفقت في ذلك مع «بايل». وهو كذلك. أعرف أنني أتصرف بطريقة غير لائقة، وسأمعن في هذا التصرف غير اللائق، فهذا موقف يتصرف فيه الناس مرغمين بطريقة غير لائقة.

- لدينا أعمال كثيرة، فثمة تقرير عن إنتاج المطاط...

- لا عليك. إني متصرف. ولكن يكفيني أن تبلغ «بايل» إذا ما اتصل بك تلفونيا أنني زرتك، فقد يرى من دواعي الأدب أن يرد لي الزيارة.

حدثت أخت «فونج» فأنلّا:

- آمل أن أكون قد أشهدت على فعلتك كلاً من الموثق العام والقصل الأمريكي وكنيسة المسيح العالم.

سرت داخل الدهليز. كان في مواجهتي باب كتب عليه «الرجال» دخلت وأغلقت الباب خلفي، وجلست مسنداً رأسي إلى الجدار البارد، وانخرطت في السكاء. لم أبلّ في حياتي حتى هذه اللحظة. حتى دورات مياههم مكيفة الهواء. وسرعان ما جفف الهواء المكيف المعتدل دموعي مثلما يجفف اللعاب في فمك، وماء الحياة في جسدك.

تركت شؤوني بين يدي «دومنجز» وسافرت إلى الشمال. كان امر في هايقونج أصدقاء في وحدة «جاسكون» الفرنسية، وربما أقصر بضع ساعات في بار ملحق بالمطار، أو ألعب الكرة فوق الطرء الخارجى المرسوف بالحصىاء. كان من المقرر رسمياً أن اأء بالجهة، أستطيع الآن أن أنافس «جرانجر» فيما يتصف به من براءء بء أن هذا لا يزيد في قيمته بالنسبة لصحيفتي عما قدمته رحلتي إاء. فات ديم. ولكن احترام المرء لنفسه يقتضى منه - إذا كان يكتبء، الحرب - أن يشارك بين حين وآخر في المخاطر.

لم يكن يسيراً على أن أشاركهم حتى ولو لفترة زمنية محددة، حيث إن التعليمات الصادرة إليهم من هانوي تقتضى بالأسمء لي إلا بالاشتراك في الإغارات الأفقية، فمثل هذه الإغارات في الحرب أمنة تماماً كرحلة بالأنوبيس، ذلك لأننا كنا نطير على ارتفاع يبعد عن مرمى المدافع الثقيلة. كنا بمأمن من أي شيء، اللهم إلا أن يخطئ الطيار أو يحدث خلل في محرك الطائرة. كنا نطلق حسب جدول زمني محدد، ونعود وفق جدول زمني محدد. كانت قاذفات القنابل تنقض في خط عمودي وتتصاعد. أعمدة الدخان في حركة لولبية عند ملتقى الطرق والكبارى ثم نعود أءراجنا مع ساعة شرب فاتح الشهية، ونأءرج كرانا الحديدية فوق الحصىاء.

ذات صباح وأنا في ميس البلدة، وبينما كنت أشرب بعض كؤوس

١٠ - اندي الممزوج بالصودا مع ضابط شاب تۇرقه رغبة محموعة في
بارة «ساوئيند بيري» تلقى هذا الضابط أمرًا بالقيام بمهمة.

- أيروقك أن تأتي معنا؟

أجبتة بالموافقة، فحتى الإغارة الأفقية ستكون وسيلة لقتل الوقت
«قتل الفكر». وبينما كنا نتجه بالسيارة ناحية المطار أبدى الملاحظة
التالية:

- هذه إغارة رأسية.

- أحب أنني ممنوع...

- ما دمت لن تكتب عنها شيئًا فستصبح لك فرصة لمشاهدة جزء
من البلاد المجاورة للحدود الصينية لم يسبق لك مشاهدته،
قرب لي شاور.

- ظننت أن كل شيء هادئ هناك، وأنها في قبضة الفرنسيين.

- كانت كذلك. لقد استولوا على هذا المكان منذ يومين. إن
جنودنا المظليين يعدون عنها بضع ساعات فقط. نريد أن
ن بقي على قوات «الفينته» برؤوسهم متكئة داخل جحورهم
إلى أن نستعيد الموقع مرة أخرى. وهذا يعني الانقضاض على
مستوى منخفض، واستخدام البنادق الآلية. إننا نستطيع أن
نوفر طائرتين فقط، إحداهما تؤدي مهمتها الآن. ألم يسبق لك
الاشتراك في عمليات الانقضاض وإسقاط القنابل؟
- لا.

- إنها متعبة إلى حد ما إذا لم تكن معتادًا عليها.

لم يكن لدى وحدة «جاسكون» سوى طائرتين من طراز «B-26»

كان الفرنسيون يطلقون على هذا النوع من الطائرات اسم «الماهرات» . ذلك لأنها فضلاً عن قصر المسافة الفاصلة بين جناحيها فإن «العير ضمانها والتحكم فيها» حشرت نفسي فوق كرسي معدني صغير في حجم مقعد الدراجة وركبتا مستندان إلى ظهر ملام الطائرة. حلقتنا فوق النهر الأحمر وارتفعنا ببطء. كان النهر الأحمر في هذه الساعة أحمر حقيقة. خلت أني رجعت إلى الماضي البعيد لأراه بعين الجغرافيين القدامى أول من سمّوه بهذا الاسم، في الساعة التي كانت الشمس الغاربة تغطي ضفته بأشعتها، ثم انحرف، ونحن على ارتفاع تسعة آلاف قدم صوب النهر الأسود. كان أمر حقيقة وتفقد فيه زاوية الضوء، ويطالعك مشهد مهيب ضخم لـ النهر وشاطئيه الصخري وما يلتف حوله من أحراش ممتدة نحو على استقامتها. إنك قد نسقت كتبية في تلك الحفول بلونيهما الأخضر والرمادي، ولكن لن يتخلف عنها أثر يزيد على ما تتركه بعض عملاق سقطت وسط حفل على وشك الحصاد. وأمامنا عن بعد طائرة صغيرة، تنحرك كأنها بعوضة. كنا قد بدأنا نحلق على ارتفاع كبير.

درباً دورتين فوق البرج والقرية التي تحف بها الخضرة، ثم شقت الطائرة طريقها إلى أعلى في حركة حلزونية وسط الهراء بضوئه الباهر. واستدار الطيار، واسمه «تروين»، ناحيتي وغمر بعينه، وعلى عجلة القيادة أمامه الأزرار التي توجه المدفع وغر القنابل. وعندما اتخذنا الوضع الملائم استعداداً للانقضاض اتناهب إحساس بالإسهال في أحشائي، وهو الإحساس الذي يصاحبه أي تجربة جديدة لأول مرة، الرقصة الأولى وحفل الغداء الأول.

«الحب الأول». وتذكرت «السباق العظيم» في «معرض ويمبلي»
 مدعماً بلغت أعلى قمة في الارتفاع، ولم يعد ثمة مخرج بعد ذلك،
 بعد وقعت في شرك التجربة^(١). وعندما انقضت الطائرة لم يسعني
 الوقت إلا لأقرأ المؤشر وهو يشير إلى ثلاثة آلاف متر. كل شيء
 أدركه الآن بشعورك فقط بينما لا ترى شيئاً. وأحسست أنني مشدود
 إلى ظهر ملاح الطائرة. وبدأ لي أن ثمة شيئاً ثقيلاً لدرجة رهيبية
 «حس على صدري». ولم أنبئ اللحظة التي أطلقت فيها القنابل من
 منالها، وتتابعت طلقات المدفع وعبقت مقصورة الطيار براحة
 «أداة الكوردايت»، انزاح الثقل عن صدري ونحن نرتفع إلى أعلى،
 أحسست بمعدتي تسقط مني وتهبط في حركة حلزونية وكأنها
 مسحور يلقي بنفسه إلى الأرض التي خلفناها تحتنا. انقضت أربعون
 ثانية لم يكن «هابيل» موجوداً فيها، بل لم تكن الوحدة موجودة
 أبداً. وبينما كنا نرتفع في مسار على هيئة قوس عظيم تمكنت من
 رؤية الدخان من خلال النافذة الجانبية وهو يشير إليّ. وانتابني
 إحساس بالخوف قبل الانقضااض الثاني، الخوف من الإذلال،
 والخوف من أن أتقيأ على ظهر الملاح، والخوف من ألا تحتمل
 رشاي المستان الضخمت، وبعد الانقضااض العاشر لم أعد أشعر
 إلا بالاستغزاز، لقد استغرقت العملية وقتاً طويلاً وأن لنا أن نعود.
 وانطلقت الطائرة بسرعة في خط عمودي خارج مرمى المدافع
 ومرقت بنا بعيداً والدخان يشير إلينا. وكانت القرية تكتنفها الجبال

(١) يشير المؤلف إلى سباق بين قطارين أفغانين عقد في عام ١٩٢٥، ضمن فمانيات
 «معرض ويمبلي».

من جميع الجهات. وكان لزامًا علينا في كل مرة أن نتخذ نفس السبل عبر هذه المجدوة بعينها، فلم يكن ثمة طريق آخر يُغير منه. وبينما كنا ننفض للحرمة الرابعة عشرة دار بخلدي وقد زابلني الخوف من الإذلال: «ليس عليهم إلا أن يشبّوا مدققًا واحدًا من المدافع الآلة نحو هدفه»، ورفعتنا أنوف الطائرة مرة أخرى في الهواء الآمن، ربّا كانوا لا يملكون حتى بندقية واحدة. وخُيل إليّ أن الأربعين دقمة المخصصة للدورية لن تنتهي، بيد أنها كانت خالية تمامًا من دار ما يمكن أن ينقصها من الهموم الشخصية. كانت الشمس تغوص وراء الأفق أثناء عودتنا. لقد ولت لحظة عالم الجغرافيا، فلم يبق النهر الأسود أسود، وأصبح النهر الأحمر ذهبيًا، ولا شيء غير ذلك انخفضنا مرة أخرى بعيدًا عن الغابة ذات التواءات والمشقوى واتجهنا صوب النهر، وحلقنا على ارتفاع منخفض فوق حفول الآلة المهملة، وانقضضنا ككذيفة نحو قارب صغير من قوارب «السامبال» على سطح المجرى الأصفر. وأطلق المدفع مقدوقًا، وتناثر القوارب كأنه مطر من الشظايا. ولم نكلف أنفسنا عناء الانتظار حتى نرى ضحايانا يصارعون الموت، بل ارتفعت بنا الطائرة واتخذنا طريقة عائدتين. وعادتني نفس الأفكار التي دارت بخلدي وقتما وقع بصري على الطفل الذي لقي مصرعه في فاة ديميم: «إنني أمقت الحرب». كان ثمة شيء تطير له نفسي شعاعًا في اختيارنا العرضي المفاجئ. للفرسة، كان مروزًا عابرا ولم يتطلب الأمر منا أكثر من طلقة واحدة، ولم يكن ثمة من يرد على نيراننا، ثم انطلقنا ثانية بعد أن أضفنا حصص الهزيمة إلى موتى العالم.

ووضعت سماعتي على أذني ليتحدث إليَّ الكاتبين «تروين».
قال لي:

- سنقوم بجولة قصيرة.

ثم أردف قائلاً في رقة:

- إن منظر الغروب عند منطقة كالكير رائع للغاية. يجب ألا
نفوتك رؤيته.

كان يتحدث كمضيف يعرض جمال ضيعة. وتبعنا الغروب
لمسافة مائة ميل فوق باي دالونج. نظر الوجه المارسي بخودته
أدي الحزن إلى الخارج، إلى الأدغال الذهبية التي تكتنفها تنوءات
«انحناءات من الحجر المسامي» وتوقف نزيف الجرح الذي خلفته
الحجريمة.

{5}

أصر الكاتبين «تروين» في تلك الليلة على أن يستضيفني في بيت
الأيون، وإن كان هو نفسه لن يدخن. إنه يحب الرائحة كما يقول،
ويحب الإحساس بالهدوء في نهاية اليوم. بيد أن مهته تقضي بالألا
نطول فترة استراحاته إلى أبعد من ذلك. كان ثمة ضباط يدخنون،
ولكنهم من ضباط القوات البرية، أما هو فكان لا بد له من أن ينال
فسطه من النوم. ووجدنا في مضجع صغير ضمن صف من المضامج
أشبه بعمكان النوم في مدرسة داخلية. وأعد لي صاحب البيت، وهو

صيني، الغلايين. لم أدخن منذ هجرتني «فونج». وفي الناحية المفا، كانت ترقد امرأة خلاسية، لها ساقان ممشوقتان جميلتان، وقد انفرد حول نفسها بعد أن فرغت من التدخين، وهي تقرأ مجلة نسائية ذات ورق مصقول. وفي المضجع المجاور لها ألفت صينيين في متوسط العمر، وقد فرغا من مهمتهما، يرششان الشاي، وقد نحيا الغلابي جانبا. قلت:

- قارب «السامبان» - هذا المساء - أكان منه ضرر؟

قال «تروين»:

- من يدري؟ لدينا أوامر أن نطلق النار على أي شيء يقع عليه بصرنا في هذا الجزء من النهر.

ودخنت غليونني الأول. وحاولت أن أتخاشى التفكير في كل الغلايين التي دختها في البيت. قال «تروين»:

- عملية اليوم ليست أسوأ ما صادفه إنسان مثلي، فقد كان بوسعهم أن يقطعونا أثناء تحليلنا فوق القرية. كانت مخاطرتنا جيمة مثل مخاطرتهم. إن ما أمقته هو الفصف بقتابل «النابالم»، تضمن الأمان وأنت على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم. وندت عنه حركة تنبئ عن يأس.

- أرايت الغاية وهي تشتعل بالنيران، يعلم الله ماذا يمكن أن تراه وأنت على الأرض. لقد احترق التعساء وهم أحياء، غمرتهم ألسنة اللهب كما تغمرهم المياه، لقد غرقوا وسط بحر من النيران.

واستطرد ساخطا على عالم بأكمله يرفض الفهم:

- أنا لا أخوض حربًا استعمارية. أظن أنني أرثضي لنفسي أن أفعل كل هذا من أجل أصحاب المزارع في دلتا النهر الأحمر؟ خير لي أن أحاكم عسكريًا. إننا نخوض نيابة عنكم كل حروبكم، بيد أنكم تخلفون لنا إثمها.

قلت له:

- أحذثك عن قارب «السامبان».

- نعم، وهذا «السامبان» أيضًا.

ورمقني وأنا أمد يدي لأتناول غليونني الثاني:

- إنني أغبطك على ما تملك من وسائل للهرب.

- إنك لا تعرف ما الذي أهرب منه. ليس من الحرب، فهي ليست من شأني، وأنا غير متورط فيها.

- ستورطون فيها جميعًا... يومًا ما.

- ليس أنا.

- ألا زلت تعرج؟

- كان لهم الحق في أن يطلقوا عليّ النار، بيد أنهم لم يحاولوا

مجرد الإقدام عليّ هذا. لقد كانوا يهدمون برجًا. يحسن بالمرء

أن يتجنب دائمًا إبادة مجمرعات الجنود، حتى وإن كان هذا في

ميدان «بيكاديللي».

- سيحدث شيء ما ذات يوم، وستحيز إلى أحد الجوانب.

- لا. إنني عائد إلى إنجلترا.

- تلك الصورة التي عرضتها عليّ ذات مرة...

- أوه، لقد مرقتها إربًا، إذ إنها هجرتني.

- آسف.

- هكذا تجري الأمور. يهجر المرء الناس ثم تدور عليه الدنانير
وغالبًا ما يجعلني هذا أومن بالعدالة.

- أوافقك على هذا. أذكر أن أول مرة أسقطت فيها قنابل «النابالم»
كانت فوق القرية التي ولدت فيها، القرية التي يعيش فيها م.
«ديبوا» صديق أبي القديم. وشرع الخباز - وما كان أشد شعمر
به في الطفولة - يمدو وسط الحمام التي أسقطتها. إن أراء
«فيشي» لم يقصفوا بلدهم بالقنابل. لقد انتابني شعور بأنهم
أسوأ منهم جميعًا.

- ولكنك لا زلت ماضيًا في طريقك.

- تلك كانت حالات مزاجية نلّم بي مع «النابالم» فقط. أما فيما
عدا ذلك فإني أرى أنني أدافع عن أوروبا. ولعلك تعرف ما يفعله
الفريق الآخر. إنهم أيضًا يرتكبون أفعالاً مروعة، إذ إنهم عندما
أخرجوا من هانوي عام ١٩٤٦ خلفوا بين أهلها ذكريات مفرقة،
لمن ظنوا أنهم مدوا لنا يد المساعدة. فقد عُثر على فتاة في الجبانة،
وتبين أنهم لم يكتفوا بقتلها، بل شوهوا جيبها وحشوا...

- وهذا هو السبب في أنني لا أريد التورط.

- ليست المسألة مسألة عدالة أو عقل. لقد تورطنا جميعًا في
لحظة انفعال ثم تعذر علينا الفكاك. الحب والحرب، دائمًا
يقارن أحدهما بالآخر.

وتطلع بحزن عبر غير النوم حيث استلقت الخلاصية مستمته
لمحظة سلام عابرة عظيمة. قال:

- لم يكن لي خيار . ثمة فتاة ورطها أبواها، ترى ما هو مصيرها بعد
أن يسقط هذا الميناء؟ إن فرنسا ليست سوى نصف وطنها...
- هل يسقط؟

- إنك صحفي، وتعرف أكثر منا أننا عاجزون عن إحراز النصر،
وتعرف أن الطريق إلى هانوي يقطع كله كل ليلة وتُزرع فيه
الالغام. تعرف أننا نخسر كل عام دفعة من خريجي الكلية
الحربية. لقد خسرنا تقريبًا في عام ٥٠، وحدد لنا «دو لاتر»
عامين لتحقيق النصر، هذا كل ما في الأمر. بيد أننا محاربون
محترفون، يتعين علينا أن نواصل الحرب حتى يطلب منا
السياسيون أن نتوقف. ربما يلتقون معًا ويغفون على السلام
على أساس الشروط التي كان يمكن لنا أن نحققها منذ البداية،
ومن ثم نضيع كل هذه الأعوام هباء.

وإذا بوجهه القبيح الذي غمز لي به قبل أن يبدأ عملية الانقضاض
يرسم عليه معالم الوحشية التي تتميز بها مهنته. بدا لي هذا الوجه
وكأنه قناع لوجه من النوع الذي تظل منه عينا الطفل من خلال الثقوب
التي نقشت على الورق.

- إنك لن تفهم معنى «الهباء» الذي أقصده يا «فاولر»، فلت
واحدًا منا.

- ثمة أمور أخرى في حياة العراء تضيق معها السنين هباء.
وأسند يده إلى ركبتيه بحركة غريبة مطمئنة، وكأنه الرجل الأكبر
سنًا. قال:

- خذها معك إلى البيت، فهي خير لك من غليون.

- وكيف تسنى لك أن تعرف أنها يمكن أن تأتي معي.
- لقد ضاجعتها شخصيًا، وكذلك الملازم «بيران». خمسًا.
قرش.

- ثمن باهظ.
- أحسبها قد ترضى بثلاثمائة. ولكن المرء في مثل هذه الظروف
لا يعبأ بالمساومة.

لم تبد لي نفسيحتة شيئًا مقبولًا. إن جسم الإنسان محدود بالتصرفات
التي يسعه أن يؤديها، وكان جسدي قد جمدته الذاكرة. إن ما لمسه
بدائي في تلك الليلة ربما كان أجمل مما اعتدت عليه. لكننا لم
أسرى الجمال وحده. لقد كانت تستخدم نفس العطر، وفجأة، وفي
اللحظة التي بدأت فيها عملية المفاضلة، أكد لي طيف من فقدتها أنه
أقوى من هذا الجسد الذي استلغى مستسلمًا بين يدي. ابتعدت عنها
واستلغيت على ظهري وزايلتي شهوتي. وقلت لها كاذبًا:

- آسف، لست أدري ما بي.
قالت في عذوبة ساحرة، وقد أخطأت فهمي:
- لا تبشش فكثيرًا ما يحدث ذلك. إنه الأفيون.
- نعم، الأفيون.

وتوسلت إلى السماء أن يكون الأفيون.

الفصل الثاني

{١}

كان شيئاً جديداً عليّ، فهذه أول مرة أعود فيها إلى سايجون ولا أجد فيها من يستقبلني مُرحباً. وعندما كنت في العينة تمنيت لو أن ثمة مكاناً آخر غير شارع كاتينات أوجه إليه التاكسي. وسألت نفسي: «تري هل خف ألمي قليلاً عما كان عليه ساعة رحيلي؟»، وحاولت جاهداً أن أقنع نفسي بأن الأمر كذلك. ما إن بلغت منبسط الدرج حتى ألفت الباب مفتوحاً، ودب في نفسي أمل غير متوقع تقطعت معه أنفاسي. قصدت الباب في تأنٍ بالغ، وظل الأمل يداعبني إلى أن بلغت الباب. وسمعت صريراً الكرسي. وما إن دنوت من الباب حتى وقع بصري على حذاء لكنه ليس حذاء امرأة. أسرعت بالدخول، وإذا بي أرى «بايل» وهو يرفع ثقله من على الكرسي الذي اعتادت «فونج» أن تجلس عليه. قال: - أهلاً بتوماس.

- أهلاً «هايل»، كيف دخلت؟
- قابلت «دومنجيز»، كان آتياً بريدك، فسأله أن أبقى هنا.
- هل نسيت «فونج» شيئاً ما؟
- أوه، لا. ولكن أنبأني «جور» أنك ذهبت إلى المفوضية. ورباب من الأيسر لنا أن نتحدث هنا.
- عن ماذا؟
- وندت عنه حركة تتم عن الارتباك وكأنه صبي طُلب منه الحديث في حفل مدرسي وتعذرت عليه الكلمات الناضجة.
- أكنت مسافراً؟
- نعم، وأنت؟
- أوه، كنت في جولة.
- ألا زلت تلعب بالبالستيك؟
- كشف عن أسنانه في امتعاض. قال:
- خطاباتك هناك.
- بلمحة سريعة أدركت أن ليس فيها ما يعنيني الآن. فقد كان بينها خطاب من مكتبي في لندن وعدة خطابات يبدو أنها حوالات مالية.
- وخطاب من البنك الذي أتعامل معه. قلت له:
- كيف حال «فونج»؟
- ولمع وجهه تلفائياً، وكأنه لعبة من لعب الأطفال الكهربائية التي تستجيب لصوت معين. قال:
- أوه، إنها بخير.
- ثم زم شفتيه وكأنه أفرط في الحديث.

«اجلس يا «بايل»، معذرة حتى ألقى نظرة على هذا، إنه من مكثبي.
فضضت الخطاب. كيف تتحقق الآمال في غير حينها. كتب إليّ
رئيس التحرير قائلاً إنه نظر بعين الاعتبار لرسالتي الأخيرة، وإنه نظرًا
للموقف المضطرب في الهند الصينية الذي ترتب على وفاة الجنرال
«دو لاتر» والانسحاب من هوابين فقد قبل اقتراحي. وقد عين مؤقتًا
محررًا للسياسة الخارجية ويود أن أبقي في الهند الصينية لعام آخر على
الأقل. طمأنني عن غير فهم كامل لموقفي قائلاً: «سنحتفظ بكومسيك
جاهزًا لك». لقد اعتقد أنني كنت قلقًا على الصحيفة والوظيفة.

وجلست فبالة «بايل»، وأعدت قراءة الخطاب الذي أتى متأخرًا
للغاية. وللحظة سريعة أحسست بهشوة كذلك النشوة الخاطفة التي
يحس بها المرء ساعة الصحو قبل أن يستعيد قدرته على التنبيه الكامل
والتذكر. سألني «بايل»:

- أخبار سيئة؟

- لا.

حدثت نفسي قائلاً إن الأمر لن يختلف على أي حال فإن إمهالي
عامًا آخر لن يعطل اتفاق الزواج. سألته:

- هل تزوجت؟

- لا.

واحمر وجهه خجلًا، وما أيسر ذلك عليه. وأردف قائلاً:

- الحقيقة أنني أمل الحصول على إذن خاص بالسفر، حيث يتسنى
لنا الزواج في بلادي زواجًا سليمًا.

- سيكون أكثر سلامة إذا ما تم في بلادك؟

- حسنًا، هذا ما ارتأيت، غير عليّ أن أبوح لك بهذه الأمور.
يا «توماس» فأنت إنسان ساخر. ولكن تلك صفة من سمات
الوفار والرسميات، سيكون أبي وأمي هناك، إذ إنها ستكون بشكال
ما واحدة من العائلة. وهذه مسألة لها أهميتها بالنسبة للماضي
- الماضي؟

- أنت تعرف ما أعنيه. فأنا لا أريد أن أخلفها ورائي وثمة وصمة..
- هل ستخلفها ورائك؟

- أظن ذلك. إن أُمِّي امرأة مدهشة. إنها ستصحبها معها في جولاتها
وتقدمها للناس، وهي كما تعرف طريقة تفيدنا في الاندماج
كما ستساعدنا من أجل تجهيز بيت لي.

لم أكن أدري أشعر بالأسى من أجل «فونج» أم لا، كانت تنطلع
من بعيد إلى ناطحات السحاب وتمثال الحرية، ولكن لم يكن لديها
سوى فكرة هزيلة للغاية عما قد تحتويه. الأستاذ «بايل» وزوجته
والنوادي التي تتناول فيها النساء طعام الغداء. ترى هل تتعلم منهن
لعبة «الكاناساتا». وطاقات بخاطري صورتها في أول ليلة التفتت
بها في «الجران موند»، وهي في ثوبها الأبيض نخطر في دلال تان
بقدميها اللتين بلغتا الثامنة عشرة من العمر. وتذكرها منذ شهر مضى
تساوم في سعر اللحم عند محل جزارة في بوليفار دو لا سوم. ترى
هل سرقها محال البقالة الصغيرة النظيفة ذات البريق في نيوانجلاند.
حيث يُباع كل شيء حتى الكرفس ملفوفًا في ورق السلوفان؟ ربما
يروقها ذلك. ولكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك. ومن عجب أنني
ألفت نفسي أردد ما قاله «بايل» منذ شهر مضى:

- كن دمثًا معها يا «بابل». لا تكرهها على شيء، إنها تتألم مثلي
ومثلك.

طبعًا. طبعًا يا «توماس».

إنها تبدو ضئيلة هشة، وهي خلاف نساتنا، ولكن لا تنظر إليها
على أنها... حلية.

- إنه لأمر مضحك يا «توماس»، إذ كيف تأتي الأحداث على غير
ما نتوقع. لقد كنت فرغًا من هذا الحديث، فقد حسبت أنك
ستكون قاسيًا معي.

- كانت لديّ فمحة من الوقت للتفكير وأنا في الشمال إذ كانت
هناك امرأة، ربما رأيت ما رأيته أنت في مستودع الخردة. من
الخير أنها ذهبت معك. ربما كنت خلقتها ورأيت ذات يوم مع
شخص مثل «جرانجر»، مجرد حلية.

- وهل يمكن أن نظل أصدقاء يا «توماس»؟

- أجل بكل تأكيد، فقط أفضل ألا أرى «فونج». لقد خلقت لي
هنا ما يكفي، وهو يحيط بي من كل جانب. لا بد لي أن أبحث
عن شقة أخرى عندما يسمع لي وقتي بذلك.
وأرخص ساقيه ونهض.

- إنني سرور غابة السرور يا «توماس». لا أستطيع أن أعبر لك
عن مدى سروري. أعرف أنني قلت هذا من قبل، ولكنني كنت
أعني حقيقة لو كان هذا مع إنسان آخر سواك.
- وأنا سرور أنه أنت يا «بابل».

لم تكن المقابلة الشخصية هي الطريقة التي تنبأت بها. ولكن

تحت مخططات الغضب الطمعية، وعلى مستوى أبعد غورًا إلى حد ما تشكل بالضرورة خطة العمل الأصلية، إذ طوال الوقت الذي كنت أعضب فيه من برامته كان ثمة قاضي في داخلي انتهى إلى حكم لصالحه، وقارن بين منهجي الذي يستخف بكل شيء وبين مثاليته وأفكاره التي لم يكتمل نضجها بعد، والتي بناها على هدي مؤلفات «يورك هاردنج». آه، لقد كنت على حق بالنظر إلى الحقائق الواقعة، ولكن ألم يكن هو الآخر على حق من حيث إنه شاب ويخطئ. وأليس من المحتمل أن يكون الإنسان الأفضل لفئة لتقضي حياتها معه؟

وتصافحتنا بطريقة رسمية، ولكن كان ثمة خوف لم تكتمل معاناه بعد، دفعني إلى أن أمشي في أثره حتى أول السلم ثم ناديته. ربما كان هناك نبي أيضًا مثلما يوجد قاضي في ساحات القضاء الباطنية، حيث تتخذ قراراتنا الصادقة.

- «بايل»، لا نشك كثيرًا في «يورك هاردنج».

- «يورك»!

وحدجني بنظرة وهو واقف عند أول منبسط.

- نحن أقدم الشعوب المستعمرة يا «بايل»، ولكننا تعلمنا بعض الحقيقة. تعلمنا ألا نلعب بعيدان الثغاب. إن هذه القوة الثالثة لا توجد إلا بين دفتي الكتب، هذا كل ما في الأمر. الجنرال «ني» لبس إلا زعيم عصاة قوامها بضعة آلاف من الرجال، إنه يفتقر إلى الديمقراطية الوطنية.

خلته يحملني في من خلال صندوق للخطابات ليتبين من الذي

هناك الآن. وهو الآن بعد أن أسدل الغطاء، قد احتجز هذا المتطفل غير المرغوب فيه. احتجبت عني عيناه. قال:

- لست أدري ما الذي تعنيه يا «توماس».

- الدراجات المنفجرة. لقد كانت دعابة طريفة حتى وإن فقد فيها رجل

إحدى قدميه. أولى بك يا «هابيل» ألا تتق بأناش مثل «تي». إنهم

لم يخلصوا الشرق من الشيوعية. نحن نعرف هذا النوع من الناس.

- نحن؟

- الاستعماريون القدامى.

- حسبك لا تتحاز لأي جانب.

- أنا لا أنحاز يا «هابيل». ولكن إذا شاء أحد أن يسيء استخدام ما

في حوزتك من معدات فاترك ذلك له «جو». عد إلى بيتك مع

«فونج» وانس القوة الثالثة.

قال بطريقة رسمية:

- إنني دائماً وبكل تأكيد أنظر إلى نصيحتك بعين الاهتمام. حسناً،

سأزورك قريباً.

- أنتوقع هذا.

(٢)

مرت الأسابيع تبعاً دون أن أجده نفسي شقة جديدة. لم يكن السبب

أنني لم أجده فسحة من الوقت، فقد عادت الأزمة السنوية للحرب

من جديد: إذ حل موسم الحرارة والأمطار في الشمال، وخرج الفرنسيون من هوايين، وانتهت معركة الأرز في تورنكين، وكذلك معركة الأيون في لاوس. وأصبح في استطاعة «دومنجيز» أن يغطي كل ما هو مطلوب في الجنوب. وأخيرًا أكرهت نفسي على رؤية شمع في مبنى مما يُقال عنه إنه مبنى حديث (معرض باريس ١٩٣٤) يقع في الطرف الآخر من شارع كاتينات وراء «الكرونتال». وكانت هذه الشقة سكنًا مؤقتًا في سايجون لأحد أصحاب مزارع المطاط قبل أن يزمع العودة إلى بلاده. أراد أن يبيع كل محتوياتها من دون استثناءات لطائفة نساء لت عن محتويات الشقة، وعرفت أن فيها عددًا كبيرًا من أعمال الحفر التي كان يضمها «صالون باريس» فيما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٠. وكان أهم ما فيها امرأة ممثلة الهندية، لها تصفيفة شعر فريدة، وعليها ثياب شيكية تكشف بصورة ما عن فلقه أردافها، بينما تغطي ساحة المعركة. كان المالك أكثر جرأة في الحمام لوجود مستنسخات من أعمال «فيليبان روبس».

سألته:

— أنهوى الفن؟

ابتسم لي ابتسامة متكلفة كأنه رفيق متأمر. كان بديئًا له شارب أسود صغير، وتغطي رأسه شعيرات رقيقة. قال:

— أفضل لوحاتي موجودة في باريس.

وكان بحجرة الاستقبال مظفأة سحائر طويلة غير معتادة على هيئة امرأة عارية بوعاء في شعرها. وكان ثمة أيضًا بعض الزخارف الصينية لفنيات عاريات يحتضن نمورًا، وحلية غريبة لفنات تركب

الوجه، وقد تجردت من ملابسها حتى خصرها. وعلق في مواجهة
سريه الضخم بحجرة النوم لوحة زيتية مصقولة لغتانين مضطجعتين
معا. سألت عن ثمن الشقة من دون المجموعة الفنية ولكنه أبى أن
يفصل بين الاثنين.

سألني:

- ألكم من هواة جمع اللوحات الفنية؟

- لا.

- عندي بعض الكتب أيضًا سأضمرها إلى المجموعة. وإن كنت
قد عزمت على أن آخذ هذه معي.

وفتح خزانة الكتب ذات الواجهة الزجاجية وعرض لي مكتبته،
كانت بها طبعات مصورة ثمينة لـ «أفروديت» و«نانا»، وكان من بينها
كذلك «لأجارسون» بل وعدد من كتب «بول دي كوكس». وراودني
نفسي أن أسأله إن كان يود أن يبيع نفسه كذلك مع مجموعته. فقد
اعتاد النقل معها، وكان كإحدى قلماتها. قال:

- إذا كنت تعيش وحيدًا في البلاد الحارة فإن مجموعة من الأعمال
الفنية هي خير رفيق.

وتذكرت «فونج» لغيابها التام عني. دائمًا؛ إذ ما لذت بالصحرَاء
فإن الصمت يصرخ في أذنيك.

- أحسب أن صحيفتي لن تسمح لي بشراء مجموعة فنية.

- بالطبع لن تذكر هذا في الإيصال.

أحسست بالسعادة لأن «بايل» لم يره. إذ ربما وجد «بايل» في
قسمات هذا الرجل الصورة التي يتخيلها عن «الاستعماري القديم»

الذي يشعر تجاهه بالنفور، عندما خرجت من عنده كانت السماء قد قاربت الحادية عشرة والنصف، وقصدت «البافيلون» لأشرب زجاجة بيرة مثلجة. «البافيلون» مقهى وملقى للنساء الأوروبيات والأمريكيات. كنت على ثقة من أنني لن أرى «فونج» هناك. مر الحقيقة كنت أعلم على وجه الدقة واليقين أين تكون في مثل هذا الوقت من النهار، إنها ليست الفتاة التي تحطم عاداتها. وهكذا فإنني بعد أن خرجت من شقة المزارع عبرت الطريق لتجنب المرور أمام بار اللبن حيث اعتادت في مثل هذا الوقت من النهار أن تتناول شرابها من المولت والشوكرالات.

وكانت فتاتان أمريكيتان صغيرتان تجلسان إلى المائدة المجاورة. وكانتا في هذا القبط اثنتين في هداهما نقيتين، وشرعتا تغترمان الأيس كريم بالملعقة، وعلقت كل منهما على كتفها اليسرى حقيبة تماثل حقيبة الأخرى، عليها شارة لنسر نحاسي. وكانت سيقانهما أيضًا متماثلة، طويلة ورشيقة. وأنفاهما فيهما انحناء خفيف. وكانتا تأكلان الأيس كريم باهتمام وكأنهما تجربان تجربة في معمل الكلية وتساءلت ما إذا كانتا من رفاق «بايل». كانتا فائتين. ووددت لو بعثت بهما إلى الشقة أيضًا. اثنا على الأيس كريم. ونظرت إحداهما إلى ساعتها وقالت: «يجب بنا أن ننصرف حتى نلتزم جانب الأمان». وفكرت في غير اكتراث أي موعد هذا الذي يشغلها.

- قال «وارين» يجب ألا نمكث إلى ما بعد الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة.

- لقد تعدت ذلك الآن.

لا شك أن في البقاء متعة، ولست أدري لِمَ كل هذا. أنعرفين أنتِ؟

- ليس علي وجه الدقة، ولكن «وارين» فضل ألا نبقى.
- أتحسبونها مظهرة؟

- لقد سبق لي أن شهدت مظاهرات كثيرة.

فالتها الفتاة الأخرى بصوت خافت كأنها سائحة غرقت لأذنيها في الكنائس. ونهضت وتركت على العائدة ثمن المرطبات. وقبل أن تنصرف ألقت نظرة حول المقهى. وعكست المرايا الصورة الجانبية لوجهها من كل زاوية منه وقد غطاه النمس. ولم يبقَ غيري وغير سيدة فرنسية في متوسط العمر، زرية الهيئة نحاول جاهدة أن نجعل وجهها ولكن دون جدوى. أما هاتان الفتاتان فما كانتا بحاجة إلى تجميل، جرة سريعة بأحمر الشفاه، ومشط في الشعر. واستقر نظر الفتاة الأمريكية عليّ للحظة خاطفة. لم تكن نظرتها كمنظرات النساء، بل نظرة رجل جادة للغاية، وتبدو كأنما تمنع التفكير في بعض الأمور. وفجأة استدارت بسرعة إلى رفيقتها: «خير لنا أن نتصرف من هنا». وراقبتهما في تراجيح وهما تسيران جنباً إلى جنب في الشارع الذي تناثرت فوقه أشعة الشمس. كان من المستحيل عليّ أن أنصور أيًا منهما فريسة لآلام القذارة. فهما لا علاقة لهما بحرق الجنس وملاءة السرير المثنية. ترى هل تستخدمان مزيجاً للروائح أثناء النوم؟ وألفيتي للحظة أغبطهما لعالمهما التنظيف الذي يختلف اختلافاً بيناً عن هذا العالم الذي أقطه، الذي تحول فجأة إلى شطابا متائرة لسبب غير واضح.

تطايّرت ناحيتي اثنتان من المرايا المعلقة على الجدران، وسقطت على الأرض في منتصف الطريق. وانكفأت المرأة الفرنسية الرأى، الهبشة على ركبتيها وسط حطام من المقاعد والموائد، وفتح حافلتها دون أن يقع منها شيء وسقطت في حجري، وبقيت مكانها حيث كنت جالسا من قبل في غير اكتراث، رغم أن العائدة التي د. جالسا إليها لحقت بالحطام الذي أحاط بالمرأة الفرنسية. واه. المقهى بأصوات غريبة منبعثة من الحديقة: التقاطر المرتيب لـ. نافورة. وألقيت نظرة إلى البار وألقيت صفوفًا من الزجاجات المهشمة. وفد انسكبت محتوياتها عبر أرضية المقهى وصنعت جدولا منه. الألوان: شراب «البورتو» الأحمر، ونبيل «الكوانترو» البرتقالي. وشراب «المشارتروز» الأخضر، و«الباستيس» الأصفر القاتم. اعتدن المرأة الفرنسية في جلستها ونظرت في هدوء حولها بحثًا عن حافله فأعطيتها لها. شكرتني بطريقة رسمية وهي جالسة فوق الأرض. وتحققت من أنني لم أسمعها جيدًا، إذ كان الانفجار قريبًا جدًا حتى إن طبله أذني كانت ما تزال بحاجة إلى بعض الوقت لتخفف من أثر ضغط الانفجار عليها.

قلت في نفسي وقد غلب علي إحساس نكد: «دعابة أخرى من دعابات البلاستيك، ترى ما الذي يتوقع السيد «هنج» أن أكتبه الآن؟» ولكن ما إن دخلت إلى ميدان جرانبير ورأيت سحب الدخان الكثيرة حتى أدركت أنها لم تكن هذه المرة دعابة. كان الدخان ينبعث من السيارات المحترقة في موقف السيارات المواجه للمسرح القومي وتناثرت شظايا السيارات فوق أرض الميدان، ورأيت رجلًا قد فقه.

.. ناقله ملقى عند سور الحديقة وهو يتلوى. وتراحت حشود الناس الوافدين من شارع كاتينات وبوليفار بونار. وتبعت طيلة أذني التي اصمها الانفجار المباعث إلى أصوات سرينة عربات الشرطة وأجراس عربات الإسعاف والحريق. ولحظة خاطفة كنت قد نسيت أن «فونج» كانت بالضرورة في بار اللين على الجانب الآخر من الميدان، فقد كان نمة سثار من الدخان مسدلاً بيننا واستحال عليّ أن أبصر من خلاله. وخطوت إلى وسط الميدان فأوقفني أحد رجال الشرطة. كانوا قد شكلوا سياجاً حول السور ليمنعوا الحشود المتزايدة وسرعان ما بدأت النقالات في الظهور. وتضرعت إلى الشرطي الواقف أمامي قائلاً:

- اسمح لي بأن أعبر، نمة صديق لي...

- قف! هناك كل إنسان هنا له أصدقاء.

وتدحى جانباً ليسمح لقسيس بالمرور، وحاولت أن أقتفي أثر القسيس ولكن الشرطي شدني إلى الخلف.

وقلت له: «صحافة». وبحث عبتاً عن حافظة نقودي التي أحتفظ فيها ببطاقتي الشخصية ولكنني لم أعثر عليها. ترى هل خرجت في ذلك اليوم من دونها؟ وقلت له:

- أخبرني على الأقل بما حدث لبار اللين.

بدأ الدخان يخف تدريجياً، وحاولت أن أرى شيئاً، ولكن الحشود التي تفصل بيننا كانت كبيرة جداً، وقال شيئاً لم أتنبه فسألت:

- ماذا قلت؟

فردد ما قال:

- لا أعرف شيئاً. ارجع. إنك تعوق الطريق أمام النقالات.

ترى هل سقطت مني حافظة نقودي في «البافيلون»؟ واستندرد .
لأعود وإذا بي أجد «بابل» . وصاح بي:

- «توماس» .

- «بابل»، بحق المسيح أين جواز مفضيتك؟ علينا أن نعبر . إن
«فونج» في بار اللبن .

- لا، لا .

- إنها هناك يا «بابل» . إنها تذهب إلى هناك دائماً في الحادية عشر .
والنصف، علينا أن نبحث عنها .

- إنها ليست هناك يا «توماس» .

- وكيف عرفت؟ أين بطاقتك الشخصية؟

- لقد حذرتها من الذهاب .

واستندرت ناحية الشرطي قاصداً أن أنحيه جانباً وأن أندفع عبر
الميدان . قد يطلق عليّ النار ولكنني لن أبالي، وهنا ملأت عليّ
مشاعري كلمة «حذرتها» . وأمسكت بذراع «بابل»، وقلت له:

- حذرتها؟ ماذا تعني بكلمة «حذرتها»؟

- طلبت منها أن تبتعد عن المكان هذا الصباح .

والتأمت أطراف الموضوع في ذهني، وقلت له:

- وماذا عن «وارين»؟ من هو «وارين»؟ لقد حذر هاتين الفتاتين
أيضاً .

- لا أفهمك .

- يجب ألا تقع إصابات بين الأمريكيين، اليس هذا هو الواجب؟
شقت عربة إسعاف طريقها قادمة من شارع كاتينات إلى وسط

الميدان، وتحى الشرطي الذي أوقفني جانباً ليفسح لها طريقاً. وكان الشرطي الواقف بجواره منهمكاً في مناقشة، فدفعت «بايل» أمامي إلى وسط الميدان وأنا من ورائه قبل أن يتمكن أحد من إيقافنا.

الفينا أنفسنا وسط مناحة. وتمكن رجال الشرطة من أن يمنعوا غيرنا من دخول الميدان، ولقد خازت قواهم وهم يحاولون إخلاء الميدان ممن بقوا على قيد الحياة ومن الواقدين الجدد. زاد عبء العمل على الأطباء حتى ما كان في وسعهم الالتفات للموتى، وهكذا خلفوا الموتى لأصحابهم، ذلك لأن المرء يستطيع أن يمتلك ميتاً مثلما يمتلك مقعداً. واتخذت امرأة مكانها على الأرض وفي حجرها ما تبقى لها من طفلها، والتزاماً بنوع من الحياء عظت طفلها بقبتها الريفية المصنوعة من القش. وجلست جامدة في وجوم. وما أذهلني أكثر من أي شيء آخر هو الوجوم الذي ساد الميدان. كان أشبه بكنيسة زرتها ذات يوم أثناء القداس، الأصوات الوحيدة بها هي تلك التي تنبعث ممن يقومون بالصلاة، فيما خلا الأور وبين الذين تراههم هنا وهناك وقد انخرطوا في بكاء وتضرع، ثم خيم عليهم الصمت ثانية وكأنهم صمتموا حياء مما يتسم به الشرق من تواضع وتجلد واحتشام. كان الجذع الأدمي الذي فقد ساقه لا يزال بتفض قرب سور الحديقة كأنه دجاجة ذبيحة. رجحت حين نظرت إلى قميص الرجل أنه كان يعمل سائقاً لعربة «تريشو». قال «بايل»:

- هذا مريع.

ونظر إلى الليل الذي علق بحذائه وقال بصوت أجش:

- ما هذا؟

- دم، ألم يسبق لك أن رأيته في حيائك؟
- لا بد لي من تنظيمه قبل أن أقابل الوزير.
- لا أحب أنه كان يدري معنى ما يقول، فقد كان هذا أول عهد بحرب حقيقية يراها، لقد سبق له أن سار بقاربه في فات ديسم ولكن كان ذلك بالنسبة له أشبه بحلم يترأى للضيف. وعلى أي حال ففي نظره أن الجنود لا قيمة لهم.
- ها أنت ترى ما الذي يمكن أن تفعله أسطوانة من «الديولاكتون» حين تكون بين أيدي أثيمة.
- ودفعته بيدي التي استقرت على كتفه لينظر حواليه. قلت له:
- هذه هي الساعة التي يعج فيها الميدان دائماً بالنساء والأطفال، إنها الساعة التي يتردد فيها الناس للشراء. لماذا اختيرت هذه الساعة دون غيرها من ساعات النهار؟
- قال بحماسة:
- كان من المقرر أن يُقام استعراض عسكري.
- وكان أملككم أن توقعوا ببعض الضباط، ولكن تقرر إلغاء الاستعراض يا «بابل».
- لم أكن أعرف.
- لم تكن تعرف؟
- ودفعته وسط بقعة من الدم حيث كانت إحدى النقالات موضوعة.
- يحسن أن تصلك معلومات دقيقة.
- قال وهو ينظر إلى حذائه:
- كنت خارج المدينة، كان واجباً عليهم وقف العملية.

سألته:

- وتحرمون من هذا المجون؟ أتتوقع أن يتخلى الجنرال «تي» عن استعراضه؟ إن هذا خير من الاستعراض، فالنساء والأطفال يمثلون أخبارًا وقت الحرب، أما الجنود فلا. إن هذا من شأنه أن يحقق مغنمًا لوكالات الأنباء العالمية. ها أنت يا «بابل» قد أبرزت الجنرال «تي» على الخريطة كما يحلوه، وظفرت بالقوة الثالثة والديمقراطية الوطنية على حذائك الأيمن. عد إلى «فونج» في بيتك وأنبئها بأخبار عملك البطولي، فثمة عشرات على الأقل من بني وطنها لتحزن عليهم.

قدم على عجل قسيس قصير يدين حاملًا شيئًا ما فوق طبق مغطى بغطاء. وكان «بابل» قد ظل صامتًا لفترة طويلة ولم يتق لديّ ما أقوله، بل إنني في الحقيقة أسرفت في القول. بدا شاحبًا كبيرًا وعلى وشك الإغماء، وقلت في نفسي: «ما الفائدة؟ سيظل ساذجًا دائمًا وأبدًا، وليس في وسعك أن تلوم السذج. فهم دائمًا أبرياء. وكل ما تستطيع هو أن توجههم أو أن تمحوهم. فالمسذاجة ضرب من الخبيل».

قال:

- إن «تي» ما كان يرضي أن يقدم على هذا، أنا على يقين. لا بد أن شخصًا ما خدعه. الشيوعيون...

لقد كانت نواياه الطيبة وجهله هما درعه الوافة. تركته واقفًا في الميدان واتخذت طريقي إلى شوارع كاتينات حيث تقوم الكاتدرائية الشعة الصبورة ذات اللون القرنفلي حاجزًا بسد الطريق. ورأيت

الناس وقد هرعوا إليها. لا بد أنهم يجدون في الضراعة إلى الموتى عن الموتى سلوى لهم.

وعلى خلافهم كان عندي ما يبرر الشكر. أفلم تكن «فونج» على قيد الحياة؟ ألم تتلقَ «فونج» تحذيرًا؟ بيد أن ما طاف بذاكرتي كان صورة الرجل المبتور في وسط المبدان والعقل في حجر أمه إنهم لم يتلقوا تحذيرًا إذ لم يكن لهم شأن كبير. ولو قدر أن يقام الاستعراض ألم يكن من المحتمل أن يكونوا هناك أيضًا بدافع حب الاستطلاع لمشاهدة الجنود والاستماع إلى الخطباء وليشروا الزهور؟ إن قبلة زنتها مائتا رطل لن تميز. نرى كم عدد الموتى من الضباط الذي يبرر موت طفل أو سائق عربة «تريشو» إذا ما كنت بصدد بناء جبهة وطنية ديمقراطية؟ وأوقفت عربة «تريشو» آلية وطلبت من السائق أن ينجه بي إلى كاي ميشو.

الجزء الرابع

الفصل الأول

كنت قد أعطيت «فونج» نقودًا لتذهب مع أختها إلى السينما حتى
أضمن لها الأمان بعيدًا عن الطريق. وخرجت لتناول الغداء مع
«دومنجيز» ثم عدت إلى حجرتي وانتظرت بها إلى أن نادى عليَّ
«فيجو» في العاشرة. واعتذر عن تناول أي شراب، قال إنه متعب
للمغاية، والشرب قد يسلمه للنوم. كان يومًا طويلًا حافلًا.

- جريمة قتل وموت مباحة؟

- لا، سرقات تافهة ويضع عمليات انتحار، هؤلاء الناس
يعشقون القمار وإذا خسروا كل شيء فتلوا أنفسهم. ربما
ما كنت أرتضي لنفسي أن أكون من رجال البوليس لو كنت
قد عرفت أنني سأضطر إلى قضاء هذا الوقت الطويل في
المشرفة. إنني أعاف رائحة التشادر. ربما، بعد كل هذا،
سأشرب بيرة.

- ليست عندي حاجة للأسف.

- على عكس المشرفة. إذن قليلًا من الويسكي الإنجليزي؟

وتذكرت ليلة أن صحبته إلى المشرفة، وأخرجوا جثة «بابا»
وكانهم يحجون صبية عليها مكعبات من الثلج. سألتني:

- إذن فلن تعود إلى بلادك؟

- هل يعنيك التأكد من ذلك؟

- أجل.

قدمت له الويسكي حتى يبين مدى هدوء أعصابي. قلت له:

- «فيجو»، وددت لو قصصت عليّ لماذا ظننت أن لي مصلحة من

وفاة «بايل». هل هي مسألة دافع؟ هل لأنني أردت أن أسنه.

«فونج»، أم أنك تتصور أن هذا كان انتقامًا لأنني فقدتها؟

- لا، فليست غيبًا إلى هذا الحد. إن المرأة لا يحتفظ بأحد كـ

عدوه لمجرد الذكرى. ها هو ذا فوق رف كتبك «دور الغرب»

من هو هذا المدعو «يورك هاردنج»؟

- هو الرجل الذي تبحث عنه يا «فيجو»، لقد قتل «بايل» على

المدى الطويل.

- لا أفهم.

- إنه صحفي من النوع الراقى. يسمونهم «مراسلون دبلوماسيون»

يلتزم بفكرة ما ثم يغير كل موقف يصادفه بحيث يتلاءم مع هذه

الفكرة. جاء «بايل» إلى هنا مشبعًا بفكرة «يورك هاردنج».

وحدث أن قدم «هاردنج» إلى هنا ذات مرة وقضى أسبوعًا وهو

في طريقه من بانكوك إلى طوكيو. وقد ارتكب «بايل» غلطة

محاولة تطبيق فكرته في الحياة العملية. فقد كتب «هاردنج»

عن القوة الثالثة، وعمل «بايل» على تشكيل واحدة، عصابة

حقيرة هي صورة مقلدة قوامها ألفان من الرجال وزوجان من
النمور المتأنسة. تورط في الأمر.
- ألم يحدث لك أن نورطت في هذا؟
- حاولت جهدي ألا أتورط.
- ولكنك أخفقت يا «فاولر».

ولسبب ما طاف بخاطري الكابتن «تروين»، وتلك الليلة التي
فصبناها في بيت الأفيون في هاينويج، التي يُخيل إليّ وكأنما انقضى
عليها سنون عديدة. ما الذي قاله؟ قال كلاماً يعني أننا جميعاً إن عاجلاً
أو أجلاً ستورط في لحظة من لحظات الانفعال. قلت له:
- كان أولى بك أن تكون قيساً معتزلاً يا «فيجو». ما حكايته حتى
يأتي الاعتراف هكذا سهلاً على يديك، إن كان نساء ما أعترف به؟
- أنا لم أطلب أبداً أي اعترافات.

- ولكنك تتلقاها.

- من حين لآخر.

- ترى هل لأنك تتصرف كما يتصرف القسيس فإنك تتوخي
ألا يكون عملك مفاجئاً بل متعاطفاً. «يا سيد «فليك»، أجد
لزماً عليّ أن أقص عليك بالدقة لماذا هشت جميعه المرأة
العجوز». «أجل يا «جوستاف»، خذ فحتك من الوقت،
واقصص عليّ لماذا حدث هذا!».

- إنك تتمتع بخيال جامع. ألسنت ثملاً يا «فاولر»؟

- يقيناً ليس من الحكمة في شيء أن يسكر مجرم وهو في صحة
ضابط بوليس.

- ما قلت قط إنك مجرم.
- ولكن لنفترض أن الخمر أهاجت في نفسي الرغبة في الاعتراف.
- إن مهتكم لا تؤمن بسر الاعتراف.
- السرية نادرًا ما تكون أمرًا ذا بال لمن يقدم على الاعتراف حتى وإن كان بين يدي قسيس، إذ إن ثمة بواعث أخرى تدفعه.
- أن يظهر نفسه.
- ليس ذلك دائمًا. أحيانًا لا ينشد أكثر من أن يرى نفسه نفيًا كما هو. وأحيانًا يكون قد أنهكه خداع النفس. لست مجرمًا يا «فاولر» بيد أنني أود أن أعرف لماذا كذبت عليّ. لقد رأيت «بايل» ليلة مصرعه.
- من أعطاك هذه الفكرة؟
- أنا لا يدور بخليدي ولو للمحظة أنك قاتله. ربما لم نستخدم قط سكينًا صديًا.
- صديًا؟
- هذه بعض التفاصيل التي عرفناها من التشريح الكشفي، قلت لك هذا رغم أنه ليس هو سبب الوفاة، بل طمعي قنطرة داکو.
- قدم لي كأسه الفارغة لمزيد من الويسكي. استطرد:
- لنرَ الآن، هل تناولت شرابًا في «الكوئنتال» في الساعة السادسة وعشر دقائق؟
- أجل.
- وفي السادسة وخمس وأربعين دقيقة كنت تتحدث مع صحفي آخر عند باب «الماجستيك»؟

- أجل، «ويلكنز». ولقد قصصت عليك كل هذا من قبل يا «فيجو»،
في تلك الليلة.

- أجل، ولقد تحققت من هذا بعد ذلك. من دراعي الدهشة حقًا
أنك تحفظ في رأسك بكل هذه التفاصيل الصغيرة.

- أنا مخبر صحفي يا «فيجو».

- ربما كانت المواعيد غير دقيقة تمامًا. ولكن ليس هناك من
يستطيع أن يلقي عليك اللوم إذا ما أخطأت في ربع ساعة هنا أو
عشر دقائق هناك. أليس كذلك؟ فليس ثمة ما يدعوك للاهتمام
بالمواعيد. والحقيقة أن دقت الساعة الكاملة مدعاة للشك.

- ألم أكن دقيقًا تمامًا؟

- ليس على وجه الدقة. إذ إنك كنت تتحدث مع «ويلكنز» في
السابعة إلا خمس دقائق.

- وهذه عشر دقائق أخرى.

- بالطبع، كما قلت لك. ودقت الساعة السادسة عندما وصلت
إلى «الكونتال».

- ساعتى دائمًا تقدم قليلًا، كم ساعتك الآن؟

- العاشرة وثمانى دقائق.

- وساعتى العاشرة وثمانى عشرة دقيقة. أرايت؟

لم يكلف نفسه عناء النظر إليها. قال:

- إذن فقد أخطأت في خمس وعشرين دقيقة في تحديدك للموعد

الذي تحدثت فيه مع «ويلكنز»، حسب ساعتك هذه غلطة،

أليس كذلك؟

- ربما قدرت الزمن الصحيح في فهني. أو ربما ضبطت ساءر
- في ذلك اليوم. فأنا أفضل ذلك أحياناً.
- إن ما يعنيني - هل لي في قلبل من الصودا؟ إن هذه الكأس مـ
- بعض الشيء - هو أنك لم تغضب مني أبداً. ومن ثم فليس مـ
- المستحب أن استجوبك كما أستجوبك الآن.
- أما أنا فأحس بمتعة كأنها قصة بوليسية. ثم إنك تعرف في بها،
- الامر أنني لم أقتل «بابل»، لقد قلت لي هذا.
- أعرف أنك لم تشهد الجريمة.
- لست أدري ما الذي تود أن تدلل عليه حين تبين أنني أخطأ.
- في عشر دقائق هنا وخمسن دقائق هناك.
- إنها تعطي فسحة قليلة من الوقت، فجوة زمنية ضئيلة.
- فسحة من الوقت لأي شيء؟
- لـ «بابل» حتى يأتي ويزورك.
- لماذا تلح في التدليل على هذا؟
- بسبب الكلب.
- وماذا عن الوحل العالق بمخالبه؟
- لم يكن وحلاً، كان أسماً. معنى هذا أنه وقتما كان يقتضي أنـ
- «بابل» في مكان ما في تلك الليلة خاض في أسعت مبلل
- وفطنت إلى أن بعض البنائين كانوا يعملون فوق أرضية السطح،
- وهم ما زالوا يعملون. لقد مررت بهم الليلة وأنا أقدم إلى هنا.
- إنهم يعملون ساعات طويلة في هذا البلد.

- ما أكثر الليوت التي يعمل فيها بناءون وبها أسمنت مبلل، هل يذكر أي منهم الكلب؟

- سألتهم عن هذا بطبيعة الحال، ولكنهم لو تذكروا قلن ينبتوني بذلك، فأنا الشرطة.

كف عن الحديث ومال بظهره إلى الكرسي، وهو يحدق في الكوب. وأحسست أن تشابهها ما قد أثار انتباهه وأنه سرح بفكره إلى أمال بعيدة. ومشت ذباية على ظهر يده فلم يطردها، إنه لا يزيد في شيء عما كان يمكن أن يفعله «دومنجيز». واستشعرت في نفسي مرة ما جامدة وغامضة. ذلك لأن كل ما استطعت أن أميزه هو أنه ما كان بصلي.

ونفضت ودلفت بين الشائر إلى حجرة النوم. لم يكن ثمة ما أربده بها سوى أن أتخلص لحظة من هذا العصمت الجالس فوق المقعد. لقد عادت كتب «فونج» مرة أخرى إلى الرف، ولصقت بين الأدفنة برقبة مرسله لي. قد تكون رسالة أو شيئاً ما من مكتب الصحيفة في لندن. لم أكن في حال مزاجية تسمح لي بفضها. كل شيء كما كان قبل مجيء «بايل». الحجرات لا تتغير والحلي تبقى حيث تضعها، لئلا خلا القلب فهو الذي يضمحل.

عدت إلى غرفة الاستقبال، ووضع «فيجواء» كاسه على شفته. قلت:

- ليس عندي ما أقوله لك، لا شيء على الإطلاق.

- إذن سأصرف، أحسني لن أزعجك ثانية.

وعند الباب استدار لي وكأنه لا يريد أن يفقد الأمل، أمته هو ا
أملتي أنا.

- لقد كان غريبًا بالنسبة لك هذا الفيلم الذي ذهبت لمشاهدته في
تلك الليلة. لم أكن أحسب أنك تهتم بأفلام الدراما التاريخية.
ما اسم ذلك الفيلم؟ «روبن هود»؟
- أظنه كان «سكاراموش». أردت أن أقتل الوقت، وكنت بحاجة
إلى التسلية.
- تسلية؟

وحرصت على أن أفسد له ذلك قائلاً:
- كلُّ مناله همومه الخاصة يا «فيجو».

بعد أن انصرف «فيجو» كان لا يزال أمامي ساعة من الزمن أنصرف
فيها «فونج» وصحية منعشة. لقد كان غريبًا ما أحدثته زيارة «فيجو»
من اضطراب. كان أشبه بشاعر قدم ليعرض عليّ إنتاجه لأنفاً،
ولكنني هدمته له بإهمالي. كنت رجلاً بغير مهنة، إذ إنني لا استظم
بصورة جدية أن أعتبر الصحافة مهنة، ولكنني أعترف بأن ما سواه
مهنة حقيقية. والآن بعد أن انصرف عني «فيجو» ليختم ملفه الذي
لم يكن قد اكتمل بعد ووددت لو وائنتني الشجاعة لأستدعيه ثانية وأقول
له: «أنت على حق، لقد رأيت فعلاً «هايل» ليلة أن لقي مصرعه».

الفصل الثاني

(١)

في طريقي إلى كاي مبثو مررت بعدد من سيارات الإسعاف خارجة من حي شولون ومتجهة صوب ميدان جارنير. يوسع المرء أن يقدر سرعة انتشار الإشاعة من خلال التعبيرات العرّسمة على الوجوه في الشوارع، التي قد تقبل لتوها ناحية شخص ما مثلي قادم من ناحية الميدان وفي عيونها ترقب وتفكير. في الوقت الذي دخلت فيه حي شولون أحسّت أنني سبقت إليها الأخبار: الحياة نشطة عادية لم يقطعها شيء، لا أحد يعرف.

وصلت إلى مستودع السيد «شو». صعدت الدرج قاصداً بيته. لم يتغير فيه شيء منذ زيارتي الأخيرة. القطة والكلب ينتقلان من فوق الأرضية إلى صناديق الكرتون ثم إلى الحفائب كأنهما زوج من أحصنة الشطرنج لا يستطيع أن يمسك أحدهما بالآخر. الطفل يحب على الأرض. وما زال الشخان يلعبان معاً لعبة «المهينج».

لم يغيب سوى الشبان. وما إن ظهرت عند الباب حتى شرعت إحدى السيدات تصب لي الشاي. المرأة العجوز جالسة على سريرها تتلطم إلى قدميها.

سالت: «السيد «هنج»». وهزئت رأسي رافضاً الشاي، إذ لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي أن أبدا سلسلة طويلة من هذا الشراب الدم الحقيق. قلت بالفرنسية: «يجب أن أرى السيد «هنج» بأي وسيلة». وبدأ لي أن من المستحيل أن أعبر لهم عن مدى ما في قلبي من الحاح وعجلة. ولكن ربما تسبب رفضي للشاي بجفاء شديد في نوع من عدم الارتياح. أو ربما كنت مثل «بايل» يغطي الدم حذائي. على أي حال فبعد فترة انتظار وجيزة قادتني امرأة إلى الخارج ثم هبطت معي الدرج، وسارت على طول شارعين نحف بهما الأعلام وتعج بالناس الذين انكبوا على أعمالهم. وتركني أمام مكان أحسب أن الناس في بلاد «بايل» يسمونه «البهو الجنائزي». كان مليئاً بجرار حجرية وهي الجرار التي يضعون فيها أخيراً عظام الموتى من الصينيين بعد أن يخرجوها من قبورها. قلت لعجوز صيني عند المدخل: «السيد «هنج»، السيد «هنج»». وخلت المكان الملائم لكي أخرج إليه في يوم بدأت مع مجموعة مزارع المطاط الفنية الإيروتيكية، ثم واصلته مع جثث القتلى في الميدان. نادى شخص ما في حجرة داخلية، أفسح الصيني العجوز وسمح لي بالدخول.

قدم السيد «هنج» مُرحباً في بشاشة، وأدخلني حجرة صغيرة بعيدة، وقد صفت بها مقاعد سوداء منحوتة وغير مربحة، وهي من النوع الذي تصادفه في كل حجرة انتظار صينية، وتلاحظ دائماً أنها لم

ستعمل ولم تستقبل أحدًا. بيد أنني أحسست هذه المرة أن المقاعد قد استخدمت، إذ وجدت على المائدة خمسة أقذاح صغيرة للشاي من بينها اثنان لم يفرغًا بعد. قلت:

- لقد قطعتم لقاءكم.

قال السيد «هنج» مراوغة:

- كان لقاء من أجل العمل غير ذي أهمية. يسعدني دائمًا أن أراك يا سيد «فاولر».

- قدمت من ميدان جازنبر.

- هذا ما قدرته.

- هل سمعت...

- حدثني أحدهم بالهاتفون، ورأيت من الأفضل أن أبتعد لفترة عن بيت السيد «شو»، إذ إن البوليس سينشط كثيرًا اليوم.

- ولكن لا علاقة لك بالموضوع؟

- إن عمل البوليس هو العثور على منهم.

- إنه «بايل» مرة أخرى.

- أجل.

- إنه شيء مريع هذا الذي أقدم عليه.

- إن الجنرال «تي» ليس بالشخصية التي يسهل التحكم فيها.

- والبلستيك لا يأتي من بوسطن من أجل الصبى هنا، من هو

رئيس «بايل» يا «هنج»؟

- يخالجنى إحساس بأن السيد «بايل» هو سيد نفسه إلى حد كبير.

- من يكون؟ «أو. إس. إس»؟

- الحروف الأولى غير ذات أهمية كبيرة.

- ماذا يمكنني أن أفعل يا «هنج»؟ لا بد أن يوقف عند حد.

- بوسعك أن تنشر الحقيقة، أم ترى لا تستطيع ذلك؟

- صحيفتي لا يعنيهها الجنرال «تي». إن ما يعنيههم فقط هو شعبهم يا «هنج».

- أتريد حقًا يا سيد «فاولر» أن يوقف السيد «هايل» عند حد.

- آه لو رأيته يا «هنج». لقد وقف هناك وقال إنها غلطة محزنة، فها كان من المنتظر أن يتم استعراض عسكري. قال إن عليه أن ينظف حذاءه قبل أن يرى الوزير.

- بوسعك بالتأكيد أن تخبر البوليس بها نعرفه.

- البوليس هو الآخر لا يعنيه الجنرال «تي». وهل تظن أنهم يجرؤون على المساس بأي أمريكي؟ إنه ينمّع بحصانه دبلوماسيّة. وهو خريج جامعة «هارفارد»، والوزير مولع به.

- «هنج»، كانت هناك امرأة غطت طفلها بقبعتها المصنوعة من القش. صورنها لا تفارقني. كانت هناك غيرها في قات ديم.

- يجب عليك أن تهدئ من روعك يا «فاولر».

- ماذا سيفعل بعد ذلك يا «هنج»؟ كم قبيلة وطفلاً ميتًا يمكنك الحصول عليهم من أسطوانة من «الديولاكتون»؟

- هل أنت على استعداد لمساعدتنا يا سيد «فاولر»؟

- إنه بصدد أن يمعن في خطته، والناس سيموتون بسبب أخطائه.

- وددت لو أن أتباعكم اقتصوا منه عند النهر ناحية نام دين، فلو حدث هذا لكان ثمة قارق كبير لأرواح عديدة.

- أو اقلقك على هذا يا سيد «فاولر». يجب أن يكبح جماحه. عندي اقتراح لتنفيذه.

وسعل شخص ما في رقة خلف الباب، ثم يصر بصوت عالٍ. قال: - ماذا لو دعوته للغداء الليلة في «فيو مولان»، فيما بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف.

- ما جدوى...

- ستحدث معه في الطريق.

- قد يكون مشغولاً.

- ربما يكون من الأفضل لو طلبت منه زيارتك في السادسة والنصف. سيكون طليقاً في ذلك الوقت، وسأني بقيتاً. وإذا كان بوسعه أن يتناول الغداء معك خذ كتاباً ناحية النافذة وكأنك تريد مزيداً من النور.

- لماذا «فيو مولان»؟

- لأنه عند قنطرة دافو، أحسب أننا سنستطيع أن نجد هناك مكاناً للحديث.

- ماذا ستفعل؟

- أنت لا تريد أن تعرف ذلك يا «فاولر». ولكن اعدك أننا سنتصرف معه برقة حسبما يسمع الموقف.

تحرك أصدقاء «هنج» غير المرثيين كما تنحرك العرذان خلف الحائط.

- هل لك أن تفعل ذلك من أجلنا يا سيد «فاولر»؟

- لست أدري، لست أدري.

– على المرء أن يلتزم جانباً ما، إن أجلاً أو عاجلاً. هذا إذا ما أراد
أن يظل إنساناً.

قالها «هنج». وعادت إلى ذاكرتي صورة كابتن «تروين» و«
يتحدث إليّ في بيت الأفيون.

(٢)

تركت مذكرة في المفوضية أطلب فيها من «بابل» أن يأتي، ثم اتخذت
طريقي إلى «الكوتنتنثال» للشرب. كان قد أزيل كل الحطام هناك،
وأغرقت المظائق المبدان بالمياه. ولم تكن نديّ أي فكرة آنذاك كيف
سيصبح المكان والزمان مهيبن. بل إنني فكرت في أن أقضي المساء
هناك جالساً وأخلف مو عدي. ثم دار بخلدي أنني ربما أتمكن من أن
أخيف «بابل» وأشل نشاطه إذا ما حذرته من مغبة أعماله وخطواتها.
أيّا كان هذا الخطر. وهكذا أتيت على ما أمامي من بيرة، وذهبت إلى
البيت. وعندما وصلت إلى البيت شرعت أعمل لو أن «بابل» تخلف
عن الحضور. حاولت أن أقرأ ولكن لم أجد على الرف شيئاً يسترعي
انتباهي. ربما كان يحسن بي أن أدخن. ولم يكن هناك من يعد لي
غليوني. وأنصتُ على غير رغبة مني لعلني أسمع وقع أقدام، وأخبراً
ها هي ذي. وطرق شخص ما الباب. فتحت الباب ولكنني لم أجد
أمامي سوى «دومنجيز». قلت:
– ماذا تريد يا «دومنجيز».

نظر إليّ وقد بدت عليه معالم الدهشة:

- تريد؟

وتطلع إلى ساعته:

- هذا هو الموعد الذي آتي فيه دائماً. هل وصلتك أي بركات؟
- آسف، لقد نسيت. لا.

- ولكن موالاة أخبار القنبلة؟ ألا تريد أن تسجل شيئاً بالريد؟
- أوه، سجل رسالة نبأية عني يا «دومنجيز». لست أدري ما الوضع،
يبدو أنني عانيت قليلاً من أثر الفجيرة لأنني كنت هناك في
مكان الحادث. لا يعني التفكير في الأمر في حدود صيغة
خاصة بترقية.

سددت ضربة لبعوضة أنت تظن قرب أذني، ورأيت «دومنجيز»
يرتد بحركة غريزية مجفلاً عند هذه اللطمة:
- حقاً يا «دومنجيز»، لقد قصرت في هذا.

كشر عن أسنانه مبشساً. لم يكن يجد مبرراً للنفور من الحياة. ثم
إنه مسبحي في نهاية الأمر، واحد من أولئك الذين تعلموا من «نيرون»
كيف نصنع الشموع من أجساد البشر. سأل:
- هل ثمة ما يمكن أن أؤديه لك؟

إنه لا يشرب الخمر، ولا يأكل اللحم، ولا يقتل، وغبطته لرفعة
تفكيره:

- لا يا «دومنجيز»، كل ما أريده هو أن تتركني وحدي الليلة.
راقبه من النافذة وهو يمضي عبر شارع كاتينات. توقف سائق
عربة «تريشو» بجانب الرصيف المقابل لنافذتي. حاول «دومنجيز»

أن يستأجره ولكنه هز رأسه رافضاً. ظننت أنه يقف في انتظار زبون في أحد المحال، لأن هذا المكان ليس مخصصاً لانتظار عربات «التريشو». وعندما نظرت إلى ساعتى دهشت حين تبين لى أنى وقتت منتظراً ما يزيد عن عشر دقائق.

عندما طرق «بابل» الباب لم أكن قد تمكنت حتى من سماع خطوه. - ادخل.

ولكن كما هي العادة دائماً دخل الكلب أولاً.

- أسعدتني مذكرتك يا «توماس». ظننت هذا الصباح أنك ضفت بي ذرعاً.

- ربما كان هذا صحيحاً، فلم يكن منظرًا شيقاً.

- لعل الأمر يكون قد اتضح لك الآن أكثر من ذي قبل. ومن ثم فلا ضرر في أن أقص عليك المزيد. لقد رأيت «تي» بعد ظهر اليوم. - رأيت؟ هل هو في سايجون؟ أحسبه جاء ليرى النتائج التي حققتها قنبلة؟

- هذا سر يا «توماس». لقد تعاملت معه بقسوة بالغة.

كان يتحدث كرئيس لأحد الفرق المدرسية وجد أحد صيته يخرج على تعاليمه في التدريب. وأياً كان الأمر فقد سأله وفي نفسي أمل غامض:

- هل بهذته تمامًا؟

- قلت له إنه لو أقدم ثانية على مثل هذا العمل الأهوج فإننا لن نتعاون معه ثانية.

- ولكن أتم تقطع علاقتك معه تمامًا يا «بابل»؟

ولكنزت في ضجر كلبه الذي أخذ يدور حولي ويشم كعب قدمي.
- لا أستطيع ذلك، اهدأ يا «ديوك»، فهو الأمل الوحيد لنا على
المدى الطويل، إذ لو أتى إلى السلطة بمساعدتنا فلننا نستطيع
أن نركن إليه.

- كم من البشر يجب أن يلقوا حتفهم قبل أن تدرك...
ولكن بوسعي أن أقول إن هذا جدال ميؤوس منه.
- أدرك ماذا يا «توماس»؟

- ليس ثمة شيء اسمه «العرفان بالعجيب» في السياسة.
- على الأقل فلأنهم لن يكرهونا مثلما يكرهون الفرنسيين.
- هل أنت على يقين من ذلك؟ إننا أحياناً نشعر بنوع من الحب
لأعدائنا. وفي بعض الأحيان نشعر بالكرهية لأصدقائنا.
- أنت تتحدث كأوروبي يا «توماس»، هؤلاء الناس ليسوا معقدين.
- هل هذا هو ما تعلمته خلال أشهر قليلة؟ ربما تسميهم بعد ذلك
«أشياء أطفال».

- حسن، على نحو ما.
- اتني بطفل غير معقد يا «بايل». عندما كنا في ميعة الصبا كنا
مجموعة متشابكة من التعقيدات. إننا نبسط الأمر كلما امتد
بنا العمر.

ولكن ما جدوى الحديث معه؟ ففي حجج كل منا جانب من
الزيف. لقد كنت على وشك أن أصبح محرراً مسؤولاً قبل دوري.
نهضت قاصداً رف الكتب.

- ما الذي تبحث عنه يا «توماس»؟

- أوه، مجرد فقرة مولع بها. هل لك في العشاء معي يا «بايل»؟
- أحب ذلك يا «توماس». إنني مسرور غاية السرور إذ لم تعد
تضيّق بي. أعلم أنك تختلف معي في الرأي، ولكن بوسعنا أن
نختلف في الرأي ونظل أصدقاء. أليس كذلك؟
- لست أدري، لا أظن ذلك.

- إن «فونيج» أخطر شأنًا من كل هذا في نهاية الأمر.
- هل تؤمن بذلك حقًا يا «بايل»؟
- إنها أهم من كل شيء في الدنيا، عندي وعندك يا «توماس».
- لم تعد كذلك بالنسبة لي.

- لقد كانت صدمة مفزعة لك اليوم يا «توماس». ولكن سترى
كيف ننسى كل هذا بعد أسبوع. نحن نعني بدوي القريب أيضًا
- نحن؟

- لقد أبرقنا إلى واشنطن، سنحصل على إذن باستخدام جانب
من رصيدنا.
قاطعه قائلًا:

- ما رأيك في «فيو مولان»؟ بين التاسعة والتاسعة والنصف؟
- حيثما تحب يا «توماس».
ذهبت ناحية النافذة.

كانت الشمس قد غابت إلى ما دون السقوف. وسائق «التريشو»
ما زال منتظرًا أجره. نظرت إليه من علٍ ورفع وجهه لي.
- هل تنتظر أحدًا يا «توماس»؟
- لا، ثمة مقطوعة شعرية أبحث عنها.

ولكني أخفي عنه تصرفي رفعت كتابي أمام آخر شعاع من الضوء
وقرأت:

أشق بعربي الطرقات غير عابئ
يحدجني الناس بنظراتهم ويسألون من أنا
ولو تصادف أن قلت تحت عجلاتي خبيثًا
فبوسعي أن أدفع ثمن الخسارة مهما كان باهظًا
آه، ما أطيّب أن تكون ذا مال
ما أطيّب أن تكون ذا مال.

قال «هايل» بإشارة منه تنم عن الاستكثار:

- هذه قصيدة من النوع الخفيف.

- إنها لشاعر شاب في القرن التاسع عشر، لم يكن ثمة كثير من
أمثاله.

تطلعت إلى الشارع ثانية.

كان صائق «التريشو» قد انصرف.

سألني «هايل»:

- هل أقلعت عن الشراب؟

- لا. ولكن أحسب أنك لم...

- ربما بدأت أشعر باسترخاء. هذا تأثيرك. في ظني أنك خير عون
لي يا «توماس».

وأحضرت الزجاجاة والكأسين، كنت قد نسيت واحدة منها في
المرة الأولى، ثم كان عليّ أن أعود ثانية لأحضر الماء. كان كل ما
أفعله في هذا المساء يستغرق مني وقتًا طويلاً. قال:

- أتعرف أن لي عائلة تبحث على العجيب. ولكن ربما كان أبواي على صواب إلى حد ما. فنحن نمتلك بيتاً من تلك البيوت العتيقة في شارع شستينات على الجانب الأيمن وأنت في طريقك إلى التل. وأمّي تهوى جمع الأنية الزجاجية. ويعمل أبي عندما يفرغ من تفتيت الصخور القديمة على تنسيق كل ما يقدر عليه من مخطوطات ومسودات «دارون». وهكذا كما ترى فإنهما يعيشان مع الماضي. وربما كان هذا هو السبب في أن «يورك» كان له هذا التأثير عليّ، فقد بدا لي نوعاً من الانفتاح على الأوضاع المعاصرة. أما أبي فإنه انعزالي.

- ربما يستهويني أبوك، فأنا انعزالي أيضاً.

كان «بايل» في تلك الليلة، وهو الرجل الصموت، في حالة مزاجية تشجعه على الحديث. ولم أسمع منه كل ما قاله، فقد كان ذهني شاردًا في مكان آخر. وحاولت أن أقنع نفسي بأن السيد «هنج» يملك وسائل أخرى ميسرة له غير الوسيلة الفظة المعروفة. بيد أنني كنت أعلم ألا مجال للتردد في حرب كهذه، فالمرء يستخدم ما يملك من سلاح، الفرنسيون يستخدمون قتال «النابالم»، والسيد «هنج» يستخدم الرصاصة أو السكين. وحدثت نفسي، ولكن بعد فوات الأوان، أنني لم أنصّب قاضيًا. على أن أترك «بايل» يتحدث هنيهة ثم أحفره. فبوسعه أن يقضي الليلة في بيتي. ولسوف يكون عسيرًا عليهم أن يقتحموا المكان حينئذ. أحسب أنه كان يتكلم عن مريثه العجوز في الماضي - وذلك عندما قاطعته وهو يقول:

- لقد كانت في الواقع تعني الكثير بالنسبة لي أكثر من أمي.
واعتادت أن تصنع لي فطائر التوت.
قلت له:

- هل تحمل معك سلاحًا الآن، بعد تلك الليلة؟
- لا، لدينا أوامر المفوضية.

- ولكن ألسنت تقوم بمهام من نوع خاص؟

- لا جدوى في ذلك، فلو أرادوا قتلي لاستطاعوا ذلك في أي
وقت. وعلى أي حال فأنا أعمى كطائر الغر. كانوا يسمونني في
الكلية «الخفاش»، ذلك لأنني كنت قادرًا على الرؤية في الظلام
مثل الخفافيش. حدث ذات مرة بينما كنا نلهو...

وهكذا ابتعد عن الموضوع ثانية. عدت إلى النافذة.

ألفيت في مواجهتي سائق عربة «التريشو» منتظرًا. لم أكن على
يقين فهم متشابهون إلى حد كبير، ولكن أحسب أنه شخص آخر.
ربما اهتدى إلى زبون حقًا. خطر في ذهني أن «بابل» يجد أمانًا أكثر
في المفوضية، إذ لا بد أنهم، بعد إشارتي، قد أعدوا خططهم لما
سيحدث بعد ذلك في المساء، شيء ما عند قنطرة داكو. لم أستطع
أن أفهم لماذا أو كيف، ولكن من المؤكد أنه لن يكون من الحمق
بحيث يتجه بيلارته عبر قنطرة داكو بعد الغروب، فضلًا عن أن جانب
القنطرة الواقع ناحيتنا تحرره دائمًا قوة من الشرطة المسلحة.
قال «بابل»:

- أنا وحدي أثرثر، لست أدري كيف حدث هذا، بيد أنني إلى حد
ما هذا المساء...

- استمر، إني أميل إلى الصمت. هذا كل ما في الأمر، ربما ٥٥.
من الخير أن تلغي هذا العشاء.

- لا، لا تفعل ذلك. لقد أحست بالقطيعة عنك منذ... حسن..
- منذ أن أنقذت حياتي.

قلت ذلك ولم أستطع أن أخفي مرارة جرحي الذي لا يلتئم.
- لا، لم أقصد ذلك. ألم تكن تتحدث بنفس الطريقة في تلك
الليلة. أليس كذلك؟ وكأنها كانت ساعتنا الأخيرة. لقد عرفت
يومها الكثير عنك يا «توماس». أنا لا أتفق معك، إن كنت
تذكر ذلك، ولكن ربما تكون على حق من وجهة نظرك. في
ألا تتورط. ولقد التزمت بذلك حتى بعد أن كسرت سارك،
بقيت محايدًا.

- ثمة نقطة يحدث عندها التحول دائمًا، لحظة من لحظات
الانفعال.

- لم تبلغ بعد هذه اللحظة، وأشك في أنك ستبلغها يومًا ما.
ثم أردف قائلاً في طرب:

- وليس من المحتمل أن أتحوّل أنا أيضًا، إلا إذا كان دون ذلك
الموت.

- حتى رغم ما حدث هذا الصباح؟ أما كان من الممكن أن يغير
هذا من آراء الإنسان؟

- كانوا ضحايا حرب لا غير. إنه أمر يدعو للرتاء، ولكنك لا تستطيع
دائمًا أن تصيب هدفك. على أي حال فقد ماتوا من أجل قضية
عادلة.

- أكنت ستقول نفس هذا الكلام لو كان الأمر متعلقًا بموئيتك العجوز وفطيرتها المحشوة بالتوت؟

أغفل هذا المعنى السهل الذي ذهبت إليه. قال:

- بوسعك أن تقول بشكل ما إنهم ماتوا من أجل الديمقراطية.

- لن أعرف كيف أترجم هذا إلى اللغة الفيتامية.

وفجأة أحست بأم شديد. وددت لو أنه غرّب عن وجهي بأسرع ما يمكن ولقي حتفه. وهنا قد أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد، من حيث كنت قبل أن يأتي.

- لن تأخذ حديثي مأخذ الجد أبدًا يا «توماس».

فألها شاكيا وفي نفسه فرحة التمتع الذي يلوح عليه أنه شعر عن ساعده لهذه الليلة الليلية.

- اسمع، ماذا لو نقضي هذه الأمسية كلها معًا حيث إن «فونج» في السينما؟ ليس عندي ما يشغلني الآن.

وخُيِّل إليّ وكأن شخصًا ما في الخارج كان بدله على الطريقة التي يتقي بها ألفاظه بحيث يلجني كل عذر ممكن. استطرد يقول:

- لماذا لا نذهب إلى «الشاليه»؟ لم أذهب إليه منذ تلك الليلة.

والطعام هناك يضارع الطعام في «فيو مولان»، فضلًا عن أن هناك موسيقى.

- أفضل. ألا أذكر تلك الليلة.

- آسف. فأننا أحيانًا نكون غيبًا أحقر يا «توماس». ما رأيك في عشاء صيني في شولون؟

- عليك أن تحجز مقدمًا لو شئت الحصول على طعام جيد. هل

تخشى «فبو مولان» يا «بايل»؟ إنه محاط بالأسلاك بطرءه
محكمة، وتجد الشرطة دائماً فوق الكوبري. ولا أحسبك مـ
الحق بحيث تجوس بعربتك في داكو؟ أليس كذلك؟
- ليس هذا، كل ما في ذهني أنه سيكون مضحكاً أن نقضي أمسه
طويلة هناك الليلة.

ندت عنه حركة قلبت الكأس فتهشمت فوق الأرضية. قال بطريقة آليه:
- أتمنى لك حظاً سعيداً يا «توماس»، أنا أمفـ.
بدأت ألتقط شظايا الزجاج وأضعها في الصبينة.
- ما رأيك في هذا يا «توماس»؟
ذكرني حطام الكأس بالزجاجات المهشمة في بار «البافيلون»
ومحتوياتها نططر منها.

- حذرت «فونج» من أنني قد أخرج معك الليلة.
ما أسوأ اختيار لفظ «حذرت». التقطت آخر شظية من الزجاج.
قلت:

- أنا على موعد في «الماجستيك»، ولا أستطيع أن أربط بموعد
قبل التاسعة.

- حسن، أحسب أنني سأضطر إلى العودة إلى المكتب. إن ما
أخشاه دائماً هو أن يعوقني شيء.

لم يكن ثمة ضير في أن أمنعه تلك الفرصة الوحيدة. قلت له:
- لا تنزعج إذا ما تأخرت، لو عاقك شيء ما فانتب إلى هنا بعد
ذلك. سأعود في العاشرة، وسأكون في انتظارك لو لم يتسن
لك تناول الغداء.

- سأخبرك.

- لا تحمل همًا. ليس عليك إلا أن تذهب إلى «فيو مولان» أو

تقابلني هنا.

وهكذا وضعت القرار مرة أخرى بين يدي هذا الشخص الذي لا أثق به، قد تدخل لو أردت ذلك، برقية على مكتبه، رسالة من الوزير. إنك لا يمكنك الوجود ما لم تملك القوة لتغيير المستقبل.

- انصرف الآن يا «بايل». ثمة أمور عليّ أن أفرغ منها.

وأحسست بإعياء غريب، وأنا أسمع خطوه وهو يمشي بعيدًا مصحوبًا بحفيف مخالط قلبه.

(٣)

عندما خرجت من البيت كان أقرب مكان يمكن أن أهتدي فيه إلى سائقي عربات «التريشو» هو شارع دورامي. سرت حتى «الماجستيك». ووقفت هنيهة أقرب تفريغ قاذفات القنابل الأمريكية. كانت الشمس قد غربت، والعمال يعملون على ضوء مصابيح البطاريات. لم أفكر إطلاقًا في اختلاق سبب أثبت به غيابي سوى أنني أخبرت «بايل» أنني ذاهب إلى «الماجستيك». وأحسست بنبور غير معقول لأنني كذبت أكثر مما يقتضي الأمر.

- مساء الخير يا «فاولر».

كان «ويلكنز».

- مساء الخير .
- كيف حال الساق؟
- لا بأس الآن.
- هل أبرقت بقصة صحفية جيدة؟
- تركت ذلك لـ«دومنجيز».
- أوه، قبل لي إنك كنت هناك.
- أجل، كنت هناك، ولكن الصحيفة مزدحمة بالمواد هذه الأيام، وهم لا يحبذون الإطناب.
- لقد فقد الطبق نكهته الشهية، اليس كذلك؟ كان حريًا بنا أن نعيش أيام «رسل» و«التايمز» القديمة. ترسل برقياتك بالبالون.
- كان المرء يجد فسحة من الوقت آنذاك ليستطر بعض كتابات من نسج الخيال. بل إنه كان قادرًا على أن يكتب عمودًا بأكمله من عنده. الفندق الفخم وقاذفات القنابل وهبوط الليل. أما اليوم فإن الليل لا يهبط أبدًا، حتى وإن تكلفت الكلمة قروشًا عديدة.
- وهناك على البعد حيث تطالعك السماء سمعنا صيحات ضحك خافتة: ثمة شخص ما حطم كأسًا مثلما فعل «بابل». سقط علينا الصوت كأنه مخروط جليد مذهب. ساقى «ويلكنز» العبارة التالية وهو يحس بالضيق: «وسقط ضوء العصا بيع المتلاثة على نساء جميلات ورجال بواسل»، ثم أردف بقول:
- هل لديك ما يشعلك الليلة يا «فاونر»؟ هل لك أن نبحث عن مكان للعشاء؟
- اتفقت على موعد للعشاء في «فيو مولان».

- أألهنى أن تستمتع. سيكون «جراتجر» هناك. أخرى بهم أن يعلنوا
عن ليالي «جراتجر» الخاصة من أجل أولئك الذين تروقه
الضوضاء في خلفية النوادي.

ودعته ودخلت السينما المجاورة. كان «إيروول فلين» أو ربما
«تيرون باور» (فلمت أدري كيف أميز بينهما من حيث ملابسهما
الضيقة) معلقاً ببعض الحبال يتأرجح بها ويقفز من شرفة إلى أخرى،
ثم يمنطي صهوة جواد عاري الظهر مع أشعة النهار الأولى بألوانها
الطبيعية. أنفذ فتاة وقتل عدواً وعاش حياة بهيجة. كان واحداً من
فلك الأفلام التي يسمونها «أفلام للصية». ولكن من المؤكد أن
رؤية أوديب وهو يخرج دامي العينين من قصر طيبة هي خير درس
عن الحياة نتعلمه اليوم. ليس ثمة حياة ساحرة. كان الحظ حليفاً
لـ «بابل» في فات ديم وفي طريقه عائداً من تايين، بيد أن الحظ
لا يدوم، وخلال ساعتين علموا أن لا أثر للسحر. جلس بجانب
جندي فرنسي يده في حجر فتاة، وغبطته، ولكن لمست أدري هل
لبساطة سعادته أم لتعاسته. خرجت قبل أن ينتهي الفيلم، وأخذت
عربة «تريشو» قاصداً «فيو مولان».

كان المطعم مسوراً بالأسلاك لتحمية من القنابل، ووقف
جنديان ملحان للحراسة عند طرف الكوبري. وصادفت صاحب
المطعم الذي زادت بداته من تناول الطعام الدسم الممزوج ببيذ
«البورجاندي»، وأدخلني من خلال الملك بنفسه. كان المكان يعبق
برائحة الديوك المسنة المخصية والزبد المنصهر في حرارة الماء
القانظة. سألتني:

- هل ستلحق بحفل السيد «جرانجر»؟

- لا.

- مائدة لشخص واحد؟

وهنا ولأول مرة بدأت أفكر في المستقبل، والأسئلة التي سببني.
عليّ أن أجيب عليها.

- لو احدى.

قلت ذلك، وغلت أنني قلت بصوت عالٍ لقد مات «بايل».

كانت هناك قاعة وحيدة، وشغل حفل «جرانجر» مائدة كبيرة في آخر القاعة. وأعد لي صاحب المطعم مائدة صغيرة قريبة جدًا من الأسلاك. كانت النواقد بلا زجاج خوفًا من شظايا الزجاج إذا ما تحطم. وتعرفت على عدد قليل يشاركون «جرانجر» لهوه وانحنيت لهم قبل أن أجلس. أما «جرانجر» نفسه فقد أشاح بوجهه. لم أكن قد رأيته منذ عدة شهور، سوى مرة واحدة في تلك الليلة التي عرف فيها «بايل» الحب. وربما بدت مني ملاحظة عدوانية في تلك الأمانة واخترقت الضباب الذي صنعه الكحول، ذلك أنه جلس متجهماً عند رأس المائدة، بينما حيائي بإيماءة كل من «ديبريه»، وهي زوجة ضابط في العلاقات العامة، وكابتن «دوبراك» المختص بالخدمات الصحفية. وكان ثمة رجل ضخيم أحسب أنه صاحب فندق في بنوم بنه، وفتاة فرنسية لم يسبق لي أن رأيتها، ووجهان آخران أو ثلاثة لم أشهداها إلا في الباربات. وبدأ الحفل هذه المرة حفلًا هادئًا على غير العادة. أردت أن أمهل «بايل» حتى يحجي. فطلبت كأسًا من «الباستيس»، ندير وتأتي الأحداث على غير ما نشتهي، وكان يتراءى لي ما دمت

لم أتناول بعد العشاء فثمة فحة أمل، ثم تساءلت عن ما أمل فيه. حظ سعيد لـ «أو. إس. إس.» أو آيا كان اسم عصابته؟ أم حياة مديدة لفنايل البلاستيك والجنرال «ني»؟ أم أمل أنا - وحدي دون الناس جميعًا - في أن تحدث معجزة ما. أن يدبر السيد «هنج» أسلوبًا للمناقشة لا يكون هو الموت بعينه؟ ما أيسر الأمر لو أننا لقينا حتفنا على قارعة الطريق ونحن عائدون من تانين. وجلست قبالة كأس «الباستيس» ما يقرب من عشرين دقيقة ثم طلبت العشاء. اقتربت الساعة من التاسعة والنصف، إنه لن يأتي الآن.

وأنصتُ رغماً عني، لأي شيء؟ صرخة؟ طلقة؟ حركة ما من الشرطة في الخارج؟ ولكن الأرجح على أي الأحوال أنني لن أسمع شيئاً، إذ بدأ الحماس يدب في حفل «جرانجر». شرع صاحب الفندق الذي يتمتع بصوت عذب غير مدرب في الغناء. وما إن انطلقت سداة زجاجة جديدة من الثمانيات حتى لحق آخرون بالحفل. ولكن لم يكن «جرانجر» أحدهم. لقد ظل جالساً هناك يحملق في بعينه الصامتين عبر القاعة. وتساءلت هل ستنب معركة؟ فلت ندأ لـ «جرانجر».

كانوا يتغنون بأغنية عاطفية، وبينما كنت جالساً بغير شهية أمام النموذج السيئ لطبق «شابون دوك شارل» طافت «فونج» بخاطري. وهذه هي أول مرّة أفكر فيها منذ عرفت أنها آمنة لم يمسسها ضرر. وتذكرت قول «بايل» وهو جالس على الأرضية في انتظار قوات «الفيتمنه»: «إنها تبدو يانعة كالزهرة الغضة»، وكان ردي عليه: «زهرة نعمة». إنها لن ترى أبداً «نيو إنجلند» بعد الآن ولن تتعلم أسرار

«الكاتاسانا». ربما لن تعرف الطمأنينة بعد الآن. بأي حق يخد...
 فبمتها عن قيمة الجثث الصريحة في الميدان؟ إن المعاناة لا تزيـ
 زيادة رقمية. فجسد واحد قد يسع كل ما يشعر به العالم من معاناة
 لقد حكمت كصحفي بمقاييس كمية وخنث مبادئني. أصبحت متورطاً
 مثل «بايل» تماماً، وخيل إلي أن أي قرار لن يكون أمراً يسيراً عليّ بعد.
 الآن. ونظرت إلى ساعتني وكانت العاشرة والربع على نحو التقريب،
 ربما وقع في الشرك. وربما تصرف ذلك الشخص المجهول الذي
 يطمئن إليه لصالحه، وهو الآن جالس في غرفته بدار المفوضية مهتاج
 أمام بركة يحاول فك رموزها، ثم سيذهب من فوره ليطلق درج السلم
 صاعداً إلى غرفتي في شارع كاتينات. وفكرت: «لو فعل هذا فسوف
 أفضي إليه بكل شيء».

نجاهة نهض «جوانجر» وترك المائدة وأتى إليّ. إنه لم يرَ حتى
 المفعد الذي في طريقه وتعر وأسند يده على حافة مائدتي. قال:
 - «فاولر»، تعال معي إلى الخارج.

أمسكت عن تفسيرات كثيرة واقتضيت أثره. لم أكن في حالة مزاجية
 تسمح لي بالعراك معه، ولكن ما كان لي في تلك اللحظة أن أعبأ إذا
 ما هزمني لاشعورياً، فنحن لا نملك غير وسائل قليلة جداً نخفف
 بها من الإحساس بالإثم.

مال على حافة سور القنطرة وتطلع إليه رجلا الشرطة عن بعد. قال:
 - عندي حديث أود أن أفضي به إليك يا «فاولر».

دنوت منه إلى مسافة تتألف فيها يده وانتظرت. لم يبد حراكاً.
 كان أشبه بتمثال يرمز لكل ما أمقته في أمريكا، تصميمه سيح

كتصميم تمثال الحرية وكانعدام معناه. قال من دون أن يتحرك من مكانه:

- تظنتي غاضبًا. أنت مخطئ.

- ماذا يا «جرانجر»؟

- عندي ما أفضي به إليك يا «فاولر»، لا أريد أن أجالس الليلة أكلة الضفادع هؤلاء. أنا لا أحبك يا «فاولر» بيد أنك تتحدث الإنجليزية، ضربًا من الإنجليزية.

مال في وقفته. بدبًا غير محدد الهيئة في الضوء، انخافت، أشبه بقارة مجهولة لم تكتشف بعد.

- ماذا تريد يا «جرانجر»؟

- أنا أكره الإنجليزية، لست أدري لماذا يرتاح إليك «بابل»، ربما لأنه من بوسطن. أنا من بتسبرج، ولاني لفخور بذلك.

- لم لا؟

- ها أنت ذا ثانية.

وأبدى محاولة تافهة ليسخر فيها من نيرني. ثم استطرد:

- تتحدثون جميعًا من أنوفكم. عليكم اللعنة أيها السادة المترفعون. تظنون أنكم أحطتم بكل شيء علمًا.

- طبت مساء يا «جرانجر»، عندي موعد.

- لا تنصرف يا «فاولر». ألا تملك قلبًا؟ أنا لا أطيق الحديث مع أكلة الضفادع هؤلاء.

- أنت ثمل.

- لم أشرب سوى كأسين فقط من الشمبانيا، لو كنت مكاني أكانت

- الخمر تذهب بعقلك؟ عليّ أن أذهب إلى الشمال.
- وما الخطأ في هذا؟
- أوه، أنا لم أقص عليك، هل قصصت عليك؟ لا أفنا أظن أن الناس جميعًا يعرفون. واصلتني بريقة صباح اليوم من زوجتي - أجل؟
- أصيب طفلي بالتهاب في الحبل الشوكي وحالته سيئة.
- هذا أمر مؤسف.
- لا حاجة بك للأسف، فهو ليس طفلك.
- ألا يمكنك الطيران إلى بلدك.
- لا أستطيع، إنهم يريدون مني قصة صحفية عن بعض عمليات التطهير العسكرية اللعينة قرب هانوي، و«كونبيلي» مريض.
- («كونبيلي» هذا هو مساعدك).
- آسف يا «جرانجر»، كان بودي أن أساعدك لو استطعت.
- الليلة عيد ميلاده، سيبلغ الثامنة من عمره في الساعة العاشرة والنصف الليلة. وهذا هو السبب في أنني أقمت هذا الحفل قبل أن أعرف أخباره. كان لا بد لي أن أقص ذلك على شخص ما يا «فالر»، ولا أستطيع ذلك مع أكلة الضفادع.
- ثمة وسائل عديدة اليوم لعلاج التهاب الحبل الشوكي.
- لا يهمني يا «فالر» أن يصاب بكساح أو حتى أن يعيش - بالنسبة لي فإنني لن أكون كسيحًا نافعًا، ولكنه يتمتع بذهن متوقد. أتعرف ما الذي كنت أفعله هناك بينما كان أولاد المحرام يغنون؟ كنت أصلي وقلت في نفسي ليت الله يقبضني إليه إن كان يريد حياة

إنسان.

- إذن هل تؤمن بالله؟

- وددت لو أنني أؤمن به.

ومسح وجهه براحة يده وكأنه يعاني صداعًا، بيد أنه أراد بحركته هذه أن يخفي الحقيقة، وهي أنه كان يمسح دموعه. قلت له:

- لو كنت مكانك لشربت حتى سكرت.

- أوه، لا. أردت أن أظل متعاليًا لنفسِي. لا أريد أن أذكر بعد

ذلك أنني كنت ثملًا كرهه الراححة ليلة وفاة ولدي. وزوجتي لا ترضي لنفسها أن تشرب، أليس كذلك؟

- ألا نستطيع أن نخبر صحيفتك...

- إن «كونيللي» ليس مريضًا حقيقة. لقد افتضى أثر فتاة سافرت إلى ستغافورة، ومن ثم وجدت لزامًا عليّ أن أغطي موقفه، إذ إنهم سيفصلونه لو علموا بذلك.

استجمع شمل بدنه غير المحدد الهيئة. قال:

- آسف إذا كنت قد شغلتك يا «فاولر». كنت فقط أريد شخصًا

ما أبته ما في نفسي. لك أن تدخل الآن لتبدأ في شرب أناخيك.

من المضحك أن يكون حديثي إليك، وأنت الذي تمغت سماع صوني.

- سأكتب لك قصتك الصحفية نيابة عنك. بوسعي أن أكتبها وكأن

«كونيللي» هو كاتبها.

- لن يتسنى لك تقليد لكتته تمامًا.

- أنا لا أكرهك يا «جرانجر»، كنت أعنى عن أمور كثيرة...

- أوه، أنت وأنا، كالقط والكلب، ولكن شكرًا لتعاطفك معي
تساءلت في نفسي هل أنا أختلف في كثير عن «بايل»؟ أكان لزامًا
عليّ أنا أيضًا أن تزل قدمي في شرك الحياة قبل أن أرى الألم؟ دلف
«جرانجر» إلى الداخل، وتناهدت إلى سمعي أصوات ترتفع محييه
إياه. اهتديت إلى عربة «تربشو» ودرج بي سائقها عائدًا إلى البيت
لم يكن ثمة أحد في انتظاري. جلست وانظرت حتى انتصف الليل.
ثم نزلت إلى الشارع بغير أمل، وجدت «فونج» هناك.

الفصل الثالث

سألته «فونج»:

- هل جاء السيد «فيجو» لزيارتك؟

- أجل، وخرج منذ ربع ساعة. هل استمتعت بالفيلم؟

كانت قد أعدت الصينية في حجرة النوم، وها هي الآن تضيء

المصباح. قالت:

- كان فيلمًا حزينًا للغاية. أما الألوان فقد كانت تستهوي الفؤاد،

ماذا كان يريد «فيجو»؟

- أراد أن يسألني بعض الأمثلة.

- عن ماذا؟

- مواضيع شتى، لا أحسبه سيزعجني ثانية.

- تروثني الأفلام ذات النهايات السعيدة، فهي عندي أفضل. هل

أنت على استعداد للتدخلين؟

- أجل.

استلقت على فراشي، وانهمكت «فونج» في عملها وقد أمكت

بالإبرة. قالت:

- لقد قطعوا رأس الفتاة.

- ما أغرب هذا.

- كان ذلك إبان الثورة الفرنسية.

- أوه، تاريخي. فهمت.

- لقد كان محزنًا للغاية على أي حال.

- أنا لا أبتشس كثيرًا الحال الناس في التاريخ.

- وحبيبها، عاد أدراجها إلى غرفته فوق المطبخ. كان بائسًا وسطر

أغنية، أتفهم؟ كان شاعرًا. وسرعان ما تغنى بأغنيته كل أولئك

الذين قطعوا رأس فئاته. كانت أغنيته هي نشيد «المارسيليز».

- يبدو أنه ليس تاريخيًا بكل معنى الكلمة.

- كان واقفًا هناك عند طرف الجموع الحاشدة وهي تغني

وبدت عليه الممرارة الشديدة، وإذا يتسم تدرك أن ما يشعر به

من مرارة قد تضاعف، وأنه يفكر فيها. بكيت كثيرًا، وكذلك

فعلت أختي.

- أختك؟ أنا لا أصدق ذلك.

- إنها عاطفية جدًا. وذلك الرجل المريع المدعو «جراتجر» كان

هناك. كان ثملًا وظل يضحك طوال الوقت، علمًا بأن الفيلم

ليس مضحكًا على الإطلاق. كان فيلمًا محزنًا.

- أنا لا ألوهم، فئمة مناسبة عليه أن يحتفي بها، إذ أنقذ ابنه من

خطر. هذا ما سمعته في «الكوينتنال»، وأنا أيضًا أحب النهايات

السعيدة.

بعد أن فرغت من تدخين غليونين استلقيت على ظهري

وأسندت رقبتي إلى الوسادة الجلدية، واستراحت يدي في حجر «فونج». قلت:

- هل أنت سعيدة؟

قالت في ترائخ:

- طبعًا.

ثم أكن جديرًا منها بإجابة تنطوي على مزيد من التروي. كذبت عليها وأنا أقول:

- مثلما اعتدنا منذ عام مضى.

- أجل.

- لم تشتري إشاريًا جديدًا منذ وقت طويل. لماذا لا تخرجين للمشراء غداً.

- غداً يوم عيد.

- نعم، هذا صحيح. لقد نسيت.

قالت:

- لم ترفض برقيتك.

- لا، فقد نسيها أيضًا. لا أريد أن أشغل بالي بالعمل الليلة، فضلًا

عن أن الوقت متأخر جدًا لعمل أي شيء الآن. احكي لي المزيد

عن الفيلم.

- حسن، حاول حبيبها أن يخلصها من السجن، فهوَّب إليها ملابس

صبي وقبعة رجل تشبه القبعة التي يضعها حارس المرمى على

رأسه. ولكن في اللحظة التي كانت تجتاز فيها بوابة السجن

انسدل كل شعرها، وصاحوا جميعًا «أرستراطية، أرستراطية».

أحسب أن هذه غلطة في الفيلم. كان أحرق بهم أن يدعواها
تهرب، ومن ثم كان بوسعهما أن يغنما أموالاً كثيرة من أغنيتهما.
وكان في استطاعتهما أن يسافرا إلى أمريكا أو إنجلترا.
وأضافت هذه الكلمة الأخيرة بما ظنته دهاء منها. قلت لها:
- أفضّل أن أقرأ البرقية. أسأل الله ألا أسافر إلى الشمال غداً. أريد
أن أنعم بالهدوء معك.
أخرجت المظروف من بين أوعية الكريم وناولتني إياه. فضضته
وقرأت:

أعدت التفكير في خطابك ثانية. سأصرف بفرقة
غير رشيدة كما كنت تأمل. طلبت من محامي أن يبدأ
[جرائم الطلاق بحجة الهجر. ليباركك الله.
«هيلين» المحبة لك

- هل ستضطر إلى السفر؟
- لا. لن أضطر إلى ذلك. سأقرأ لك. إليك نهايتك السعيدة.
وقفزت من على الفراش:
- مدهش. يجب أن أذهب إلى أختي لأقص عليها. سنسر للغاية.
سأقول لها: أتعرفين من أنا؟ أنا الزوجة الثانية للسيد «فاوليير».
ورأيت في مواجهتي في خزانة الكتب كتاب «دور الغرب»، برز
أمامي كأنه صورة كبيرة نفث في زي البحارة يقتضي أثره كلب أسود.
لم يعد في استطاعته أن يلحق أدنى بآي إنسان بعد الآن. سألتها:
- هل تفتقدينه كثيراً؟
- من؟

- «بايل».

ومن الغريب أنني أشعر إلى الآن أن من المستحيل عليّ أن أستخدم اسمه الأول، حتى إن كان ذلك في حديثي إليها.

- هل لي أن أذهب لو سمحت؟ إن أختي ستطير فرحاً.

- نطقيت باسمه ذات مرة وأنت نائمة.

- لا أذكر أحلامي أبداً.

- كان بوسعكما أن تفعلوا الكثير معاً، لقد كان شاباً.

- أنت لست شيئاً.

- ناطحات السحاب، ومبنى «إمباير ستيت».

قالت بعد قليل من التردد:

- أريد أن أرى أخدود «شيدر جورج».

- إنه ليس مثل «المجراند كانيون».

طرحتها على السرير، قلت:

- آسف يا «فونج».

- لماذا تأسف؟ إنها برفقة رائعة. إن أختي...

- أجل. اذهبي إلى أختك واحكي لها. قليني أولاً.

وإذا بفمها المهتاج يمس وجهي مئزقاً. وانطلقت.

طاف بخاطري اليوم الأول للقائي بـ «بايل»، كان جالساً بجانبني في

«الكورتنال»، وكانت عيناه على محل بيع المياه الغازية عبر الطريق.

سارت الأمور معي على خير وجه منذ أن لقي حظه، ولكن هأنذا أود

لو وُجد إنسان أقول له إنني آسف.

مارس ١٩٥٢ - يونيو ١٩٥٥

الكاتب

جراهام جرين (١٩٠٤-١٩٩٠) كاتب إنجليزي، كتب أكثر من خمس وعشرين رواية، من أشهرها: «الأمريكي النهادي»، و«رجلنا في هافانا»، و«القوة والمجد»، بالإضافة إلى عدد من كتب الرحلات وكتب الأطفال والسيرة الذاتية.

عمل جرين محررًا أدبيًا في جريدتي «تايمز» و«سبكتاتور»، كما عمل في وظيفة تابعة للمخابرات البريطانية في سيراليون أثناء الحرب العالمية الثانية. وقضى السنوات الأخيرة من حياته في فرنسا وسويسرا. وقد أصبحت عليه ملكة المملكة المتحدة وسام الاستحقاق البريطاني.

المترجمان

شوقي جلال كاتب ومترجم مصري من مواليد عام ١٩٣١. كتب عددًا من الكتب المهمة، مثل: «نهاية الماركسية»، و«العقل الأمريكي يفكر»، و«ثقافتنا والدائرة المفرغة». وترجم كثيرًا من الكتب المؤثرة، مثل: «الألة قوة وسلطة»، و«لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة»، و«بنية الثورات العلمية»، و«المسيح يُصلب من جديد»، و«الأمريكي الهادئ». وحصل على جائزة الكويت للتقدم العلمي.

محمود ماجد تخرج في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٥٨، وحصل على دبلوم معهد التخطيط القومي عام ١٩٨٣، وعمل لفترة طويلة في التخطيط القومي، واشتغل بالترجمة الصحفية منذ عام ١٩٧٨، فترجم وشارك في ترجمة عدد من الكتب، مثل: «الأمريكي الهادئ»، و«ما وراء المركزية الأوروبية»، و«دائرة المعارف الإسلامية»، و«في نشأة اللغة».

ترجمات الكرمة

١. صونيشكا - لودميلا أولينسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتيورا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجيرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الأوزة البرية - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق اللبدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين المبوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتر جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل قودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزوردي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دو هاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عباد.
١٨. الأمريكي الهادي - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حشي.



«انجاز رائع».

«الساترداي ريبينو».

«لا يوجد كاتب جاد في هذا القرن استطاع أن يفتر الخيال العام».

«ويتشكه أكثر من جراهام جرين».

«التايم».

«واحد من أفضل الكتّاب بأي لغة».

«الواشنطن بوست».

«لم أعرف قَطُّ رجلاً كان لديه دوافع أفضل لكل المشاكل التي سببها». هكذا يصف الراوي، «فاولر»، المبعوث الأمريكي، «آلن بايل»، المُسمّى «الأمريكي الهادئ».

«بايل» شاب مثالي أرسلته واشنطن في مهمة غامضة إلى فيتنام. حيث يخارب الجيش الفرنسي الفيتناميين، وبينما تؤدي سياسات «بايل» حسنة النية إلى إراقة الدماء، يجد «فاولر»، المراسل البريطاني المحنك والساخر، أنه من المستحيل أن يقف ويراقب، لكن دوافعه للتدخل مُشكوك فيها، سواء بالنسبة إلى الشرطة أو إلى نفسه.

على الرغم من انتقاد رواية «جراهام جرين»، «المعقدة والملبّسة بالمؤامرات والمكائد المضادة»، بأنها معادية لأمريكا، فقد أثبتت بعد سنوات قليلة من إصدارها، صوابها في إدانتها للتدخل الأمريكي في فيتنام.

تحولت هذه الرواية المثيرة للجدل، التي تدور حول الحب والبراءة والأخلاق، إلى فيلمين سينمائيين ناجحين.

ترجم شوقي جلال ومحمود ماجد هذه الرواية بدقة وبراعة، واستطاعا بذلك نقل أسلوب «جرين» السلس والتلفرافي إلى اللغة العربية.